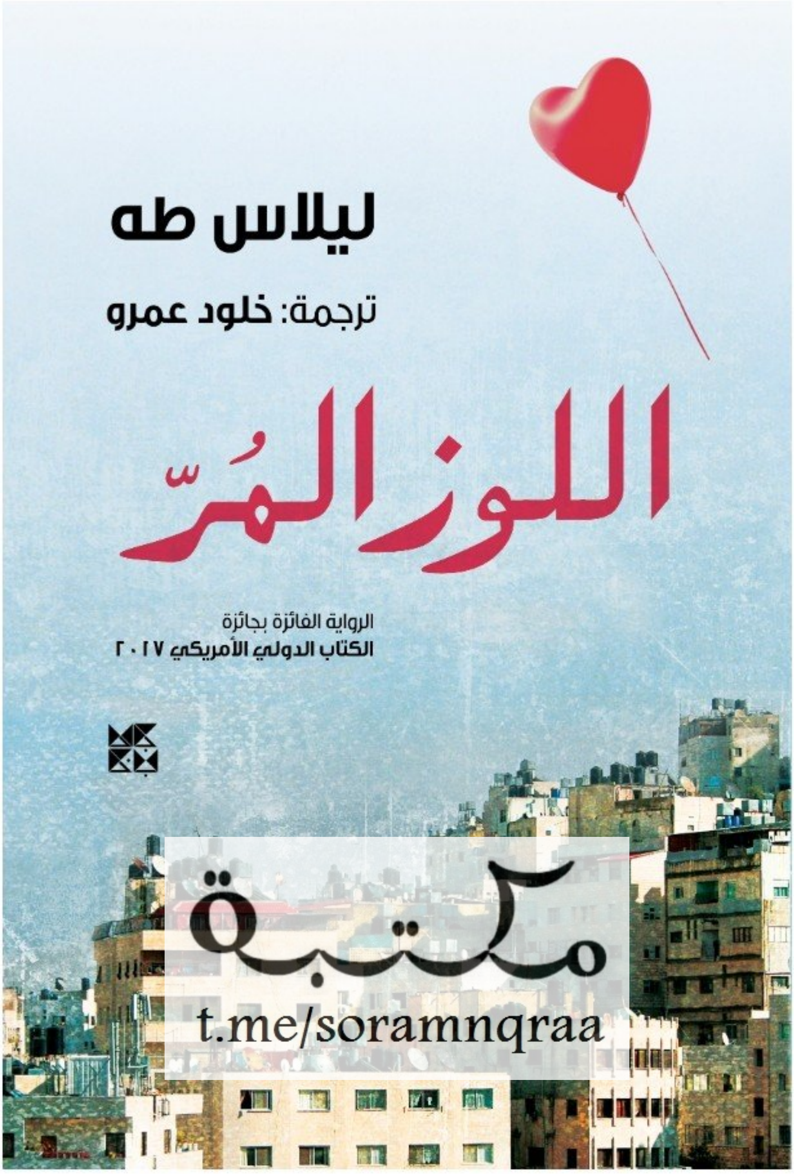
ليلاس طه
ترجمة: خلود عمرو
اللوز المُرّ
الرواية الفائزة بجائزة
الكتاب الدولي الأمريكي ٢٠١٧
مكتبة
t.me/soramnqraa

# اللوز المُرّ

ليلاس طه
ترجمة: خلود عمرو

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

*Bitter Almonds*
First published in 2015 by Hamad Bin Khalifa University Press.
Text Copyright © Lilas Taha, 2015

حقوق الترجمة © خلود عمرو، ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة.

جميع الحقوق محفوظة.
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١١٩٧٥٠

---

**مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة- أثناء- النشر (فان)**

طه، ليلاس، مؤلف.

[Bitter Almonds]. Arabic

اللوز المر / تأليف ليلاس طه ؛ ترجمة خلود عمرو. – الطبعة العربية الأولى.

الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ، 2018.

صفحة ؛ سم

تدمك : 978-9927-119-75-0

ترجمة كتاب: Bitter Almonds.

1. اللاجئون -- قصص. 2. العلاقات الإنسانية – قصص. 3. القصص العربية – سورية. 4. الفلسطينيون -- قصص -- مترجمات إلى العربية. ب. عمرو، خلود، مترجم. ج. العنوان.

PJ7816.A517 T343 2018

892.73– dc23

2018 26611892

إلى ذكرى والدي الحبيب

# 1

القدس

1948

قالوا لفاطمة ذات الخمس سنوات ألاّ تستدير، ولم يقل لها أحد أن تغمض عينيها أو أن تسدّ أذنيها. جلست وهي منشغلة عن الدمية البالية في حجرها، وألصقت وجهها بالنافذة. كان الرذاذ يتهادى مبقّعا سطح الزجاج البارد، والمصباح المعطوب في الشارع يخفق بأشعة صفراء متقطعة. هدّأت حبات المطر الناعم من روع فاطمة وهي تراقب، دون أن تأتي بحركة، انعكاس ما يجري خلفها فوق سطح الزجاج. إن ظلت جالسة مثل الصنم فلن يلاحظوا وجودها.

دفعت ماما يدي الداية المهتاجتين جانبًا ثم زحزحت جسدها الضخم إلى حافة السرير. زمجرت وانتصبت واقفة على قدميها، جذبت ياقة ثوبها القطني فقطّعت أزراره، واندلق صدرها الغارق بالعرق، ثم باعدت بين رجليها فانساب منها ما بلل أطراف ثوبها والسجادة الباهتة تحت قدميها.

أمرت الداية ماما بصوت مدخّنٍ أجشّ:

- ارجعي إلى السرير.

ردت ماما وهي تلهث:

- كلا، بمقدوري أن أفعل هذا. إنه على وشك الخروج، إنني أشعر به.

قرّبت الداية وجهها المغطى بالتجاعيد من وجه ماما:

- أنصتي جيدًا، طفلك بحاجة إلى المساعدة، ولن تتمكني من دفعه إلى الخارج بنفسك، حاولت طيلة النهار والليل...

دُفع الباب فانفتح على مصراعيه. دخلت الجارة الأقرب، صبحية، وسدّته ثم شمّرت عن ساعديها قائلة:

- كيف لي أن أساعد؟

ردت الداية، وقد دست ذراعيها تحت إبطي ماما لسحبها إلى السرير:

- تعالي، ساعديني قبل فوات الأوان، ارفعي رجليها.

انحنت صبحيّة لرفع رجلي ماما وهي تقول:

- كان يجب أن نأخذها إلى العيادة. لقد فات الأوان الآن، فجميع من في

القرية فرّوا منها.

- إنها عنيدة. لو فعلت ما طلبته منها، لكان هذا الطفل قد خرج منها بحلول هذا الوقت.

هزّت الباب الخشبيّ طرقات سريعة فتجمّدت النسوة.

علا من خلف الباب صوت زوج صبحيّة مُلحًّا:

- يجب أن نذهب.

صاحت صبحيّة من فوق كتفها:

- لا أستطيع تركها الآن يا مصطفى!

ردّ وقد نفد صبره:

- العصابات في طريقها نحو قريتنا، لا يمكننا الانتظار. الصغار في الشاحنة، سأفسح مكانا للمرأتين. هيا أسرعي!

قبضت صبحية على ذراع الداية:

- ما رأيك؟

هزّت الداية رأسها:

- إننا نعجز عن مجرد إرجاعها إلى السرير. لن أتركها، اذهبي مع زوجك.

أطلقت ماما صرخة مدوية وقرفصت، أرغمت المرأتين على الهبوط معها. قبضت على حافة السرير وحبست أنفاسها، انطبق جفناها بقوّة وأصبح وجهها بلون الدمّ.

صاحت الداية:

- أيتها المجنونة، توقفي عن الدفع، لم يحن الوقت بعد! ستؤذين نفسك.

صرخت ماما:

- لا يهم. اقترب، إنه على وشك الخروج!

ثم صرخت تستنجد بأمها، ثم بزوجها المتوفى، ثم بالله ليساعدها ويحمي طفلها وينهي عذابها. صرخت حتى تبدد صوتها.

لوهلة قصيرة، للحظة معلقة في الزمن، تبدّد الضجيج كله. لم تعد هناك قطرات تنقر النافذة أمام وجه فاطمة، أو امرأتان مهتاجتان تصرخان بالتعليمات لأمها، أو جار مذعور يخبط الباب. أصبح صوت واحد فقط مسموعًا.

شهقة.

ثم بكاء.

هرعت فاطمة إلى ماما متناسية ما وجه لها من أوامر بالبقاء بعيدة عن الأنظار وهتفت:

- ولد؟

لم تكترث المرأتان لقدومها.

همست فاطمة مندهشة مما يكسو رأس الصغير من زغب أحمر:

- أوه، ماما، انظري إلى شعره!

لفّت الداية الوليد بمنشفة، ثم أطبقت بشفتيها على أنفه وفمه ومصّت بشدة، غارت وجنتاها عميقًا في وجهها النحيف، ثم أبعدت وجهها وبصقت على السجادة الوسخة. كررت ما فعلته بضع مرات، ثم وضعت الطفل بين يدي ماما المرتجفتين.

عادت الطرقات لهزّ الباب من جديد ، وعلا صوت مصطفى:

- صبحيّة، أرجوكِ. يجب أن نذهب الآن.

مسّت ماما جبين المولود بشفتيها فأجهزت الحركة البسيطة على ما بقي فيها من قوة. انطبق جفناها وانطرح رأسها فوق حافة السرير. «خذوه،» تمتمت بلا صوت.

أزاحت فاطمة ما يغطي جبين ماما المتعرق من شعر متناثر وقالت بحنان:

- سأساعدك على الاعتناء به يا ماما.

حضنت صبحية الوليد، ثم تفحصّت وجه الداية فوجدته متجهمًا ومنذرًا بالسوء.

صرخ مصطفى من خلف الباب:

- سأدخل!

اختطفت الداية بطانية من فوق السرير، وغطّت بدن ماما.

اقتحم مصطفى الغرفة، وقبض على كتفي زوجته ثم سحبها قائلًا:

- اذهبي إلى الشاحنة

ركع على الأرض مخاطبًا الداية:

- اجمعي ما تحتاجينه بسرعة، سآخذكم معي لنفرّ من هنا.

دفعت الداية يديه عنها:

- اذهب وخذ فاطمة معك، سأظل معها هنا. هيا، خذ عائلتك وارحل.

- لن أترككما، لم يبق أحد هنا. ستعتنين بها في الطريق حتى نصل البلدة المجاورة، وإن كانت آمنة سأبحث عن طبيب.

- إن حركتها من مكانها ستنزف حتى الموت.

- وستموتان معًا إن بقيتما هنا، ألم تسمعي بما فعلته عصابتا شتيرن وإيرغون في دير ياسين؟ ذبحوا الجميع بمن فيهم النساء والأطفال. سيفعلون الأمر

نفسه لحظة وصولهم إلى هنا. والآن، توقفي عن الكلام، وتحركي أيتها العجوز.

جلست صبحية والوليد بين ذراعيها فوق كومة من البطانيات داخل الشاحنة الصغيرة. كان ابنها، شريف، بأشهره الثلاثة، غافيًا بين ذراعي أخته هدى ذات الأعوام الثمانية. ارتخى الغطاء الذي يحميهم من المطر واستقرّ فوق رأس صبحية.

دسّت فاطمة جسدها الصغير إلى جانب هدى، ووضعت رأس ماما في حجرها.

تعلقت الداية فدخلت إلى الشاحنة، ثم انهمكت في تمديد ماما في أكثر وضعية مريحة.

سألتها صبحية:

- هل تذكرتِ إيصاد الباب بالمفتاح؟

ردت الداية وهي تطبطب على صدرها:

- أجل، خبأت مفتاح الدار هنا.

صفق مصطفى باب الشاحنة الخلفيّ بقوة قائلًا:

- سنعود خلال أسبوعين، حال أن ينتهي هذا البلاء.

# 2

دمشق

بعد عشر سنوات، 1958

وضعت فاطمة سلة الغسيل فوق رأسها، ثم جذبت طرف فستانها الطويل، صعدت درج السطح ودفعت بابه المعدنيّ فخرجت إلى نهار مشرق. كانت الحبال المرتخية تقطع رقعة السطح الفسيحة طولًا وعرضًا، استغلّت فاطمة كل شبر منها في نشر حمولتها المبتلّة بجد ونشاط وهي تدندن طيلة الوقت. إن لديها واجبات أخرى لا بد من القيام بها، ولكنّ العائلة كبيرة، وغسل ثياب جميع أفرادها يستغرق وقتًا طويلًا. كانت قد بدأت بمهمتها منذ الفجر، وها هي توشك على الانتهاء من الحمل السادس والأخير لتتكفل شمس الظهيرة بإتمام تلك المهمة. قلبت سلة الغسيل الفارغة لتتخلص مما فيها من ماء ثم شدّت ظهرها إلى الوراء.

علا صراخ صبيّ بسيل من البذاءة في الشارع، فميّزت فاطمة الصوت وعرفت صاحبه، ولكنها، مع ذلك، ركضت إلى سور السطح لتتأكد. كان أخوها يقف محاطًا بمجموعة من الصبيان، كلهم أكبر وأضخم منه، نادته :

- عمر! قابلني أسفل الدرج.

رفع بصره ونظر بعبوس إلى أخته التي قطعت الشجار الدائر، ثم دفع حشد الصبية من حوله متجهًا صوب مدخل البناية المؤلفة من ثلاثة طوابق. تردد صوت خطوات فاطمة المهرولة في مدخل الدرج حيث انتظرها عمر فوق الدرجة الأخيرة، وأصوات الصبية الهازئة به تصله من خلفه.

«أنقذتك أختك الكبيرة!»

«لن نبرح المكان يا عمر!»

«لست برجل إن لم تنه ما بدأته!»

سألها بضيق وعلى عجل:

- ماذا تريدين يا فاطمة؟

نفضت مقدمة فستانها المبتلة لتمنعها من الالتصاق برجليها وقالت موبخة:

- سمعت ما تفوّهت به، كم مرة قلت لك ألا تستخدم هذه الألفاظ؟

- حاولت أن أمنع نفسي من استخدام قبضة يدي.

- كنت ستفعل لو أنني لم أتدخل، صحيح؟

تململ معتذرًا :

- آسف على ما بدر مني من كلام بذيء.

- لماذا الشجار؟

هزّ كتفيه ولم يتظاهر بالبراءة:

- لا شيء.

لم تصدق فاطمة شقيقها، فهي تعرف سبب تورطه من حين لآخر في شجارات مع صبية الحيّ. كان جميع الجيران يدركون أن عمر ليس من أبناء العم مصطفى، فهو بينهم مثل العلامة الفارقة. أما هي، فعلى الأقل، لها نفس لون بشرة أولاد العم مصطفى، ولهذا كان سهلًا أن تبدو واحدة منهم. لكن بشرة عمر بيضاء، شعره أحمر ذهبيّ، وعيناه زرقاوان. كما أن هيئته مختلفة عن سائر الصبيان؛ كان مُقِلًّا في تبسمه، ويمشي بثقة واعتداد مقطّبًا جبينه كما لو أنه يرنو إلى شيء في الأفق. كان يبدو مثل صاحب غاية يجدّ في طلبها ويسعى إلى تحقيقها.

ولأسباب تجهلها فاطمة، دأبت عجوز مزعجة في الحيّ على مناداته بـ «الإنجليزي» فالتصق به هذا اللقب الذي لا يطيقه شقيقها. كانت فاطمة تعرف أن سبب معظم الشجارات التي يواجهها عمر هو هذا اللقب، وأغلب الظن أنه سبب هذا الشجار أيضًا.

اقتربت لنفض الغبار عن ياقته موبخة:

- انظر إلى ما فعلته بقميصك المدرسيّ! اصعد واخلعه كي أغسله ليكون جاهزًا في الغد. كم مرة قلت لك أن ترجع إلى البيت مباشرة بعد المدرسة وتخلع زيّك المدرسيّ؟

- ألف مرّة.

تمكن عمر وباقتدار من تحويل رده المطيع إلى اتهام، لكنها تجاهلته وواصلت توبيخها:

- وماذا حلّ بشعرك؟

مدّت يديها لتمهّد أطرافه التي انتصبت مثل هوائيّ استقبال فوق رأسه، فانحنى بسرعة مخللًا شعره بأصابعه:

- الريح شديدة هذا اليوم.

ضيّقت عينيها :

- انتظر لحظة، الدوام المدرسيّ لم ينته بعد، لماذا لست في مدرستك؟

شبك عمر يديه، وقال مندهشًا :

- ألا تعرفين؟ وصل جمال عبد الناصر اليوم. إنه هنا في دمشق!

علا صوته متوهّجًا ثم هبط أجشّ فتنحنح:

- عبد الناصر سيعلن عن قيادته للوحدة بين سوريا ومصر، ثم ستنضم سائر الدول العربية إلى الجمهوريّة العربيّة المتحدة.

نفخ صدره، وشدّ قامته وهو يركز بصره في نقطة خلف كتفيها ثم قال:

- سنعود إلى فلسطين.

تقافز حماس عمر من حول فاطمة، وتهلل وجهه بالبشر ثم تراقصت شرارة في سماء عينيه الزرقاوين. حاولت جاهدة أن تظل على عبوسها:

- ولهذا سُمح لكم بمغادرة المدرسة مبكرًا ؟

- الجماهير تحتشد في الشوارع المؤدية إلى ميدان الضيافة لرؤية عبد الناصر، إنني في طريقي إلى هناك.

توقف هنيهة وأشار بإبهامه إلى الخلف:

- حال أن أنتهي من هؤلاء.

كانت فاطمة تتمنى لو كان في وسعها الذهاب لرؤية هذا الزعيم الذي ذاع صيته في كل مكان. فعلى مرّ الشهرين الماضيين، لم يكن من حديث بين الناس سوى خبر قدومه إلى سوريا. كان تأميمه لقناة السويس قبل سنتين قد حمل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على شنّ عدوان ثلاثيّ لضربه، لكنه لم يتزحزح عن مطلب سحب القوات الأجنبية من قناة السويس وسيناء، فألهب بذلك نيران القوميّة العربيّة من المحيط إلى الخليج، وأصبح بطلًا عظيمًا يُكْبِرُهُ الكبار والصغار.

أمسكت فاطمة بمرفق عمر:

- اقترب من الرئيس قدر ما تستطيع، أريدك أن تعود لي بالتفاصيل.

تغيّر مزاج عمر فقطّب حاجبيه وسحب نفسًا طويلًا :

- عمّا قريب سنعود إلى بيت أبينا.

شيء ما في نبرته استوقفها، شيء جديّ جعله يبدو أكبر من سنواته العشر. ما الذي يدور في رأس هذا الصبيّ؟ إنه لم يأت على ذكر بيت أبيهما من قبل. ولكن مؤخرًا، استولى الحماس على الناس جميعًا، وأصاب كثيرين منهم بالأرق والسهر. أهو الأمل؟ هل أصيب أخوها بالعدوى؟ لقد كان يلتصق بالمذياع كل مساء منصتًا إلى ما يتبادله اللاجئون الفلسطينيون في لبنان والأردن من رسائل إذاعية، يستفسرون فيها عن أقربائهم في مخيمات الشتات. ورغم أن عمر لم ينطق ولو بكلمة واحدة، إلا أن فاطمة تعرف أنه يتوق إلى سماع أخبار أي ناجين من عائلتهم. كيف يمكن للمرء أن يقول لصبيّ إنه الذكر الوحيد الذي نجا من

عائلته؟ إن بقاء اسم عائلة بكري يقع على كاهله، مرهون به، به وحده.

نفضت تلك الأفكار من رأسها وسألته:

- أين شريف؟ ألا يفترض أن يكون قد ترك المدرسة أيضًا ؟

استدار عمر وألقى نظرة خاطفة خارج الباب ثم أشار بذقنه:

- إنه هناك.

اقتربت فاطمة كي ترى بنفسها فرأت صبية الحيّ ينتظرون عمر، ولكن شريف يقف متنحيًا خارج دائرتهم. رفعت إصبعها في وجه عمر متوعدة:

- إياك أن يتعرض للأذى! أنت تعرف كم يضايق هذا ماما صبحية. إنك تورطه دائمًا بالمشاكل.

احمرّ وجه عمر وكأنّ أحدهم أشعل عود ثقاب تحت وجنتيه فردّ عليها محتجًّا:

- لا حيلة لي في هذا الأمر، إنه يتبعني مثل ظلي.

- هذا صحيح، ولكن يفترض بك أن تعتني به فشريف ليس في مثل قوتك.

- إنه الأكبر سنًّا.

طوى يديه فوق صدره وتابع متبرمًا:

- ومن المفترض أن يقوم هو بحمايتي **أنا**.

- حقًّا ؟ والفرق بينكما ثلاثة أشهر ليس إلا؟

خففت فاطمة من حدة لهجتها:

- منذ متى أصبحت تعتبره أكبر منك وأنت تسيّره وفق ما تحب وتهوى؟ في المرة المقبلة، أرسله إلى البيت قبل أن تبدأ أيّ شجار، مفهوم؟

رفع عمر حاجبيه وفتح فمه ليقول شيئًا فسبقته فاطمة:

- ولا ينبغي لك أصلًا أن تتشاجر مع أحد، هناك طرق أخرى لحلّ المشاكل.

نادى صبيّ على «الإنجليزيّ» ليخرج ذليلًا، ويتراجع عما بدر منه.

وضع عمر يديه على كتفي فاطمة وقال مطمئنًا :

- لا تقلقي على شريف، لن أسمح بتعرضه للأذى.

رماها بواحدة من ابتساماته النادرة، فاستقرّت في قلبها مباشرة. ماذا ستفعل بهذا الصبي عندما يصبح شابًا ؟ لحسن الحظ أنه لا يبتسم كثيرًا، وإلا فإن الصبايا سيذبن عند قدميه، وتصبح شجاراته مع الرجال وليس الصبية. تنهدت وقالت:

- لا تفسد قميصك، أتوقع دخولك خلال خمس دقائق بالضبط. لا بد لك من استبدال ملابسك قبل الذهاب إلى الميدان.

طبطبت على كتفه:

- لا تستخدم لسانك الحاد أو قبضة يدك.

خرج عمر إلى الشارع قائلًا:

- وبماذا أقاتل؟

صرخت عليه:

- فكّر يا عمر، استخدم رأسك.

وهكذا فعل. هرول مباشرة نحو أضخم صبيّ في المجموعة ونطحه برأسه فأرداه أرضًا.

# 3

بعد ثلاث سنوات، 1961

كان ما تتحلى به فاطمة من صفات الأمومة تجاه أولاد ماما صبحية الخمسة لا يعلى عليه، ولهذا فضّل صغار العائلة ما تتسم به من لطف وحنان على ما تتصف به شقيقتهم الكبرى هدى من جلافة الطبع وحدة التعامل. بعد معاناة طويلة في الدراسة، تركت هدى المدرسة بعد الصف العاشر وجلست في البيت، فضمتها الداية العجوز تحت جناحها وعلمتها أسرار مهنتها، وهذا ما أتاح لهدى فرصة الحصول على إجازة عمل كقابلة قانونية لدى بلوغها الثامنة عشرة. أصبحت هدى ذراعًا أيمن للداية وصار سكان الحي من اللاجئين الفلسطينيين يطرقون بابها، فأسهم عملها مساهمة بسيطة في تخفيف أعباء العائلة الماليّة.

تحمّلت فاطمة مسؤوليات الأخت الكبرى في البيت، وتمكنت في الوقت ذاته من الحصول على شهادة الثانوية العامة، فشجعها العم مصطفى على التسجيل في معهد التمريض قائلًا إنه سيبحث عن طريقة لتأمين تكاليف دراستها. لكن فاطمة كانت تعرف بأنه لا قدرة لهم على ذلك، فالعمّ مصطفى مجرد عامل في مصنع للصوف وماما صبحية منشغلة بالحمل والولادة، ولهذا اضطرت فاطمة لتأجيل بعض أحلامها، أوالتخلي عنها بالمرة.

ذات مساء، دلفت فاطمة إلى غرفة ماما صبحية وهي تحمل صينية عليها فنجانان من القهوة.

سألتها ماما صبحية:

- ماذا تعنين بأنك عثرتِ على عمل؟

جلست فاطمة بحذر فوق السرير كي لا تزعج الرضيعة سلمى التي تغفو بجانب أمها وقالت بصوت منخفض:

- عرضت عليّ أم وليد أن أساعدها لمدة ساعتين مساء، بيتها لا يبعد كثيرًا عن بيتنا.

- أم وليد، الخياطة في آخر الشارع؟

- هي بعينها، أنت تعرفينها. سأعود في موعد نوم الصغار لأساعد على تغيير ملابسهم ووضعهم في أسرّتهم. لن تكون هناك مشكلة.

- ولكن يا **حبيبتي**، أنت لا تعرفين كيفية إدخال خيط في إبرة.

كانت فاطمة تشعر بأنها مميزة كلما خرجت كلمة حبيبتي بدفق أمومي من شفتي ماما صبحية.

- قالت لي أم وليد إنها ستعلمني، وهي تريد أيضًا أن أقوم بكيّ ما تصنعه من ثياب، وتولي عمليات إصلاح بسيطة، وستدفع لي مقابل كل قطعة أنجزها.

مالت فاطمة إلى الأمام، وشددت على كلماتها:

- انظري في الأمر جيدًا، إنني سأتعلم حرفة وفي الوقت ذاته سأجني المال.

هزّت ماما صبحية رأسها:

- نحن لا ننتظر منك جني المال. إن التحقتِ بكلية التمريض، فستحصلين على درجة علميّة ووظيفة بأجر أعلى.

خفضت فاطمة نظرها وتأملت فنجان قهوتها ثم قالت:

- إنك تعرفين أن هذا الأمر لن يحصل، ليس في الوقت الراهن على أي حال. كما أنني لست أفضل من هدى وهي تكدّ وتعمل.

أصدرت الرضيعة سلمى أثناء نومها صوتًا لا يفهمه أحد سوى أمها، فوضعت ماما صبحية يدها فوق بطن الصغيرة، ومسدته ثم قالت:

- هدى لم يكن لديها أي اهتمام بالمدرسة، ولهذا لم يكن أمامنا أي خيار آخر لها. أما نادية فلا حيلة لي، بلا مساعدة عمر،على حملها على فتح كتاب. إنني قلقة من طريقة اعتمادها عليه، فهي لم تعد صغيرة، ستبلغ الحادية عشرة قريبًا.

وضعت ماما صبحية يدها الأخرى فوق وجنة فاطمة وتابعت:

- أما أنتِ يا **حبيبتي** فذكية، وبمقدورك أن تصنعي مستقبلًا مشرقًا لنفسك.

تملّت فاطمة في عيون ماما صبحية، فشعرت بدفئها ينسكب، ويفيض في نفسها. بلا ذرة من تردد، ضمتهما هذه المرأة تحت جناحها بعد وفاة أمهما خلال فرارهم من قريتهم، ووفّرت لهما بيتًا وعاملتهما مثل أولادها، بل أحيانًا أفضل بقليل. كانت مدينة لها بالكثير، أما عمر فمدين لها بحياته. ولهذا لا يمكنها أن ترهق هذه العائلة بدراستها، كما أنه لا بد لها من العثور على طريقة كي تتكفل بتغطية نفقات تعليم عمر. تنهدت قائلة:

- سيتخرج عمر من المدرسة بعد سنوات قليلة ولا بد لي من التفكير في مستقبله.

ارتشفت فاطمة ما بقي في فنجانها وتابعت:

- إن بدأت بالعمل منذ الآن، فسأتمكن من ادخار ما يكفي لتسجيله في الجامعة. العم مصطفى لديه ما يكفي من مسؤوليات، فشريف سيتخرج أيضًا في الوقت نفسه مع عمر.

صرخت الرضيعة مطالبة بصرف انتباههما لها، حملتها ماما صبحية وأسندتها إلى كتفها ثم ربتت على ظهرها، لكنها واصلت البكاء. نهضت فاطمة قائلة:

- سأحضّر زجاجة الحليب.

هرعت إلى المطبخ لتريح ماما صبحية من صراخ طفلتها التي تعجز عن إرضاعها. فمنذ ولادة شريف فقدت ماما صبحية القدرة على الرضاعة إذ فتكت بها الحمى في ذلك الوقت طيلة أسابيع فمنعتها الداية من إرضاعه. ثم تكرر الأمر معها بعد ولادة نادية وفرح التي تبلغ سنة من العمر، فاضطرت العائلة إلى شراء حليب البودرة المكلف لكل أطفالها بما فيهم عمر. وهذا سبب إضافي يحمل فاطمة على العمل ومساعدة العائلة ماليًا. رجعت فاطمة وناولت ماما صبحية زجاجة الحليب الدافئ، فحلّ صوت المصّ سريعًا محلّ صراخ سلمى.

ابتسمت ماما صبحية وهي تنظر إلى طفلتها ثم قالت:

- أرأيتِ كيف تساعدين؟

تابعت الحديث وقد مالت برأسها إلى جنب وضيّقت عينيها:

- أليس ابن أم وليد أحد الأساتذة في مدرسة شريف وعمر؟

- وليد؟ أعتقد أنه أستاذ مادة التاريخ، لماذا؟

- وليد وأمه أناس طيبون، لعلّ هذه الفكرة ليست سيئة أبدًا. دعينا نناقشها مع مصطفى بعد عودته إلى البيت.

غطّت فاطمة ابتسامتها بكفّها وقالت:

- اليوم هو أول خميس في الشهر، لن يأتي العم مصطفى إلى البيت إلا في وقت متأخر.

تذكر فاطمة ومنذ بدأت تعي بأن العم مصطفى لا يروّح عن نفسه إلا بقضاء أمسية وحيدة في الشهر مع أصدقائه في المقهى، يسهرون معًا منصتين عبر موجات الأثير لصوت أسطورة الغناء أم كلثوم. بل كان الناس جميعًا يرتبون شؤون حياتهم حول أيام الخميس الأولى من كل شهر كي لا تفوتهم سهرة الطرب تلك مع كوكب الشرق.

ناولت ماما صبحية الرضيعة لفاطمة وهرولت هاتفة:

- أكاد لا أصدق أني نسيت تشغيل المذياع، الحفل على وشك البدء.

توجهت صوب غرفة الجلوس وتابعت حديثها:

- سأتكلم مع مصطفى بشأن عملك في الغد، جهزي صحنًا من اللوز كي يتلذذ بتناوله في الصباح.

أدارت ماما صبحية المذياع وغمزت لفاطمة بعينها:

- أكل اللوز يعيده إلى فلسطين ويجعله في مزاج رائق.

تم حفظ لقطة الشاشة في: Pictures/
Screenshot

# 4

بخطى متثاقلة، عبر مصطفى الباب الأمامي واتجه من فوره إلى الحمام حيث خلع زيه الأزرق المتسخ ورماه في سلة الغسيل. بعد يوم عمل في معمل الصوف، كان مصطفى يصل البيت وقد علق وبر الصوف وأليافه الرقيقة في ثيابه وشعره وبدنه، وكان يحرص بشدة على منعها من التطاير في الجو الذي تتنفسه عائلته، ولهذا كان يتجه مباشرة إلى الحمام حال وصوله إلى البيت.

بينما كان يفرك جسمه تحت الماء الساخن داهمته نوبة سعال حادة. أسند كتفه النحيل إلى الحائط وراح يراقب تلولب الدم في مصرف المياه ثم وصله صوت صبحية مكتومًا من خلف الباب:

- هل أوشكت على الانتهاء؟ العشاء جاهز.

أغلق مصطفى عينيه الحمراوين وقال مؤملًا في أن يعكس صوته شيئًا من القوة:

- أمهليني دقيقتين.

شخّص طبيب قام بزيارته أول الشهر حالته المرضية بتجمّع حبيبات صغيرة في الرئة احتلت المواضع المخصصة لدخول الأكسجين. لا مكان لرجل من أمثاله في أجواء مصنع الصوف الخانقة، فالفلاح يجب أن يشتغل في الحقول المفتوحة، وأن يتعرّق تحت الشمس، ويستنشق الهواء المنعش. لكن مصطفى غضّ الطرف عن الأخذ بنصائح الطبيب العقيمة تلك، فهو وسط ما يعانيه سواد اللاجئين من بطالة وضيق، يتمتع بعمل وسقف فوق رؤوس عائلته، وما يكاد يكفي لإطعامها. بمقدوره إذًا أن يتحمل بضع نوبات من السعال بين الفينة والأخرى. هذا علاوة على أن هذه المدينة المزدحمة لا تتوفر فيها بساتين مشمش وبرقوق للعمل بها وفلاحتها.

جلس إلى صدر الطاولة وقد ارتدى ثيابه، وشعر بشيء من التحسن. كان أولاده يتجاذبون أطراف الحديث حول الطاولة عدا عمر. تنهّد مصطفى وسأل فاطمة التي تهزّ الرضيعة سلمى في حجرها:

- أين هو؟

- ذهب إلى المخبز القريب، وسيصل بين دقيقة وأخرى.

مرّرت صبحية صحنًا كبيرًا من اللبن الرائب وأوضحت:

- نفد الخبز من البيت فتطوّع عمر. لنأكل الآن فلا بد وأنه يصعد الدرج.

انهمك الجميع في سكب الطعام فتعالت من خلف الباب ثلاث ضربات متتالية هي طرقات عمر المميزة. تمتم مصطفى بصوت منخفض:

- لم لا يكتفي هذا الصبي بالدخول؟ ما حاجته إلى طلب الإذن في كل مرة؟

ربّتت صبحية بيدها على ركبته من تحت الطاولة وقالت همسًا:

- عمر يحاول أن يكون مؤدّبًا ليس إلا.

ردّ مصطفى على همسها بالهمس:

- هذا بيته، كم مرة طلبت منك إيضاح هذا الأمر له؟

خفضت صبحية صوتها أكثر حرصًا على عدم سماع الآخرين:

- إنه يوشك على بلوغ الرابعة عشرة والدخول في سن المراهقة. إن كان هذا يريحه، فما المشكلة؟

سكب مصطفى مغرفة من اللبن في صحنه ورد عليها:

- شريف لا يطرق الباب قبل الدخول، أليس كذلك؟ يجب أن يشعر عمر بالقدر نفسه من الارتياح.

ربّتت صبحية على ركبته ثانية:

- صحيح، ولكن علينا أن نستوعب طبيعة الصبيّ يا مصطفى. علّقت بطانية ثقيلة وسط غرفتهم: شريف وعمر في ناحية، والبنات في ناحية، هكذا أفضل.

انزلقت نادية ابنة الحادية عشرة من كرسيها واتجهت إلى الباب ثم فتحته. ما إن أطل عمر حتى رفعت يديها، وتعلّقت برقبته كما تفعل دائمًا عند استقباله. صار سهلًا على عمر منذ أن ازداد طولًا في السنتين الأخيرتين أن يطوق خصرها بذراع واحدة، ويحملها إلى كرسيها وسط قهقهتها وصخبها. وضع ما يحمله في يده الأخرى من خبز فوق الطاولة قائلًا:

- نفد الخبز من المخبز القريب، فذهبت إلى الآخر في الحي المجاور وتمكنت من شراء آخر كمية لديهم.

اتجه عمر إلى كرسيه المجاور لنادية وهبط فوقه معتذرًا:

- آسف على التأخير يا عم مصطفى.

كان مصطفى متعبًا ولم يستطع مغالبة الشعور بالضيق، هل هو متوتر من تأخّر عمر أم من أمر آخر؟ لم يتمكن من تحديد السبب، فهزّ رأسه لعمر وبدأ بتناول حصته السخيّة من «المقلوبة». كان الرز والقرنبيط حاضرين في صحنه، ولكن أين اللحم؟ آه، مرة أخرى! إنها نهاية الشهر. كانت صبحية تمطّ دخله

الشهري إلى أقصى حدّ ممكن، وكان هذا يعني غياب اللحم والدجاج عن المائدة في الأيام الأخيرة من كل شهر.

تتبع مصطفى بطرف عينه ابنته نادية، لكزت عمر في كتفه لكنه تجاهلها ولم يرفع عينيه، مالت نحوه وهمست في أذنه، فردّ بتقويس حاجبيه. بدا الاثنان وكأنهما في عالم آخر لا يشاركهما فيه أحد. إن علاقتهما ومنذ الصغر متينة بشكل استثنائي.

خلال انهماكها في إطعام الصغيرة فرح، انفجرت هدى فجأة وزجرت نادية:

- كفّي عن هذا العبث يا نادية، دعيه وشأنه.

لم تكن لهدى من طريقة في الحديث مع الآخرين سوى إلقاء الأوامر.

ردّت نادية بصوت مجروح:

- أريد أن أعرف إن أحضر لي كما وعدني العدد الأخير من سلسلة «المغامرين الخمسة»، لقد أنهيت واجباتي المدرسيّة.

تابعت هدى توبيخ أختها بنفس لهجتها الآمرة:

- لقد كبرتِ وآن لك ألاّ تتصرفي كالأطفال، دعي عمر يأكل بسلام ولا تضايقيه.

رفع عمر عينيه:

- إنها لا تضايقني.

ثم أردف مستديرًا نحو نادية:

- سأراجع واجباتك المدرسية بعد العشاء، إن كنتِ قد أدّيتها بشكل جيد، فربما يكون في جيب معطفي شيء لك.

أشرق وجه نادية بابتسامة عريضة:

- لغز «العقد المفقود»؟

أومأ عمر.

حدة صوت هدى كانت مثل سكين كفيل بحزّ ما في يد عمر من خبز:

- بالرشوة؟ أهذه هي الطريقة التي تحملها بها على الدراسة؟ بحشو رأسها بتفاهات تلك الكتب السخيفة المترجمة؟

ردّ لها عمر الصاع صاعين:

- إنها تحاول على الأقل.

سقطت الملعقة من يد هدى:

- ماذا تقصد؟

نظر عمر في عينيها:

- إن كنت أنت قد تركت المدرسة فهذا لا يعني أن على نادية أن تفعل ذلك

هي الأخرى.

لوت هدى شفتيها إلى جنب متصنعة ابتسامة متكلفة:

- وأنت أخذت على عاتقك مهمة تدريسها؟ ترى من أين أتتك كل هذه النباهة؟

أشارت بيدها صوب فاطمة:

- أختك بالكاد حصلت على علامات النجاح.

احمرّ وجه عمر وأطلق عليها النار:

- إن الكلمة المهمة هنا هي **النجاح**. وكما تعلمين، إنها عكس الرسوب، رسوبك!

صرخت هدى وتطاير البصاق من فمها:

- اخرس!

شهقت فاطمة بحدة لجذب انتباه أخيها إليها، فدفع عمر صحنه إلى الأمام مغمغمًا:

- ها قد عدنا من جديد.

تابعت هدى هجومها اللفظيّ:

- كيف تجرؤ على الحديث معي بهذا الأسلوب؟ إنك تنسى حدودك يا عمر، أنا الكبيرة هنا ولن أسمح لك...

صفع مصطفى وجه الطاولة بيده وصرخ: «كفى!»

تراشق الماء من الكؤوس وعضّت هدى على شفتها السفلى كي تمنع نفسها من الكلام.

- لننهِ طعامنا بسلام! عمر يستحق الشكر على مساعدته لنادية في دروسها. أتوقع منك يا هدى تصرفًا يليق بعمرك، هيا اعتذري من عمر، ودعونا ننهِ هذا الكلام الفارغ في الحال.

تدخلت فاطمة بسرعة:

- لا حاجة لذلك يا عم مصطفى، عمر يعرف أن هدى لم تقصد أي سوء. لا داعي للاعتذار أو أي شيء من هذا القبيل.

حوّلت بصرها تجاه عمر وتابعت:

- كما أنني متأكدة أنه لم يقصد مضايقة هدى، أليس كذلك يا عمر؟

أومأ عمر برأسه مرة واحدة.

عمدت فاطمة إلى سكب مغرفتين من الأرز في صحن هدى وقالت:

- تفضلي، إنك لم تأكلي بسبب فرح. لقد قضيت النهار بطوله خارج البيت في العمل ولا بد أنك مرهقة، ماذا أنجبت من قمتِ بتوليدها اليوم، ولدًا أم بنتًا؟

أكبَرَ مصطفى فاطمة على براعتها في احتواء شقيقها، وتبديد المواجهة بينه وبين هدى صاحبة الطبع الحاد. كان تسلّط هدى يرهب أولاده جميعًا ولم يكن أحد يجرؤ على مواجهتها سوى عمر. وهي لم تتقصد عمر على وجه التحديد ولكنها، كما يعتقد مصطفى، تعتبره دخيلًا على عائلتها لأنها كانت في سن يمكنها من تذكّر ظروف ميلاده. وبينما كانت هدى على وئام مع فاطمة لأن شخصيتها السلسة لم تشكل تهديدًا لشخصية هدى السلطوية، كان عمر يقف لها بالمرصاد كي يحمي الآخرين من حدة لسانها. ولهذا كان أبناء مصطفى يحتمون بعمر خوفًا من هدى بما فيهم شريف. لم يكن مصطفى يحب أن يعترف بهذا الأمر صراحة، ولكنه يعلم جيدًا أن ابنه الذي من صلبه ليس لديه جرأة أو شجاعة عمر.

حوّل مصطفى بصره نحو شريف وراقبه بخفية، كان يثبت كوعيه فوق الطاولة ويسند رأسه المطاطئ بين يديه وعيناه تروحان وتجيئان بين هدى وعمر والفزع يعلو وجهه. لو أن الله وهب شريف شخصية هدى، لربما هان على مصطفى ما يفتك برئتيه من مرض، لوجد شيئًا من العزاء في معرفة أن ابنه قادر على التكفل بأمور عائلته لحظة مفارقته الدنيا. هزّ مصطفى رأسه، ما الذي دهاه؟ من السابق جدًا لأوانه التفكير في شؤون وفاته المقيتة، إنه ما زال قادرًا على العمل وتوفير لقمة العيش لأولاده.

ازدرد جرعة طويلة من الماء ممعنًا النظر في وجوه أولاده، استقرّ الماء في جوفه مثل قطعة من الإسمنت. عليه التطلع إلى عمر ذي الإرادة القوية، لا إلى شريف، لتحمل مسؤولية رعاية البنات، ومهما كان تقبل ذلك عسيرًا على هدى.

استأنف محاولة بلع وجبته التي تفتقر إلى مكونها الأساسي. مرّت أعصاب الجميع في الأيام القليلة الماضية بامتحان عسير، فانهيار الوحدة بين سوريا ومصر كان بمثابة لطمة مريعة لكل كبير وصغير. ومع أن الجمهورية العربية المتحدة لم تبلغ عامها الثالث إلا بشقّ الأنفس، إلا أن تلك المدة كانت كافية لإذاقة فتى طموح كعمر طعم الخيبة ومرارة الخسران.

كان ما لدى عمر من أسباب يكفي لنفاد صبره تجاه هدى، فهي منذ أن تركت المدرسة وهي لا تستنكف عن الحطّ من شأن كل من لم يحذُ حذوها، كما أنها تسارع إلى لوم عمر على كل ما يتورط فيه شريف من شقاوة وشغب. لكن كل الأسباب تعود إلى جذر واحد وهو رفض هدى القاطع لوجود عمر. لقد بذلت كل ما في وسعها كي يعرف عمر سبب فرحتها باحتمال تحرير فلسطين، حسب وعود الزعيم الكاريزميّ في خطاباته الحماسيّة. كان ما يعنيه ذلك لها هو عودة عمر إلى الارتباط بجذوره من جديد،والخروج من حياتهم. لم تقل هذا

علانية، لكن الفتى لمّاح وحسّاس. كان يعي تمامًا ما تشعر به دون لفّ أو دوران. لكن هذا الأمر لم يعد مهما الآن، فقد ذهبت وعود عبدالناصر أدراج الرياح، واختطف انهيار الوحدة أحلام الجميع في العودة إلى الوطن.

مسح مصطفى بقايا الطعام في صحنه بلقمة خبز. رغم كل ما بذله هو وصبحية، إلا أنهما لم يتمكنا من تليين قلب ابنتهما البكر نحو هذا اليتيم. لكنه كان عاجزًا عن لومها، فهو، وإن لم يكن طبيبًا نفسيًا، يدرك تماما أن ما شهدته هدى من بشاعات خلال فرارهم من قريتهم أفسد روحها اليافعة بالتأكيد.

كانت النساء مع الأطفال يتكدسون في العربات والسيارات، كبار السن يتأرجحون فوق ظهور الخيل والحمير وعوائل بأكملها تهرول سيرًا على الأقدام. في ذلك الوقت، تواترت أخبار مذابح دير ياسين والقرى المجاورة مثل صخرة عظيمة متدحرجة من فوق جبل، وما نقلته حفنة من الناجين من تفاصيل مروعة زادتها زخمًا. كان لا حيلة له في أن يجنب هدى مغبة رؤية أهوال تلك الجريمة البشعة، فقد اضطر إلى المرور بقرية عين كارم المجاورة بحثًا عن شقيقه وأسرته. كان حينها يدعو الله أن يكونوا قد هربوا إلى برّ النجاة.

تجمّدت يد مصطفى في منتصف الطريق إلى فمه. لم يكن في وسعه أن يتوقف ولا حتى لأجل دفن الأطفال، كانت الجثث مثل القمامة ملقاة في الطرقات والكلاب تنهشها. أعاد لقمة الخبز إلى صحنه، واسترق نظرة خاطفة صوب هدى. بدا له أن رائحة الموت المقززة قد علقت في أنفها منذ ذلك اليوم ودمغت وجهها بملامح القرف. تُرى، أي كوابيس أرّقت جفنيها؟ كانت حينها في الثامنة من عمرها ولعلها ودون وعي منها لامت عمر على تأخرهم في الفرار وتعرضهم لتلك الأهوال. من يدري بما جال في خاطرها؟ ليتها تخفف من حدة تصرفاتها، فقد يتيح لها ذلك اجتذاب من يساعدها على مداواة جراحاتها وتشكيل عائلتها الخاصة. ولعل ذلك يجلب لها قدرًا من السعادة، فهي توشك على بلوغ الواحدة والعشرين ومرور الوقت في غير صالحها.

انقطع حبل أفكار مصطفى عند نهوض عمر مستأذنًا:

- الحمد لله، أتأذنون لي؟

ردّت عليه صبحية:

- تفضل يا **حبيبي**.

ترك عمر الطاولة وحمل صحنه إلى المطبخ، فلحقت به نادية به كظله قائلة:

- ممكن أن تنظر في واجباتي المدرسية الآن؟

# 5

بعد أربع سنوات، 1965

في وقت متأخر من الليل، لجأ عمر وقد بلغ السابعة عشرة إلى السطح ووقف متأملًا المدينة في الأسفل. زاد تردده على السطح للاختلاء بنفسه في الآونة الأخيرة حتى أن فاطمة لاحظت ذلك ووصفته بوقت الرقود على أفكاره كي تفقس. كان عمر يلجأ إلى خلوته القصيرة تلك هربًا من الشقة الصغيرة، فالعيش في غرفة واحدة مع الجميع يكاد يفقده صوابه. لم يعد كما كان في الماضي قادرًا على إخماد ضجيجهم بغمس نفسه بين دفتي كتاب فقد أصبح الآن أكثر ضجرًا وتململًا. كان كلما ضاق صدره من ضوضاء الشقة المزدحمة يعمد إلى الخروج من البيت، ولكنه يضطر إلى التسلل خلسة خوفًا من لحاق شريف به.

ساعدته فاطمة على اختلاق الأعذار أمام العائلة، كانت تطلب منه أن يأتي إلى دار أم وليد ليرافقها في طريقها إلى البيت، ثم تخبر الجميع بأنها نسيت شيئًا، وتوجب عليه الرجوع لجلبه. منحته أخته بذكاء أسبابًا مقنعة للغياب عن البيت، وقضاء وقت بمفرده بعيدًا عن الجميع.

حدّق عمر في أضواء المدينة المتلألئة في الأفق، وملأ صدره بالهواء المنعش، ثم جلس فوق سورالسطح. دلّى ساقيه وأرجح رجليه الطويلتين إلى الأمام والخلف ثم نظر في ساعته، قدّر بأن لديه عشر دقائق على الأقل في هذا النعيم قبل أن يتوجب عليه الرجوع إلى البيت.

البيت، الوطن، ردّد في سرّه. إنه لم يعرف قط أي مكان آخر في حياته، لكن وصف هذا بالبيت، أو بالوطن لم يكن كفيلًا ببثّ الدفء في قلبه. لا شك أنه يعاني من خلل نفسي ما، فحتى وإن كان قد ولد لأبوين مختلفين إلا أن هذه العائلة التي يعيش في كنفها تظل العائلة التي ليس لديه من عائلة سواها. لكنه، ومع ذلك، يشعر بأن ثمة ما هو مفقود، العديد من الأشياء مفقودة. أولها، خطة لمستقبله. لقد حان أوان تفكيره فيما سيفعله بعد نيل شهادة الثانوية العامة.

وضع في ذهنه قائمة عنونها بـ «أولويات»: أولًا، العثور على عمل لتخفيف العبء الثقيل عن كاهل العم المصطفى، فحجم الرجل بات يتضاءل يومًا بعد يوم.

telegram @soramnqraa

يمكن لفاطمة أن تساعده على فتح هذا الموضوع مع الأستاذ وليد من خلال أمه، فمعلم التاريخ يعرفه وقد يزكيه لدى معارفه في إحدى الصحف المحلية. لعلهم يعرضون عليه عملًا في قسم الطباعة أو التوزيع، كلاهما سيان بالنسبة له وهما على كل حال أفضل من العمل في مصنع الصوف. أو يمكنه أن يطلب من مروان برادي أن يشغّله في محله لبيع الألبسة، صديقه الحميم لن يتردد ولكن طلب معروف كهذا منه ينبغي أن يكون خياره الأخير، فعلائق العمل تفسد الصداقات الوطيدة كما لا يخفى على الجميع.

قفزت قطة فوق السور فجفل عمر لوهلة، ثم مرّر يده فوق ظهرها ودفعها إلى جنبه. استسلمت لرغبته، وتمغّطت بحذاء فخذه ثم أسندت رأسها فوق ركبته. راح يداعب أذنيها الدافئتين بأصابعه.

الجامعة، لا بدّ لها من الانتظار. دفع تلك الكلمة إلى أسفل قائمته الذهنية بمحاذاة أحلام العمل مع فريق الرئيس ناصر التحليلي. لا مكان للطموحات غير الواقعية في عالمه فتأمين مستقبل فاطمة له الأسبقية على أي أمر آخر، إنها ستبلغ الثالثة والعشرين في هذا العام ولا يمكن أن تظل خياطة إلى الأبد. إنه لن يتركها لينتهي بها الأمر مثل هدى عالقة في مصيدة الزمن بلا أي إمكانيات لعيش أفضل، لن يحصل هذا إن تمكن من مساعدتها.

«يجب أن تتنحى هدى عن طريق فاطمة،» كلّم عمر القطة. «إنها تحجبها، أتدرين؟ تُبقي على فاطمة خطوة إلى الوراء منها، وهدى لن تذهب إلى أيّ مكان.»

ماءت القطة، ومغّطت رجليها، ثم ثبّتت مخالبها الأمامية في قماش بنطاله.

«هل تظنين أن بمقدوري حمل الأستاذ وليد على الاهتمام بهدى؟» تساءل عمر بصوت مرتفع. «إنه أعزب، وهما متقاربان في العمر،» هزّ رأسه: «كلا، إنني أحب هذا الرجل كثيرًا ولا أستطيع أن أبتليه بهدى.» رفع القطة الكسولة ووضعها في حجره: «دعينا نتكلم في موضوع آخر، موافقة؟ صديقة نادية المثيرة، سميرة، مثلًا.» تلفّت حوله متأكدًا من أنه بمفرده ثم قرّب رأس كرة الفرو من وجهه: «ماذا؟ أعرف أنها في الخامسة عشرة، لكن هل رأيتِ جسدها؟ وتلك الابتسامة! أسنانها صفّ من اللؤلؤ يا عزيزتي.»

مدّت القطة لسانها، ولعقت وجهها بضربة دائرية واحدة. تابع عمر حديثه: «إذا مررتِ بنافذة غرفة الجلوس عصر الغد، لنقل قرابة الثالثة، فسترينها. لقد وعدت نادية بأن أساعدها هي وصديقتها على الاستعداد لامتحان اللغة الإنجليزية.»

علا صوت نادية متحفزًا من خلفه:

- ها أنت ذا!

كاد عمر أن يسقط القطة من فوق السور، أشاح وجهه المحمرّ بعيدًا عن نادية وقال متلعثمًا:

- لم أنتبه إلى صعودك ووصولك إلى هنا.

اعتلت السور وجلست بقربه:

- مع من تتحدث؟

وضع القطة في حجرها:

- إنها تحسن الإصغاء.

استنشقت نادية الهواء بفرح شديد وراحت تغمغم للقطة بصوت رفيع. كانت الابتسامة لا تفارق وجه نادية ومزاجها مرح على الدوام، لم يتمالك عمر نفسه من مقارنتها بطبيعة هدى الكئيبة. تعجب من الأصوات التي تصدرها نادية:

- ماذا تفعلين؟

- أتحدث بلسان القطط.

ازدرد ريقه قلقًا من سماعها ما قاله بشأن صديقتها:

- آمل أن نبرة صوتي لم تكن على هذه الشاكلة.

تركت نادية القطة تقفز إلى حجره ثانية ثم هزّت كتفيها:

- لم ألتقط كلّ ما قلته، أمر ما بخصوص سميرة وامتحان اللغة الإنجليزية؟

رطب حنجرته بكحة خفيفة:

- أجل، كنت أفكر في تدريسكما غدًا. سميرة بحاجة حقًا إلى اجتياز هذا الامتحان، صحيح؟

استدارت نادية جانبًا لتصبح في مواجهته ثم غمزته بعينها:

- أعرف أنك معجب بها.

توتر عندما رأى جزءًا من جسم نادية معلقًا في الهواء ولم يعد قلقًا من فضحها سبب حرجه. قبض على ذراعها ودفع القطة جانبًا، فقالت نادية بصوت مثل هديل حمامة بيضاء:

- كن حذرًا يا عمر، سميرة لديها ثلاثة أشقاء.

أرجح رجليه وبحركة واحدة هبط فوق أرضية السطح ساحبًا معه نادية ثم قال:

- لقد أرسلوكِ في طلبي، حان إذا وقت النزول إلى البيت.

مشيا جنبًا إلى جنب نحو مدخل الدرج وحاول طمأنتها:

- لا تقلقي، لن أفعل أيّ شيء قد يثير أشقاء سميرة ضدي.

استأنف كلامه بعد أن شدّ عضلات ذراعيه:

- هذا فضلًا عن قدرتي على مجابهتهم جميعًا وفي عراك واحد.

وضعت نادية يدها فوق صدره وقالت بجزع:

- إياك أن تجنّ إنك لست بطلًا جبارًا!

اعتصر شيء ما احشاء عمر حين أبصر في عينيّ نادية العسليتين محبة وقلقًا أصيلين تجاهه. بيت، وطن، هذا **هو** الوطن. حاول منع صوته من فضح ما بعثه ذلك الإدراك الغريب في نفسه من شعور:

- أظن أن الوقت قد حان لرفع مستواك في القراءة بمطالعة أمّهات الكتب، لا مزيد من قصص المغامرات بعد اليوم.

متفحصًا نفسه في المرآة للمرة الأخيرة، دسّ عمر أطراف قميصه المقلّم بالأبيض والأزرق في بنطاله، ومرّر يده فوق شعره ثم خرج من الحمام. توجه نحو طاولة الطعام التي كانت تستخدم أيضًا لأغراض الدراسة.

رفعت نادية رأسها من كتاب اللغة الإنجليزية قائلة:

- أخيرًا، ظننتك لن تخرج من الحمام أبدًا!

رمته بابتسامة عريضة:

- ستصل سميرة بين الفينة والأخرى.

سحب عمر الكرسي المركون إلى صدر الطاولة. سيُجلِس سميرة مقابل نادية فوق الكرسيّ إلى يمينه، وبهذه الطريقة، سيكون قريبًا منها إلى حد يتيح له لمس ذراعها عفويًا أو، وإن لعبها بذكاء، صدم رجلها بركبته خلال الدرس، سيؤمّن مفرش الطاولة المتواضع غطاء كافيًا. أراح ظهره وطوى يديه فوق صدره، ثم ألقى نظرة خاطفة إلى ساعته.

في زاوية من الغرفة، كانت فاطمة تعكف على عملها والإبرة والخيط في يدها يعلوان ويهبطان بسرعة مدهشة، وقرب قدميها جلست الصغيرتان تلهوان بالدمى بعد أن طلب منهما اللعب بهدوء لأن أمهما نائمة.

أغمض عمر عينيه متمنيًا لو كان لديهم غرفة إضافية للجلوس بمعزل عن الجميع. كانت ماما صبحية قد منعتهم من استخدام غرفة نومهم رغم ما توفره من أجواء مثالية للدراسة بسدّ الباب والتمتع بقسط من الهدوء. لم توافق ماما صبحية وردت بعبوس: «ليس من اللائق أن يكون عمر بمفرده في غرفة مع سميرة.» وعندما أشار عمر إلى أنه لن يكون بمفرده مع سميرة ردت عليه: «لا اعتبار لوجود نادية.»

أغلق شريف باب غرفة نومهم، ثم تقدم للجلوس فوق الكرسي الذي خصصه عمر في ذهنه لسميرة. رفع عمر حاجبًا من حاجبيه مستنكرًا:

- ما الذي تفعله؟

- أنضم إلى الدرس.

حاول عمر منع أمارات الضيق من التجلي فوق وجهه:

- ليس عندك امتحان لغة إنجليزية، بل أنت لا تدرس مادة اللغة الإنجليزية أصلًا في هذه السنة.

ألقى شريف نظرة خاطفة نحو فاطمة وردّ قائلًا:

- وهذا بالضبط ما يستدعي إنعاش ذاكرتي.

قرع أصابعه فوق الطاولة ثم أردف:

- كما سيساعدني أيضًا في مادة اللغة الفرنسية.

سحب عمر نفسًا طويلًا، هكذا سيلعبها شريف إذًا؟ عيناه هو الآخر على سميرة؟ زفر وفرد يديه مشيرًا إلى كرسي على يسار نادية:

- حسنًا، شريطة أن تجلس هناك.

- لماذا؟

- لأنه وبهذه الطريقة ستكونان إلى جانب واحد من الطاولة،ولن أضطر إلى التلفت يمينًا ويسارًا لجذب انتباهكما. والآن تحرّك.

مدركًا أن نبرته كانت حادة، أضاف:

- أرجوك.

ما إن علا جرس الباب حتى كان شريف في طريقه إلى الباب:

- سأفتح الباب.

كان عمر في منتصف نهوضه لكنه أرغم نفسه على الجلوس ثانية.

انسابت سميرة كغيمة رقيقة في جوّ الغرفة. حقًا، أقدام الملائكة لا تمسّ الأرض! كانت لفائف شعرها الكستنائية تنحدر فوق ظهرها كشلال وتتقافز حول وجهها الجميل، أما فستانها الوردي الضيق فيحتضن جسدها المتناسق، ولا يترك لمخيلة الناظر سوى القليل. صوّبت عينيها نحو فاطمة، ورنّ صوتها العذب:

- مساء الخير.

شدّ عمر قامته الطويلة ورقص قلبه طربًا على أنغام قيثارة صوتها العذب، رفعت فاطمة رأسها، ورحبت بسميرة ثم استأنفت عملها، حيّت نادية صديقتها بعناق سريع، ثم سمع الجميع شريف وهو يدعو أحدهم للدخول:

- تفضل، لو سمحت.

دخل شاب في مطلع العشرينات وبصره في الأرض.

قدّمته سميرة إلى الجميع:

- أحمد، شقيقي الأصغر.

تصافح الفتيان فاقتربت فاطمة للترحيب بأحمد وابتسامة تعلو وجهها:

- يسعدنا أن تأتي سميرة للدراسة مع نادية وإخوتها. أهلا بك، أنا فاطمة.

لم يرفع أحمد بصره من الأرض، اكتفى بوضع يده اليمنى فوق صدره، إشارة إلى أنه لن يصافحها إن مدت يدها، فلم تفعل. ضيّق عمر عينيه انزعاجًا من تصرف أحمد، هو إذًا من هؤلاء المتزمتين دينيًا الذين يرفضون مصافحة النساء. لكن سميرة لا تغطي جسمها ولا حتى شعرها، ألا يرغم أمثاله أخواتهم وبناتهم على ارتداء الحجاب؟ لقد خاض مع أحد هؤلاء نقاشين في المدرسة، نقاشين عنيفين بقبضة اليد لا باللسان.

تنحنح أحمد قائلًا:

- أعتذر عن التطفل بهذا الشكل، لكني أردت التأكد من وصول أختي إلى هنا في الموعد المحدد.

ردّت فاطمة بنبرة مهذبة:

- بالطبع.

استدار أحمد نحو عمر، ونظر مباشرة في عينيه:

- كما أردت أيضًا أن أقابلك.

أومأ عمر برأسه منزعجًا من تحديق الرجل به، إذ بدا من وقفة أحمد وكأنه يودّ قول: «**وأردت أيضًا أن تقابل من ستجده بالمرصاد إن أسأت التصرف.**»

لم يخصّ أحمد شريف ولو بنظرة واحدة، هل يظن أن عمر هو مصدر الخطر المحتمل تجاه أخته؟ أشعره ذلك التحذير المبطن بالإطراء وإن على نحو ملتوٍ. لو كان هو مع نادية في موقف مشابه، هل سيتصرف الطريقة نفسها؟ بالطبع. الفارق الوحيد هو أنه سيبقى معها مراقبًا كل حركة تصدر عن الفتى من فوق الطاولة **وأيضًا** من تحتها. أخلى حنجرته بكحة خفيفة:

- سننتهي في تمام السابعة، هل تحب أن نصحب أختك إلى البيت؟ أم ننتظرك؟

هذا أفضل ما بوسعه القيام به لطمأنة الرجل بأن ما من سوء سيصيب أخته الملائكية. لم يلتفت إليه أحمد بل استدار صوب فاطمة دون أن يرفع بصره من الأرض:

- إن لم يكن هناك من إزعاج، فإنني أودّ العودة في السابعة. أهذا ممكن؟

- ليس من إزعاج على الإطلاق.

استأذن أحمد وانصرف فأشارت نادية لسميرة بالجلوس إلى الطاولة:

- هل يعاني أخوكِ من شيء في عينيه؟ إنه لم يرفع بصره من الأرض لينظر إليّ أو إلى فاطمة.

- أحمد هو الأكثر تدينًا بين أشقائي ، وقد تبدو تصرفاته مزعجة أحيانًا، ولكنه لا يقصد سوى الاحترام.

جلست سميرة على الكرسي الذي سحبه لها عمر وتابعت:

- خصوصًا تجاه فاطمة.

ثم حدّقت في عمر قبل أن يجلس قائلة:

- أحمد لطيف ستلمس ذلك بنفسك بعد قضاء بعض الوقت معه.

لم يكن في نية عمر قضاء أي وقت مع شقيق سميرة، جذب كتاب نادية وقلّب صفحاته وصولًا إلى الجزء المطلوب، يستحسن أن يركز على ضرب الأمثلة وشرح القواعد.

ما أن بدأت الحصة حتى تغيّرت تصرفات شريف، فمن شخص هادئ وباهت الحضور في العادة تحوّل إلى متحدث مفوه لا يكفّ عن إلقاء النكات، المضحك منها بالفعل. وكلما رمته سميرة بابتسامة، ازداد ثقة بنفسه. حتى نادية لاحظت ما طرأ على شقيقها فغمزت عمر لافتة نظره إلى ذلك.

بلغت الجرأة بشريف حدّ ترك كرسيه المقابل لسميرة ودسّ نفسه في آخر إلى جنبها، ثم أشّر بإصبعه إلى جملة في كتابها ليواري على نواياه الخفية، لكن انبهاره بتلك الفتاة كان واضحًا للجميع. تصرفات شريف تلك قابلتها سميرة بالتشجيع، والاهتمام وهو ما يحدث لأول مرة مع شريف.

لماذا يصرّ شريف على تقليد عمر في كل كبيرة وصغيرة؟ لم لا يعثر لنفسه على فتاة تخصّه؟ إن بإمكان عمر أن يصرّ على عودة شريف إلى كرسيه، ولكن هذا سيعكّر صفو الجميع، وسيلفت انتباه فاطمة. أو بمقدوره أن يلجأ إلى تصغير شريف في أعين الحاضرين ويهزّ له ثقته بنفسه، ولكن هذا الفعل قاس وسيزعج نادية. لم لا يمضي إذا في خطته الأصلية ويجسّ نبض سميرة على لمسته «العفويّة»، هل ستصرف انتباهها إليه عوضًا عن شريف؟

بينما كان عمر يزن الأمور في ذهنه ليقدم على الخطوة الأمثل، زحف إحساس أفعوانيّ دافئ فوق ساقه ووصل إلى أعلاها. انتصب في كرسيه كالملدوغ وغطى على مباغتته بكحة مفتعلة ثم انطلقت عيناه كالسهم صوّب سميرة. رآها تدفن رأسها في كتابها إلى جنب رأس شريف، هل حدث ذلك بالخطأ؟ هل لفّت ساقًا على ساق فلمسته دون قصد؟ هل امتدت رجله أبعد من اللازم واقتحمت حيزها فلم تتمكن من تفادي الاصطدام بها؟ هل يتوجب عليه الاعتذار؟ إنها لا تبدو منزعجة من شيء، هل لاحظت ما جرى على الأقل؟ ما الأمر اللعين المهم إلى

تلك الدرجة في ذلك الكتاب؟ يجب أن يلقي نكتة أو يتصنع ما يلفت نظرها إليه ما دامت منبهرة إلى تلك الدرجة بسخافة شريف.

طرحت نادية سؤالًا فردّ عليها بجواب لم يدرِ إن كان صحيحًا، أم لا فدماغه فقد القدرة على التركيز. رفعت سميرة رأسها ورمت خصلات شعرها إلى الوراء بضربة من أناملها الرقيقة قائلة:

- كم الساعة الآن؟

ردّ عليها عمر دون أن يرفع عينيه عن عينيها:

- تجاوزت السادسة.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة فأطلت تلك اللآلئ المدهشة:

- جيد، ما زال لدينا وقت.

ثم لمست ذراع شريف:

- هل يمكنك أن تجلب لي كوبًا من الماء؟

صار شريف في طريقه إلى المطبخ قبل أن تنهي سميرة جملتها. نهضت قليلًا من كرسيها ومدت جسدها فوق الطاولة كي تتناول كتاب نادية:

- دعيني أر كيف كتبت تلك الكلمة.

عاد دبيب الأفعى إلى الزحف ثانية فوق ساق عمر، تسلقها صعودًا وتجاوز ركبته. كحّ عمر ثانية جاذبًا عيني سميرة إلى عينيه ثم رفع لها حاجبيه مستفسرًا.

نقرت فخذه بقدمها مرتين.

دفع عمر كرسيه إلى الوراء وقال مستئذنًا: «عذرًا، اسمحا لي،» ثم ذهب إلى الحمام. لم يكن ذلك خطأ، وبمنتهى الوضوح، إذًا سميرة ليست بملاك، إنها من صنف هؤلاء الفتيات؟ من يتلاعبن بفتى من فوق الطاولة وبآخر من تحتها؟ لا عجب إن كان أخوها يحوّم فوق رأسها مثل الصقر. هزّ رأسه، كم كان أحمق عندما ظنّ أنها ببراءة ونقاء نادية، لقد حذّره مروان ممن هنّ على شاكلة سميرة، لكنه لم يستوعب خطرهنّ حتى هذه اللحظة. كان صديقه الطيب قد واجه أمثالهنّ في محله وحدثه عن أساليبهنّ المبتكرة لجذب انتباهه. رشق عمر وجهه بالماء البارد، يا لشريف المسكين! ليس لديه أدنى فكرة عما هو بانتظاره. هل ينبغي له أن يحذره؟ أيكشف له حقيقة سميرة؟ ليت نادية لم تكن هناك، فهو سيحرجها إن حاول فضح استعداد صديقتها لألاعيب الفتيان. لن يقدم على ذلك إذًا، سيترك شريف ليستخلص استنتاجاته بنفسه ولو من باب التغيير.

عاد إلى غرفة الجلوس وجلس أبعد ما يمكن عن سميرة. ثبّت قدميه أسفل كرسيه وألصق كوعيه بسطح الطاولة متخليًا تمامًا عن خطته في التقرّب من سميرة الخطيرة. صبّ جهده التدريسيّ على نادية. هل سيتورط على أيّ حال في

مواجهة مع أحمد فيما تمادى شريف؟ لا يبدو أن سميرة تمانع لو أن شريف يفعل، فمن تململ شريف المتواصل بعصبية في كرسيه، خمّن عمر أن قدمها دفعت ساقي شريف ثلاث مرات على الأقل قبل أن تدقّ الساعة السابعة.

عاد أحمد في الموعد المحدد واصطحب أخته إلى البيت. لحظة خروجهما من الباب، اختفى شريف في غرفة النوم. نادت فاطمة نادية من المطبخ كي تساعدها على تحضير العشاء. أما عمر فهرع إلى خارج البيت وهو يشعر بأنه يكاد يختنق. أثناء هبوطه الدرج، صادف العم مصطفى وهو يجرجر نفسه صاعدًا. كحّ العم مصطفى إلى جنب وسأله:

- إلى أين؟

- سأتمشّى.

بدا كما لو لن يستطيع الوقوف على قدميه لدقيقة أطول، صوّب العم مصطفى إصبعًا نحو عمر:

- لدي ما أقوله لك، الأمر مهم. لا تتأخر عن العشاء.

هرول عمر إلى جنب الرجل، وقبض على مرفقه كي يساعده على الصعود:

- ليس هناك ما يضطرني إلى الخروج.

توقف العم مصطفى وهزّ رأسه:

- كلا، امض في حال سبيلك.

وضع يده على كتف عمر ملتقطًا أنفاسه كما لو أنه فرغ من سباق للجري ثم تابع:

- إنني بحاجة إلى تناول الطعام، والحصول على قسط من الراحة سنتحدث بعد العشاء.

أمسك العم مصطفى بالدربزين، واستأنف صعوده المضني قائلًا:

- الأمر يتعلق بفاطمة.

# 6

تجمّد عمر في مكانه، قدمٌ فوق درجة والأخرى معلقة في الهواء. أقحم شيء ما نفسه عنوة في حلقه، ثم انزلق وعصر أحشاءه. قفز عدة درجات دفعة واحدة واعترض طريق دخول العم مصطفى من الباب الأمامي قائلًا:

- ماذا عن فاطمة؟ لقد تركتها للتوّ في الداخل.

فرك العم مصطفى بإبهام تصلّب جلده العقدة المرتسمة بين حاجبي عمر:

- إنك تقلق كثيرًا يا بني، سنتحدث بعد العشاء.

لفّ عمر الحيّ مرتين كي يوهم العم مصطفى بأنه تمشّى وعاد بذهن صاف، لكن ذهنه قفز من افتراض سيئ إلى أسوأ مع كل خطوة خطاها. استجمع شجاعته وذهب إلى البيت منتظرًا بحرقة انتهاء وجبة العشاء كي يصبح العم مصطفى جاهزًا للحديث معه.

جلس العم مصطفى لاحتساء الشاي، وأكل اللوز المحمص في الشرفة الصغيرة الممتدة من غرفة الجلوس. كان بابها مصنوعًا من الخشب السميك، وعندما يوصد، ويعمد الجالس إلى خفض صوته، تتحول الشرفة إلى حيز خاص معزول عن بقية العائلة والمارة في الطريق. كثيرًا ما استخدمها العم مصطفى، وماما صبحية في مناقشة الأمور بعيدًا عن مسامع الآخرين. أشار العم مصطفى لعمر كي يجلس على كرسي يقابله وقدم له حفنة من اللوز:

- عندما أغمض عينيّ في أمسية هادئة كهذه، فإنني أتخيل نفسي داخل بستاني في فلسطين.

تفحّص عمر الرجل الكبير بتمعن فالعم مصطفى لم يستدعه للحديث عن اللوز:

- أهذا سبب ولعك الشديد باللوز؟ لأنه يعيدك إلى الوطن؟

- ليس هناك ما يداني في الطعم حبات شجرة اللوز المعمرة في بستاني. ما أن يأخذ الربيع أنفاسه الأولى، إلا وتكون أول شجرة تزهر، حتى قبل أشجار المشمش والبرقوق.

قذف حبة لوز في فمه وتابع:

- إحدى طرق تمييز اللوز المرّ من الحلو، بالتذوق.

telegram @soramnqraa

ملأ كوبيّ الشاي وناول أحدهما لعمر:

- لم آكل ولا حبّة مُرّة حتى الآن وهذا ليس أمرًا جيداً.

وهو يطحن اللوز تحت أسنانه ويرتشف الشاي، حاول عمر تتبع أفكار الرجل ثم قال مستنتجًا:

- اللوز المرّ يجعل مذاق الحلو أطيب.

وضع العم مصطفى كوب الشاي فوق الطاولة الصغيرة قائلًا:

- فهمت ما أرمي إليه إذًا. مرّ عليّ اليوم في المصنع معلمك لمادة التاريخ الأستاذ وليد ليحدثني في أمر.

وضع عمر كوبه، وعقد ذراعيه فوق صدره:

- أؤكد لك أنني لم أفعل شيئًا، لم أتعارك مع أحد في المدرسة طيلة هذا العام. ظننت أننا سنتحدث عن فاطمة.

أومأ العم مصطفى بسرعة:

- هو كذلك بالفعل، لقد طلب وليد موعدًا لزيارتنا مع أمه ذات مساء.

هزّ عمر رأسه:

- إنني لا أفهم. مهما كان ما يزعمه الأستاذ وليد فإنني متأكد أن فاطمة لم تفعله.

فكّ ذراعيه ومال إلى الأمام:

- أقدّر هذا الرجل وأعتقد أنه لطيف إلى حد كاف، ولكن لا يحق له حشر أنفه في عمل فاطمة مع أمه. مثل هذه الأمور ينبغي أن تترك تسويتها للنساء، ألا توافقني في ذلك؟

ارتشف العم مصطفى الشاي الساخن:

- لا علاقة للأمر بعمل فاطمة، يريد وليد إحضار أمه لأجل طلب يد فاطمة.

ما كان يعتصر أحشاء عمر طيلة المساء تركه فجأة في حال سبيله، وغمرته موجة من الارتياح:

- حقًا؟ هذا خبر عظيم.

مال العم مصطفى برأسه جانبًا:

- هل ترى ذلك؟

- الأستاذ وليد رجل محترم، امتدحته فاطمة في المرات القليلة التي أتت فيها على ذكره أمامي. لماذا؟ هل تعرف شيئًا لا أعرفه؟

- أنت تعرفه أكثر مني. إنه يحسن معاملة أمه وهذا مؤشر قوي على معدن الرجل الطيب. يجب أن نسأل عنه خارج نطاق المدرسة، أعني الأسئلة المعهودة:

من يكون أصدقاؤه وإن كان عليه دين، مسائل من هذا القبيل.

اتكأ العم مصطفى بمرفقه على سور الشرفة الحديديّ، وأسند رأسه إلى كفه ثم غمز عمر:

- طبعا، أول من يتوجب عليك سؤاله هو فاطمة.

أشار عمر بإبهامه إلى صدره:

- أنا؟ لماذا؟ ما الذي أفهمه في مثل هذه الأمور؟ ماما صبحية ينبغي أن تكلمها في هذا الموضوع.

رفع العم مصطفى بصره إلى السماء المرصعة بالنجوم كما لو كان يناجي الله ثم قال:

- نحن نحب فاطمة كما لو أنها من لحمنا ودمنا، لكني لا أريدها أن تشعر بأي ضغط ولا بأي شكل من الأشكال.

- ضغط؟

نهض العم مصطفى من كرسيه، ثم أسدل يديه فوق سور الشرفة وعضلات حنكه البارز منتفخة. ضيّق عمر عينيه، هناك ما يشغل بال الرجل، دفع كرسيه إلى الوراء ثم وقف إلى جانبه متسائلًا:

- ماذا يدور في رأسك؟

قرّب العم مصطفى وجهه من وجه عمر:

- لا أريدها أن تظن أننا... نريد التخلص منها. أنت الشخص الوحيد الذي يجب أن يفاتح فاطمة في هذا الموضوع. جسّ نبضها، واستوضح منها إن كانت لديها الرغبة في منح فرصة لهذا الرجل، ستكون صادقة معك.

- وإن ردّت بالقبول؟

- نسأل عنه، وإن تبين أنه رجل طيب كما نحسبه، سنبارك لها.

- وإن رفضته؟

- حينها سأعرف أنها اتخذت قرارها بنفسها. كن حذرًا للغاية عند مفاتحتك لها يا عمر، وتأكد من أنها تدرك أنني وصبحية نحب بقاءها معنا طالما أحبت البقاء.

وضع يده بحنان فوق ذراع عمر:

- كلاكما يا بني.

عَلِقَت الكلمات في حلق عمر، العم مصطفى يقول شيئًا فيما تقول عيناه المرهقتان شيئًا آخر لم يستطع التقاطه تمامًا:

- سأفاتح فاطمة في الموضوع.

عاد العم مصطفى إلى كرسيه وبعد استرخاء عضلات وجهه ترهلت شفتاه،

وافترّتا عن ابتسامة حزينة:

- قلت لوليد إن بإمكانه أن يزورنا يوم الخميس بعد صلاة المغرب، ضع في حسبانك أن تكون جاهزًا عند مجيئه.

ثم حنى ظهره، وحمل إبريق الشاي ليملأ كوبيهما من جديد:

- والآن دعنا ندعُ أن يدرك إحداهنّ المخاض في ذلك المساء كي لا تتحفنا هدى بوجودها.

# 7

في مساء اليوم التالي، اصطحب عمر فاطمة لدى عودتها من بيت أم وليد وسلك بها طريقًا آخر، وعند اعتراضهاعلى ذلك تعذّر لها بجلب شيء من بيت صديق. كان يتمنى أن يدعوها لتناول الشاي في مقهى لطيف، لكن جيوبه فارغة.

مشيا في أزقة ضيقة مرصوفة بحجارة منذ العهد العثماني، وخيّل لعمر أنه لو تجاهل ما يتدلى من أسلاك كهربائية عشوائية مرتخية فوق رأسه، لأقسم بأنهما عبرا الزمن إلى الماضي فكل ما يحيط بهما مغرق في القدم.

ما زالت الأبواب الخشبية الصغيرة المقوّسة التي توصد مداخل البيوت الكبيرة تحتفظ بمطارق الكفّ النحاسية. يعيش مروان في بيت منها؛ قصر هي الكلمة الأنسب لوصفه. لم تكن لدى عمر فكرة عن ضخامة ما يقبع خلف تلك الأبواب الصغيرة من بيوت دمشقية تقليدية ذات أفنية داخلية تتوسطها نوافير سداسية، وحيطان رخامية. كان كلما زار مروان يضطر إلى ضمّ كتفيه، وحني هامته عند عبور الباب الصغير في تذكير جسدي للضيف بالتواضع أمام المضيف.

بلغا زاوية زقاق، وانعطفا إلى آخر، فتقدم عمر فاطمة كي يلتفا حول رجلين يشربان من سبيل مثبت في حائط. كانت النافورة الصغيرة محاطة بسيراميك أبيض مزخرف بآيات من القرآن، تحثّ السابلة على الدعاء لحبيب متوفى كلما أطفؤوا عطشهم منها.

فوق مستوى النظر بقليل، أباجورات النوافذ الخشبية بزخارفها البديعة تطل نحو ذراع من الجدران. تستر تلك المشربيات ساكني البيوت عن الأعين المتلصصة بينما تسمح لضوء الشمس وأصوات الحياة اليومية بالعبور. ترى كيف يشعر أبناء العوائل الممتدة إلى أجيال ممن يقطنون هذه البيوت؟ إنه لا يعرف حتى والديه، فاطمة هي صلته الوحيدة بعائلته **الحقيقية**. لهذا يتوجب عليه أن يعمل على إسعادها وعلى عدم الإخفاق في مهمته.

وصلا إلى ساحة عامة صغيرة تتوزع في أرجائها رقع من العشب هنا وهناك. وكان عليه أن يقنع بما يوفره مقعد خشبي أسفل مصباح للطريق من خصوصية محدودة. جلست فاطمة فوقه وبادرته إلى السؤال:

- ما الذي يدور في خلدك؟ من الواضح أننا لسنا متجهين إلى بيت صديق،

هل أنت في ورطة ما؟

جلس عمر بقربها وردّ عليها:

- لن ألفّ وأدور حول الموضوع، حدّثيني عن وليد.

علا الشحوب وجه فاطمة، انعقد حاجباها وتحولت ابتسامتها إلى عبوس:

- لا أستسيغ نبرة كلامك يا أخي، ما الذي تبطنه في سؤالك؟ إنني أشتغل عند أمه وأحيانًا أصادفه لدى الباب لحظة خروجي، هذا كل ما هناك. إن زعم أحد الجيران بأي شيء خلافًا لذلك فهو كاذب.

أدرك عمر أنه ضغط بلا قصد على عصب موجع. كيف له أن يعرف المدخل المناسب لمثل هذه المواضيع الحساسة؟ ردّ مستدركًا:

- إنني لا أبطن أي شيء.

تنحنح ثم حاول من جديد:

- لا يجرؤ أحد على النيل منك بقول سوء يا فاطمة، ليس هذا ما كنت أحاول الوصول إليه.

- ماذا إذًا؟

- أعرف أنك تعتبرينه رجلًا مهذبًا، لكن هل تتصورين نفسك... في بيته مثلًا؟

فزّت على قدميها:

- ما الذي تتحدث عنه؟!

أمسك عمر يدها قبل أن تتركه وتمضي في سبيلها:

- وليد طلب إذن العم مصطفى لمفاتحتك بأمر الزواج، إنني أحاول معرفة إن كنت موافقة على الفكرة.

سحبت فاطمة يدها من يده:

- آه، فهمت الآن.

جلست فوق المقعد ودسّت كفيها تحت فخذيها وقالت:

- قلّ له ألا يضيع وقته.

- لماذا؟

- إننا لسنا في بيتنا ووطنا يا عمر، لن أستقرّ إلا في فلسطين. أحلم بالعيش معك تحت سقف بيت والدنا في القدس.

ابتسم:

- لديّ أنا أيضًا الحلم نفسه، لكن أولادك العشرة في حلمي يزحمون علينا البيت.

راحت تميل إلى الأمام والخلف وهي تحني رأسها إلى أسفل:

- إنني أعني ما أقول.

بحث عن طريقة لتعديل مزاجها وقال:

- دعينا نعقد اتفاقا فيما بيننا.

لمس كتفها ليحفزها على النظر إليه وتابع حديثه:

- سأبذل كل ما بوسعي كي نعود إلى بيتنا في فلسطين، أما أنت فستعملين خلال ذلك على إنجاب أولئك الأطفال العشرة.

تغضّن وجه فاطمة وهي تحاول قمع ابتسامة تريد الارتسام رغمًا عنها:

- لا أفكر بالزواج.

- من وليد تحديدًا؟

هزّت رأسها:

- من أي رجل كان.

رفعت يدها لتخربش شعره:

- لا أستطيع أن أتخيل أني أتحدث معك في موضوع كهذا.

لم يهبط عمر برأسه، وتركها تفعل بشعره ما تشاء:

- لم أعد صبيًّا صغيرًا.

استفزته:

- متى حدث ذلك؟ إنه يشعرني بأني كبرت.

مال ولكزها بكتفه:

- كبرتِ كفاية كي يطرق العرسان بابكِ. أنت معجبة بوليد، أليس كذلك؟

رفعت فاطمة حاجبيها، فحاول أن يبقى ظريفًا في كلامه:

- أتودين أن أقول لك كيف أعرف ذلك؟ إنك تعتقدين أنه ذكي، متعلم، طيب القلب ومحترم. آه، كما أذكر أنك قلت لي شيئًا عن شكله، ماذا قلتِ؟

حكّ رأسه:

- إنه خليط مني ومن شريف. له طولي وعينا شريف أو شيئًا من هذا القبيل.

خبّأت فاطمة ابتسامة بكفّها:

- ماذا؟

رفع رأسه متظاهرًا بانتظار الوحي:

- لا، انتظري لحظة. ستتنزّل عليّ الكلمات. شعري وأكتاف شريف المحنيّة. لا، ليس كذلك. قدماي وبوز شريف.

لكمته فاطمة في عضده مقهقة من الضحك:

- دعك من هذا، توقف.

طرقع بإصبعيه:

تذكرت الآن! قلتِ إن وليد يشبه ذلك الممثل الذي تعشقه الصبايا، عمر الشريف.

انفجرت ضاحكة من قلبها:

- هو ذاك!

شبك عمر يديه تحت ذقنه:

- أعطيه فرصة؟

تبدد ضحك فاطمة وأصبح صوتها جديًا:

- هناك أمور أهم عليّ التفكير فيها.

- مثل ماذا؟

دسّت كفيها ثانية تحت فخذيها، حنت رأسها، تأملت قدميها وظلّت صامتة.

ألحّ عمر محاولًا فهم ما يجول في رأسها:

- ألا ترغبين في تكوين عائلتك الخاصة؟

- يومًا ما، ربما. عندما يكون الوقت مناسبًا.

- ومتى سيكون كذلك؟

رفعت فاطمة رأسها فأحاطته عيناها العسليتان بالدفء:

- عندما تنال شهادتك الجامعية ويصبح مستقبلك مضمونًا. ادخرت ما يكفي لرسوم التسجيل على ما أعتقد، وسأواصل العمل على إضافة زبائن جدد من الأحياء المجاورة لتغطية بقية التكاليف. لكن يجب أن تعثر على عمل مسائيّ.

تأمل وجه أخته الطيبة، لم تكن هدى من يحول دون انطلاقها، بل كان هو. إنه مرساتها الثقيلة التي تمنعها من الإبحار، منعها قلقها البالغ على مستقبله من التفكير في مستقبلها. تنهد عميقًا، في مكان ما من ذهنه لا بد وأنه كان يعرف ذلك، لكن لوم هدى كان أكثر راحة على كل حال. حاول أن يبعث صوته من جوفه وكأنه ربيع بهيج:

- كنت أنوي أن أخبركم جميعًا عما قريب وبعد التوقيع على كافة الأوراق. عثرت على عمل سيغطي تكاليف دراستي، لستِ مضطرة للقلق على ذلك بعد الآن.

لكن شكها فيما قاله كان واضحًا فقد اعتدلت وضيّقت عينيها:

- أين؟ وما طبيعة هذا العمل؟

نهض عمر ومد يده لها:

- سأطلعك على كافة التفاصيل حال أن يصبح كل شيء مؤكدًا. هيا، دعينا

نذهب الآن.

مشيا في أزقة ملتوية كثعبان إلى البيت. نجح عمر في معرفة انطباع فاطمة عن وليد وهو عمومًا إيجابي، وعكف طيلة الطريق على التهرب من أسئلتها حول عمله المزعوم، وتركيز الحديث على وليد بإثارة كل ما يخطر في باله حول شخصيته. رويدًا رويدًا، ساعد فاطمة على التخلص من تحفظها على الزواج، وإطلاق ما تكتمه في داخلها من رضى داخلي تجاه طلب وليد.

بحلول الوقت الذي انضما فيه إلى بقية العائلة، كانت فاطمة قد وافقت على السماح لوليد بالتعرف عليها لبعض الوقت قبل أن تأخذ قرارها النهائي، وبعد موافقة العم مصطفى وماما صبحية بالطبع.

في الصباح الباكر، تسلل عمر خارج البيت. بذل قصارى جهده كي لا يوقظ شريف الذي ربما كان غارقًا في حلم بسميرة الخطيرة. كان لديه ما يكفي فقط لدفع أجرة الباص حتى منتصف الوجهة التي يقصدها، قطع بقية المسافة مشيًا متفحصًا رزمة الأوراق تحت إبطه مرتين قلقًا من نسيان شيء منها. وصل قبل نصف ساعة على فتح الأبواب، واستغل الوقت في قراءة كل ورقة بتأنٍ. طبقا لظروفه، كان هذا أفضل خيار متاح له كي يضمن حرية شقيقته. ما إن فتح شاب في زيّه الرسمي البوابة الرئيسية على مصراعيها حتى كان عمر في طريقه صوب مكتب التسجيل. قدّم أوراقه، ووقّع على تسليم جسده وروحه إلى الكلية الحربية.

# 8

طيلة نهار الخميس، اجتاحت الشقة المؤلفة من غرفتي نوم زوبعة من التنظيف. فركت البنات وغسلن كلّ ما فيها مما يدخل القماش في تكوينه، بدءًا من الستائر السكريّة الشفافة وانتهاء بالسجادة المهترئة وما بينهما. رفع الفتيان كل ما ثقل وزنه من قطع أثاث وما شابه، بينما كنست البنات الأرضية، ونفضن الغبار عن كل سطح، ومسحن حتى الحيطان بفوط مبللة. بعد ذلك، أرسل شريف لشراء ما يقدّم عادة في مثل تلك المناسبة، صينية كنافة. سحبت ماما صبحيّة مما تخبئه من قرش أبيض لليوم الأسود، ودفعت ثمنها رافضة أن تدع فاطمة تسدد كلفتها. أصدرت توجيهاتها للجميع بصورة فاعلة؛ كانت البنات في الموعد المحدد لاستقبال الضيوف جاهزات ومرتديات أفضل ما لديهن.

كُلّفت نادية برعاية شقيقتيها الأصغر والبقاء في غرفة النوم، ولم يسمح لثلاثتهنّ بمغادرتها إلا بعد أن تنادي عليهنّ أمهنّ. أما فاطمة فكان عليها أن تتمركز في المطبخ، وعندما يحين أوان الترحيب بأم وليد وابنها، أي بعد خمس أو عشر دقائق على وصولهما وفقًا للتقاليد، فإن فاطمة تدلل على استعدادها لسماع طلبهما بتضييفهما القهوة. ذكّرت ماما صبحية فاطمة، وللمرة الألف، بأن عليها البدء بالنساء وترك من يطلب يدها لآخر الدور.

أضيف اثنان من كراسي طاولة الطعام إلى غرفة الجلوس. ماما صبحية ستحتل كنبة منفردة والعم مصطفى سيجلس على الأخرى، عمر إلى يمينه وشريف إلى يساره، وتترك الكنبة الكبيرة لضيفيهما.

يبدو أن الله استجاب دعوة العم مصطفى، فقد أدرك المخاض إحدى الجارات، واستدعيت هدى لتوليدها عند العصر. خرجت مهرولة بعد أن كوت الجميع بلظى انتقاداتها الحارقة خلال تنفيذ مهامهم الشاقة متصيدة أخطاء فاطمة بالتحديد. حاولت ماما صبحية تبرير تصرفات هدى بأنها تعود لما لها من طبيعة قلقة، لكنهم جميعًا يعرفون بأن الغيرة كانت تدفعها إلى حافة الجنون.

لدى عودة شريف بصينية الكنافة، كانت البنات في أماكنهنّ المقررة، والكبار يجلسون في مقاعدهم المحددة مترقبين جرس الباب.

حمل عمر صينية الكنافة إلى فاطمة في المطبخ بينما ذهب شريف لارتداء

ملابسه. كانت ترتدي تنورة خضراء «مُكَسّرة» وبلوزة بيضاء بينما ينسدل شعرها الأسود متموجا فوق كتفيها.

حيّاها عمر بقبلة فوق الخدّ:

- ما هذا الجمال!

دفعت الصينية داخل الفرن الدافئ:

- إنني في غاية الارتباك، لا أصدق أنك ورطتني في هذا الأمر.

تمهل إلى أن استدارت نحوه فوضع يديه فوق كتفيها:

- كوني على طبيعتك فوليد ليس بغريب، أنتِ تعرفينه، لقد تكلمتِ معه مرات عدّة.

هزّت رأسها:

- ليس على هذا النحو، بوجود العم مصطفى وتحت سمعه وبصره.

- لا تقلقي، ربما لن تحتاجي إلى قول أي شيء. اتركي هذه المهمة له.

احتضن عمر أخته بسرعة وخرج من المطبخ، دلف إلى غرفة الجلوس في اللحظة التي فتح فيها الباب الأمامي.

دخلت هدى: «عدت في الوقت المناسب،» قالت لجمهور أصابه الذهول وأكملت: «رأيتهم عند ناصية الشارع، سيصلون في أي لحظة.»

اقتادت ماما صبحية هدى إلى المطبخ: «امكثي هنا، وساعدي فاطمة.»

وصل وليد وأمه.

حدّقت ماما صبحية في وليد وقاسته بنظراتها من رأسه وحتى أخمص قدمه أثناء تبادله عبارات الترحيب التقليدية مع العم مصطفى. جفل عمر وأشفق على الرجل وهو تحت المجهر، لكنه أدرك عند رؤيته لأستاذه مهندمًا في بذلة رسمية أن وليد يشبه حقًا ذلك الممثل بوجهه المربع وعيونه الداكنة وشعره الأسود الكثيف.

استرق عمر نظرة خاطفة إلى ساعته عادًا الدقائق إلى حين السماح لفاطمة بالانضمام إليهم. رغب في الذهاب للاطمئنان عليها خشية من قول هدى ما قد يزيد من ارتباكها، لكن لا مجال الآن لترك مكانه فسيعتبر ذلك من باب قلة الاحترام.

سألته أم وليد:

- إذا أنت شقيق فاطمة؟

- أجل.

- ليس من شبه بينكما على الإطلاق، هل أنتما من نفس الأم والأب؟

سارعت ماما صبحية بالرد قبل أن يتمكن عمر من قول أيّ شيء:

- أجل، من نفس الأم والأب، أمهما كانت صديقتي الحميمة.

- والأب كذلك؟

ردّ عليها العم مصطفى مستهجنًا سؤالها:

- عائلة بكري كانوا جيراننا في القدس.

حوّل نظره إلى وليد وأومأ له، أعطاه الإشارة للبدء في الموضوع.

اعتدل وليد في مقعده، ثم ثبّت عينيه في عمر وشرع في إلقاء ما بدا كخطبة تمرن عليها بشكل محكم:

- لقد جئت بمعيّة والدتي في هذا المساء طالبًا منك إذن التعرف، وبكل الاحترام، على أختك بغرض الزواج.

أبقى عمر عينيه في عيني وليد متفاجئًا من توجيه الكلام له، بدلًا من العم مصطفى، ومن لهجة وليد الرسميّة.

واصل وليد قوله:

- إنني أستاذك منذ ثلاث سنوات، وأرجو أن يكون ذلك قد أتاح لك فرصة معرفة أي صنف من الرجال أكون.

تنحنح وتابع:

- إنني قادر على توفير عيش كريم لفاطمة فيما قبلت السكن معي ومع أمي... بعد موافقتك، بالطبع. توفي والدي قبل خمس سنوات.

تمتم الجميع:

- رحمه الله!

استأنف وليد حديثه:

- إنني من عائلة نجاد، من نابلس.

سحبت ماما صبحية نفسًا عالي الصوت، فتحوّلت أنظار الجميع نحوها. كحّت في منديلها، لكن عمر شعر بأنها كحّة مفتعلة. ما الذي قاله الرجل ففاجأها؟ رجع ببصره إلى وليد.

تململت أم وليد في مقعدها وقالت:

- لقد تعرفت على فاطمة جيدًا خلال السنوات الثلاث الماضية. إن الله لم ينعم عليّ بالبنات، لكني أحبّ فاطمة كما لو كانت ابنتي وسأبذل ما في وسعي لتكون سعيدة معنا.

مررّ وليد إبهامه بين ياقته وعنقه مزدردًا ريقه عدة مرّات:

- إنني حريص على أداء صلاة الجمعة وليس من دين عليّ لأحد. أتعامل مع الجزار، أبي نوّاف، في الطرف الجنوبي من الحيّ على نحو دائم، ومعظم أصحاب محلات البقالة في شارع محيي الدين يعرفونني. سيعطونكم ردودًا صادقة فيما

سألتموهم عني.

أخرج ورقة من جيبه ووضعها فوق الطاولة:

- يمكنكم السؤال عني أيضًا في مطبعة هذه الصحيفة، عمي الأكبر يعمل هناك.

طرفت عينا عمر، هكذا إذا تسير الأمور في مثل هذه المناسبات؟ إنه لا يرتاد السينما كثيرًا، لكن الطريقة التي تصوّر بها هذه المواقف في الأفلام أقل حدّة بكثير. أستاذه الفصيح تحوّل إلى كومة من الأعصاب المشدودة، كان وجهه يلمع بالعرق ورجله تهتزّ بعصبية. هل يفترض به قول شيء الآن؟ استرق عمر نظرة استفهام خاطفة صوب العم مصطفى، لكنه كان يكتفي بالحملقة فيه. حوّل عمر بصره نحو شريف، كان يطأطئ رأسه ويداه في حجره، يجدهما آسرتان للنظر فيما يبدو. أنقذته ماما صبحية:

- هل قلتَ إنّك من نابلس؟

نفخت أم وليد صدرها وقالت باعتداد واضح:

- كِلا والديه، عائلتي وعائلة زوجي المرحوم أيضًا.

مالت ماما صبحية برأسها نحو أم وليد، وقالت بما يشبه الاعتذار:

- ليتني كنت أعرف بهذا من قبل.

ربّتت أم وليد على يد ماما صبحية:

- لا عليكِ... أنا واثقة أن الأمر تمام التمام.

احتار عمر فيما يتوجب عليه فعله، ماذا حصل؟ ما هي الشيفرة السرية التي تبادلتها المرأتان؟ لو أن العم مصطفى ينطق بشيء لجاراه في وجهة كلامه، هل حان وقت دخول فاطمة بصينية القهوة؟

توجه وليد إلى عمر بالسؤال بعد أن استجمع شيئًا من زمام نفسه:

- عمر، هل هناك شيء آخر تود استيضاحه؟

إن كانوا يعتبرونه الشخصية المحورية في هذه المسرحية، فسيتحدث بما يعتمل في صدره وبما يستحق أن يسأل عنه ولتذهب القواعد والأصول إلى الجحيم:

- ما طبيعة مشاعرك تجاه أختي؟

طرفت عينا وليد مرتين:

- إنني معجب بأخلاقها، وحسن سلوكها.

علت خطوات فاطمة من الخلف، فأومأ عمر لوليد دلالة على قبول ردّه. اتجهت فاطمة نحوهم وهي تحمل صينية نحاسية لامعة وفناجين القهوة من فوقها تترجرج. وقف وليد وأغلق أزرار جاكيته. نطق العم مصطفى أخيرًا وقدّم

رسميًّا طالب يد فاطمة:

- وليد نجاد، مدرس تاريخ. لقد تقابلتما من قبل.

قدّمت فاطمة القهوة بحسب التعليمات: بدأت بأم وليد، ثم ماما صبحية، العم مصطفى، عمر، شريف وانتهت بوليد. وضعت الصينية فوق الطاولة وجلست بين وليد وأمه ثم لفت ساقًا فوق ساق. تنحنحت ماما صبحية فحلّت فاطمة ساقيها، ثم ضمت قدميها وأزاحتهما قليلًا نحو أم وليد. قلب عمر عينيه، مزيد من الشيفرات السرية بين النساء! ليكن الله في عونه عندما يحلّ الدور عليه، هذا إن حدث ذلك أصلًا.

تصلّب وليد بجانب فاطمة وحمل فنجانه وصحنه ثم استدار ليقابلها:

- كيف حالك هذا المساء؟

قبل أن تتمكن فاطمة من قول شيء دخلت هدى الغرفة فنهض وليد ثانية.

علا صوت ماما صبحية بضع درجات عما هو في العادة:

- هذه هدى، ابنتي الكبرى.

وضعت أم وليد فنجانها في الصينية، ومدت يدها لتصافحها.

لم يكن هناك من مكان لجلوس هدى، وعندما أوشك عمر على تقديم كرسيه لها، سبقه شريف إلى ذلك. مهّدت هدى تنورتها من الخلف وهي تنظر مبتسمة في عيني عمر.

ثمة خطبٌ ما، فهدى نادرًا ما تبتسم. وقطعًا، لم ترتسم على وجهها مثل هذه الابتسامة العريضة من قبل. شيء ما في التواء فمها على ذلك النحو الشرير أشكل التقاطه على عمر.

# 9

تمشّت نادية في المساحة الضيقة بين الأسرّة وهي تثرثر مع أختيها الصغيرتين لإلهائهما. توقفت أمام المرآة التي تعلو باب الخزانة، وتفحّصت أزرار قميصها الأصفر، أصبح هذا القميص لها بعد أن استخدمته هدى أولًا ثم فاطمة خلال سنوات المراهقة، وصمد قماشه الحريريّ أكثر من اللازم بمعرفة الفتاتين كيفية إطالة عمر قطعة غالية مثله. حنت نادية كتفيها لتخفف من انشداد الجزء المحيط بصدرها مدركة أن نموها هناك فاق من ورثت عنهن هذا القميص، يجب أن تطلب من فاطمة أن توسعه بضعة سنتمترات في تلك المنطقة.

سألتها فرح من الزاوية التي تجلس فيها فوق أحد الأسرّة:

- كم علينا الانتظار بعد؟

ردت نادية بعبوس:

- لوقت قصير.

من المفترض أن يكونوا قد نادوا عليهم بحلول هذا الوقت، ما الذي أخرّهم؟ استدارت نادية وجلست على حافة السرير وقالت لأختيها:

- دعوني أذكّركما مرة أخرى، ندخل، نحيي الجميع ثم نعود إلى هنا.

عدّلت الشريط الذي يزين رأس سلمى:

- لو سألوا عن شيء، يجب أن يكون ردكما سريعًا، لا أريد أن نستغرق وقتًا أكثر من اللازم.

اعترضت فرح:

- لم لا نستطيع المكوث مدة أطول؟

- لأن الأمور لا تسير على هذا النحو.

- ولكن لماذا؟

- لا مكان لنا.

زقزقت سلمى مثل عصفور:

- بإمكاني أن أجلس فوق السجادة، فأنا عندما ألعب أجلس دائمًا على الأرض.

مالت نادية وهمست كما لو أنها تفشي لهما بسرّ:

- الجلسة غير مناسبة للأطفال، فالكبار بحاجة للتعرف على بعضهم البعض أولًا.

هزّت فرح رأسها فسقطت خصلة ناعمة من شعرها البني فوق عينيها:

- أنتِ لست بطفلة مثلنا، إنك في السادسة عشرة.

اعتدلت نادية وتفحّصت نفسها في المرآة ثانية. أختها محقة، إنها بالتأكيد لا تبدو طفلة في هذا القميص.

اخترقت الجو الهادئ موجة سعال ثم أعقبها صوت زجاج تهشم. قفزت نادية من مكانها وتساءلت فرح بجزع:

- ما الذي حدث؟ لماذا ماما تعتذر؟

ردت عليها نادية: «لا أدري.» ثم اتجهت نحو باب الغرفة الموصد، هل ينبغي لها أن تخرج لترى ما يحدث؟ ربما كانوا بحاجة لها. استدارت نحو الصغيرتين وقالت: «امكثا هنا، سأعود في الحال.»

سحبت نفسًا عميقًا، ثم فتحت الباب وخرجت.

كان الجميع واقفين، ماما تسعل بلا توقف، وأم وليد تطبطب على ظهرها، فاطمة تحمل كوب ماء ووجهها شاحب كالموتى، هدى تلتقط قطع فنجان قهوة مهشمًا بالقرب من قدميّ أم وليد، والرجال يحملقون بتشوش في وجوه بعضهم بعضًا وهم يتململون من جنب إلى آخر. كان عمر يولي ظهره لنادية.

تمكنت ماما من النطق وسط سعالها المتواصل:

- متأسفة جدا، لقد شَرِقْت من الرشفة الأولى.

نظرت إلى فستان أم وليد:

- هل أرقت القهوة على فستانك؟

ابتسمت أم وليد وهي تنفض بكفها مقدمة فستانها الرماديّ:

- إراقة القهوة فأل حسن.

اعتدلت هدى واتجهت صوب المطبخ. مرّت من أمام نادية وهي تمشي بخيلاء: ظهرها منتصب، صندلها يقرع البلاط وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة ملتويّة غريبة.

تجمدت نادية في مكانها.

استدار عمر، وتتبع هدى بالنظر.

وثبت شخصية كرتونية في مخيلة نادية، محارب غاضب ينفث البخار من أذنيه وأنفه. أكدت نظرات عمر المتوعدة ظنون نادية، مهما كان ما وقع من أمر سيئ فإن هدى وراءه وعمر يعرف ذلك.

توجهت ماما إلى فاطمة بالحديث:

- إننا بحاجة إلى قهوة طازجة. لقد أرقت فنجان أم وليد خلال ما داهمني من سعال، لو سمحتِ ساعدي هدى.

جمعت فاطمة فناجين القهوة التي لم يمسّها أحد وهرولت نحو المطبخ.

لحقت بها نادية:

- ما الذي جرى؟

كانت هدى تقف بجانب الفرن وهي تطوي يديها فوق صدرها وتلك الابتسامة الغريبة ما تزال فوق وجهها، قالت:

- فاطمة ارتكبت غلطة، علبة الملح بجانب علبة السكر.

ملأت فاطمة غلاية القهوة بالماء، وأشعلت النار تحتها بحركات مرتجّة ثم غمغمت:

- لحسن الحظ أن ماما صبحية سبقت أم وليد في ارتشاف القهوة.

فتحت هدى الخزانة، وأخرجت طقمًا جديدًا من فناجين القهوة وهي تقول بسخرية مبطنة:

- أجل، لحسن الحظّ.

قبضت نادية على ذراع هدى، وجذبتها لتستدير:

- كيف تجرؤين؟!

نفضت هدى ذراعها بقوة من قبضة أختها فأوشكت نادية على فقدان توازنها:

- لم أفعل أي شيء.

دخلت ماما المطبخ:

- اشكري ربك أن أم وليد لم تلتقط ما جرى للتو.

هزّت إصبعها في وجه هدى:

- أريدك أن تخرجي وتستأذني، ابقي مع الصغيرتين في الغرفة. نادية ستساعد فاطمة على تقديم الكنافة.

فتحت هدى فمها لتقول شيئًا لكن ماما هزّت رأسها بتحذير صامت ثم تنحّت جانبًا، وأمرت هدى بإيماءة من رأسها كي تخرج تحت ناظريها من المطبخ.

التفتت نادية إلى فاطمة، وضمّتها من خصرها:

- كل شيء سيكون على ما يرام.

مسحت فاطمة دموعها:

- سنرى.

حرّكت القهوة المعطّرة بالهال في الماءالمغلي، وراقبتها تفور مرتين ثم أطفأت النار. تركتها نادية وصفّت الفناجين الجديدة في الصينية ثم سألت:

- إلى اليسار أم اليمين؟ يصعب عليّ دائمًا تذكّر الجهة التي ينبغي توجيه مساكات الفناجين إليها.

اقتربت فاطمة وبيدها غلاية القهوة:

- إلى يسارك، كي يتمكن الضيوف من حملها بأيديهم اليمنى.

- لماذا تركت هدى تغلي القهوة من الأساس؟ أليس من المفترض أن تصنعيها بنفسك؟

تنهدت فاطمة:

- طلبت منها سكب القهوة بعد أن قمت بإعدادها، لا بد أنها غافلتني وأضافت الملح عندما استدرت كي أملأ كوب الماء.

مالت نادية بقرب فاطمة واسترقت النظر من الباب:

- عمر يعرف أن هدى هي المسؤولة.

- كيف تعرفين ذلك؟

- أعرف وحسب. سيحملها على دفع ثمن ما صنعت، سترين.

- لا، عليه ألا يفعل ذلك. وأنت لن تخبريه عن هذه الحماقة، إنه أمر بيننا نحن الفتيات. عديني بذلك.

أطلقت نادية تنهيدة طويلة:

- أنت طيبة للغاية.

- أحاول فقط أن أضع نفسي في مكان هدى. الأمر صعب عليها للغاية، إنها الأكبر.

حملت فاطمة الصينية:

- دعينا ننهِ هذا المساء على خير، فنحن على وشك تضييف خبراء الكنافة ما قد يترفعون على أكله منها، زلة أخرى سترصدها عين أم وليد الناقدة.

- ماذا تقصدين؟

- إنهم من نابلس، يعني أهل الكنافة، وماذا اخترنا أن نقدم لهم من أصناف الحلويات؟

- كنافة جاهزة من محل تجاريّ.

- ليست حتى من أحسن محلات الحلويات. ماما صبحية تكاد تخرج عن طوعها، جهزي الصحون والحقي بي بعد عشر دقائق لو سمحتِ.

مشت فاطمة صوب الباب، ثم استدارت وهمست لنادية:

- أبقي أكتافك محنية قليلًا أو ضعي يديك فوق صدرك، هذا القميص ضيق

جدًا عليك.

مرّ تقديم الحلويات بسلام، تحلّت أم وليد بما يكفي من لياقة، فتناولت لقمة واحدة وعلّقت بحرارة مفتعلة على طيب مذاقها ثم وضعت صحنها ولم تمدّ يدها إليه ثانية. أما وليد فالتهم حصته بالكامل أثناء حديثه مع فاطمة التي كانت تجلس بقربه. وازنت نادية نفسها فوق مسند كنبة أمها وفضلت طيّ ذراعيها فوق صدرها على تناول ما في صحنها.

قرب انتهاء الزيارة، سألت أم وليد فاطمة:

- هل ترغبين بالتعرف على ابني؟

حنت فاطمة رأسها ثم شبكت يديها في حجرها ولم تردّ. مرّت ثوان بصمت والجميع يحملق في فاطمة فاحمرّ وجهها بشدة.

أنقذتها ماما:

- السكوت علامة الرضا.

حثهم وليد بنبرة متزنة ولكنها وشت أيضا بحرصه على ترسيم طلبه بميثاق القرآن:

- ألا نقرأ الفاتحة إذًا؟

اندهشت نادية حين رأت والدها يكتفي بالتحديق في عمر بدل أن يرد على طلب وليد. كان عمر المسكين في حالة يرثى لها حتى أن طيّات الجلد بين حاجبيه ابيّضت من شدة عبوسه، يبدو عليه بوضوح أنه لا يطيق توجه الجميع إليه باعتباره الشخصية المحورية في تلك المناسبة الرسمية، فهو يجلس على حافة كرسيه كما لو أنه على أهبة الفرار من الغرفة.

كح عمر لاخلاء حنجرته.

رمته فاطمة بنظرة خاطفة، ثم غضّت بصرها إلى الأرض من جديد.

أومأ قائلًا:

- حسنًا إذًا.

رفع الجميع أكفّهم، و قرؤوا الفاتحة بصوت واحد ثم مسحوا وجوههم بأكفهم.

قالت ماما لوليد إنها ترحب به مساء كل خميس لقضاء وقت مع فاطمة، أما إن قررا الخروج معا، فيجب أن ينسق وليد مع شقيقها وشريف ليكونا مرافقين لهما.

لم ترَ نادية من داعٍ لهذا الترتيب، بل اعتبرته سخيفًا، فبمقدور فاطمة ووليد الالتقاء في بيته عند ذهابها هناك للعمل، ووالدته هي المرافق الأمثل كما كانت حتى الآن. أثارت نادية هذا الأمر بعدما غادر وليد وأمه.

«من المهم أن يرى الناس فاطمة ووليد برفقة أحد أفراد عائلتها في العلن لأن هذا يدلل على وضع وليد الرسمي،» أوضحت ماما. «إن كان من شاب آخر يفكر في طلب يد فاطمة، فسيعرف أن عليه التمهل والانتظار.»

# 10

لم يكن عمر في المزاج للتعرف على مزيد عن العادات والتقاليد، بل كان ذهنه يعمل بسرعة الضوء لمواجهة هدى بشأن تورطها في الاستعراض المسرحيّ الذي أدّته ماما صبحية. لكن وجه فاطمة المتوهج بالسعادة حمله على إعادة النظر في الأمر، فهو لن يقدم على ما من شأنه تعكير صفو فرحتها.

«شأن نسائي،» هكذا همست نادية في أذنه حالما أوصد الباب الأمامي خلف الزوار، لم يكن بحاجة لسؤالها عن المزيد فنادية تدرك جيدًا ما دار في خلده عندما التقت عيونهما عبر الغرفة. صك على أسنانه كي يبقى صامتًا، وتجنب هدى بالهرب فوق السطح.

حاول أن يشاغل نفسه، وينفّس ما يغلي في عروقه من غضب بقطع السطح جيئة وذهابًا، مشى والبلاط المتسخ من تحت قدميه والسماء المظلمة من فوق رأسه. سيحين موعد فحص اللياقة البدنية في الشهر المقبل، من سجّل قبله من الأصدقاء أخبروه بأن الفحص شامل وصعب للغاية. لكنه يتمتع بلياقة بدنية عالية، سينجح، يجب أن ينجح. في القريب العاجل، سيحصل على مكان يقيم فيه وشيء من الدخل، حتى وإن كان متواضعًا. وبعد سنتين، ستكون في انتظاره وظيفة فور تخرجه. الأمر ليس سيئًا للاجئ فلسطينيّ وفتى يتيم، ليس سيئًا على الإطلاق.

فاطمة ستتقبل الأمر الواقع بعد أن يستجمع شجاعته ويخبرها، سيفعل، حال نجاحه في الفحص وختم أوراق قبوله. وبما أن الكلية ستغطي ثمن طعامه وإقامته، فسيرسل معظم مخصصاته الماليّة إلى فاطمة. لا بد له من توفير دخل بديل لأخته خاصة إن لم تسر الأمور على ما يرام مع وليد واضطرت إلى ترك عملها. لكن ما رآه الليلة على وجه فاطمة يؤشر على نجاح وليد في الدخول إلى قلبها.

العمّ مصطفى سيقلق من احتمال محاولة شريف تقليد عمر والانضمام إلى الكلية الحربية. لو حصل هذا، فإن شريف سيسقط في الفحص البدنيّ بالتأكيد ولن يكون أمامه سوى الالتحاق بالجامعة حسبما هو مقرر. الآن وقد أصبح لعمر دالة على وليد، يجب أن يطلب منه مساعدة شريف للعثور على عمل

بدوام جزئيّ ربما في مطبعة عمه. وإن سارت الأمور على ما يرام، فإن العم مصطفى سيحتفظ بابنه إلى جنبه وسيحصل أيضًا على دخل إضافي.

ماما صبحية ستشجعه على خططه لما تتفوق به على سائر العائلة من تفكير عملي وحسن تدبير، ستتفهم بالتأكيد أسباب إقدامه على هذه الخطوة. هدى ستحزم له أمتعته فور سماعها الخبر. الصغيرتان بالكاد ستفتقدانه وفرح ستستولي على سريره لتنفصل عن سلمى. ونادية.

ماذا عن نادية؟

أبطأ عمر في المشيّ إلى أن وصل إلى السور فجلس في بقعته المعتادة. ماذا عن نادية الغالية والعزيزة؟ أخبره أصدقاؤه بأن المنتسبين يحصلون على إجازة ليوم واحد كل ثلاثة أشهر، هل ستستطيع تحمّل غيابه عنها طيلة تلك المدة؟ هل ستتمكن من تدبر وظائفها المدرسية دون مساعدة منه؟ قطعت نادية شوطًا طويلًا، فهي ذكية، تراقب، تتعلم، طيبة و... جميلة. لو لم ينشغل بما حلّ به من غضب هذا المساء لقال لها كم بدت جميلة في هذه الليلة، جميلة جدًا، جدًا. كان شعرها المتحرر من ضفائره المعهودة يصل إلى أسفل ظهرها، وبشرتها التي تمزج الشاي بالحليب متوهجة ومتناغمة بألق مع قميصها الأصفر الملتصق بجسدها.

اللعنة، ما هذا؟! أين شطح به التفكير؟!

فرك عنقه، المدرسة، لقد كان يفكر في نادية والدراسة. لن يكون وجود شريف مجديًا لأنه لا يحفل بأخته كثيرًا، ربما يبادر في غيابه إلى تحمل المسؤولية؟ قد يصبح أكثر حرصًا وحبًا لتقديم المساعدة؟ غير محتمل، فشريف لم يبد أي اهتمام بدراسة نادية إلا عندما يكون لها علاقة بسميرة.

كيف يمكنه تحذير نادية من سميرة؟ براءة نادية تمنعها من رؤية لون صديقتها الحقيقي، ولهذا يجب عليه أن ينصحها بعدم قضاء وقت طويل مع تلك الفتاة المنفلتة. لن يكون مضطرًا إلى شرح السبب فنادية لن تجادله لأنها تثق به، إنها تثق به دائمًا. لعن نفسه لأنه لم يقل لها قبل خروجه كم كانت جميلة، فلا بد من تذكير فتاة غريرة مثل نادية بجمالها. يجب أن تعتاد على سماع ذلك في البيت حتى لا تنقلب رأسًا على عقب عند سماعه من أول انتهازيّ وضيع، ما احتمالات حصول ذلك؟

تكوّرت يداه وانشدّت قبضتاه، ثم أرخى أصابعه وخللهما في شعره. سحقًا! يجب أن ينتبه شريف إلى الطريقة التي ينساق بها وراء سميرة، إن لديه أربع أخوات، ألا يدرك أن ما يفعله بأخوات الآخرين يرتدّ عليه كما ينقلب السحر على الساحر؟! عدد كبير من الشجارات في الحي تتعلق بهذا الأمر، لكن شريف كان دائمًا متفرجًا، لم يتعب نفسه أبدًا في توسيخ يديه، لم يتعلم هذا الدرس. كل

شباب الحي يعرفون أن عمر لا يحمل الصفة الرسمية كشقيق لنادية، لكنهم يبقون أعينهم يقظة عليها احترامًا له. عندما تجرأ أحمق من حي آخر على ملاحقة نادية، وهي في طريق العودة من المدرسة، عمد فتيان الحيّ إلى تنبيهه، تنبيهه هو وليس شريف، كي يضع حدًا لذلك الفتى البذيء. بعد عراكه معه، ابتعدت تلك الحثالة عن طريق نادية. من سيبقي عينًا ساهرة على نادية لحظة ذهابه؟

تنهد عميقًا وأغلق عينيه، سنتان، وقت طويل بعيدًا عن العائلة، طويل جدًا بعيدًا عن الغالية نادية. إنها ستبلغ الثامنة عشرة عند تخرجه، من سيقول لها حينئذ إنها جميلة؟

انفتحت عيناه بفزع، اللعنة، ما الذي دهاه؟ لماذا يفكر بنادية على هذا النحو الملتوي؟ إنهما لا يمتان لبعضهما بصلة من الدم، فنادية ليست بشقيقته من أمه أو أبيه، لكنه مثل فاطمة، نشأ وترعرع وهو يفكر فيها على هذا النحو. ما الذي يجري له؟ لماذا الآن وعلى هذا النحو المفاجئ؟ أيّ شخص منحرف هو؟ وثب على قدميه وتوجه صوب الدرج. ليكن الله في عونه، إنه صاحب عقل مريض ويستحق أن يقذف به تحت عجلات دبابة بسبب أفكاره الزائغة تلك. من الأجدى له النجاح في ذلك الفحص.

مرّ شهر قضاه عمر وهو يتدرب في الشوارع مبتكرًا طرقًا لرفع مستوى لياقته البدنية بمساعدة من صديقه مروان. لكنه عانى على مر تلك الليالي من الأرق والسهاد. كان يدفن رأسه تحت وسادته محاولًا تجاهل رقود نادية على الجانب الآخر من البطانية التي تفصل جنبي الغرفة. لكن أي تنهيد، أو تقلّب في الفراش، أو حركة بسيطة فوق الأغطية كانت تهزّ أعصابه، تدفعه إلى ترديد خطابات الزعيم عبد الناصر في سره، خطابات كان يحفظها عن ظهر قلب. وعندما يفشل ذلك في صرف انتباهه، كان يتلو كل ما يحفظه من آيات القرآن شاعرًا بأنه كمن تفتح له بوابات جهنم لتبتلعه داخلها.

ظهيرة أحد أيام الجمع، وحال رجوع الرجال من الصلاة، أخبر عمر الجميع بقبوله في الكلية الحربية ونجاحه في الفحص البدنيّ. لم يحدث أي شيء حسبما تصوره، استولت على فاطمة نوبة من الجنون، وبدرت منها تصرفات لم يشهدها عمر في حياته. صرخت فيه واتهمته بأنه لم يحفل بمشاعرها، وبأنه رمى مستقبلًا كدحت طويلًا وهي تخططه له.

وبّخ العم مصطفى فاطمة على تجاهلها توقد مشاعر عمر الوطنيّة، وربت على ظهره ثم أجلسه، وسأله عن تفاصيل موعد التحاقه بالكلية، وما سيخضع له من تدريب وما يحتاج إليه كي يبدأ. زعم شريف بأن والده لن يسمح له

بالانضمام إلى الكلية ولهذا فإنه لن يحاول ذلك أصلًا. ارتسمت إمارات الخيبة على وجه ماما صبحية، ثم هزّت رأسها وانسحبت إلى غرفتها. بكت الصغيرتان وتساءلتا عن سبب اضطراره للذهاب، ثم ترجّتاه أن يبقى. هدى هي الوحيدة التي تصرفت حسب توقعاته، قذفته بابتسامة شريرة وذهبت.

جاءته نادية ودسّت ذراعها في ذراعه قائلة: «دعنا نذهب ونتكلم.»

سحب عمر ذراعه لحظة خروجهما من باب الشقة. سبقته نادية في المشي متجهة صوب السطح، لكنه اقترح عليها الذهاب للتمشي عوض ذلك. لما وصلا الشارع، قادها إلى الساحة المفتوحة التي أخذ فاطمة إليها سابقًا. مشيا بصمت عبر الطرقات الخالية بمحلاتها المغلقة.

كسرت نادية الصمت:

- كم مضى من الوقت وأنت تخطط لهذا؟

- منذ مدّة، لكن كل شيء حصل بسرعة.

ألحّت عليه:

- كم من الوقت يا عمر؟

- شهر تقريبا.

- منذ زيارة وليد الأولى!

- قبل بضعة أيام على ذلك.

توقفت ومالت برأسها جانبًا:

- هل هذا سبب تصرفاتك الغريبة جدًا في الآونة الأخيرة؟ قضاؤك وقتًا طويلًا في المسجد، وانعزالك لدى عودتك إلى البيت؟

ظلّ عمر صامتًا، فما الذي يستطيع قوله؟ كان يشعر بالقرف من نفسه، فكلما بذل جهدا أكبر في عدم التفكير بنادية، حمله عقله المريض إليها أكثر. كانت صورة لجسدها المتناسق منطبعة في ذهنه، تعذبه، تثير فيه الإغواء، وتخلطه بالخزي والاشمئزاز في آن واحد. كان مثل اللصّ عندما يسمع دويّ سيارة الشرطة، يتوقف قلبه نبضة في كل مرة يسمع فيها صوتها أو يراها آتية صوبه. وحين بذل أقصى ما يستطيعه من جهد كي يتجنبها خلال الشهر الماضي، غرق في البؤس أكثر فأكثر. لم يستطع البوح حتى لمروان، صديقه الحميم والوحيد، فهل من كلمات تصلح للتعبير عن زيغ عقله المريض؟ بات يتحرّق لحلول موعد الفحص البدنيّ، وتحوّل غرضه النبيل من الالتحاق بالجيش إلى دافع منحرف يسيطر عليه مثل أسير ذليل، لم يستطع الفكاك منه. دعا بشدة كي يتحرر منه، حقًّا بشدة.

تحسست نادية بأناملها الرقيقة ما يطلّ من ياقتها المفتوحة:

- لو أخبرتني لكنت احتفظت بالأمر سرًا.

تتبع عمر أصابعها بعينيه وهو يشعر بأن مصيره إلى جهنم لا محالة.

تابعت نادية القول:

- كيف قبلوا طلبك دون موافقة من الأب؟ شريف قال إنه لم يستطع فعل ذلك بنفسه.

ساحبًا نفسًا عميقًا، لمسّ مرفقها ولكزها كي تستأنف المشي:

- أنا لست مثل شريف.

- بل أنت أصغر منه عمرًا.

- شريف ابن وحيد، لهذا هو معفى من الخدمة العسكرية إلا إن قبل والده بخلاف ذلك.

- لا أفهم.

- الجيش لا يستطيع أخذ الابن الوحيد في عائلته، إنه القانون. أما اليتيم فهو تحت وصاية المحكمة، لم أكن بحاجة إلا لورقة موقعة من أحد القضاة. الأمر سهل لأن الحكومة تشجعنا نحن الأيتام على الانضمام للجيش.

توقفت نادية ثانية، ووضعت يدها فوق صدره كما تفعل دائمًا عندما تريد جذب انتباهه:

- أنت لديك عائلة، نحن عائلتك.

تقهقر عمر مغمغمًا:

- إنني لست شقيقك.

- دعك من هذا الجنون فأنت تعرف أننا نعتبرك واحدًا منا.

زحفت حرارة إلى عنقه، خفق قلبه بشدة، طنّت أذناه ثم هزّ رأسه:

- قانونيًا، أنا لست كذلك.

- وهل لهذا أي أهمية؟! مجرد قاض يسمح لك برميّ نفسك هكذا وأنت تظنّ أن ما من أحد سيهتم لذلك؟!

ثار غضبًا:

- أرمي نفسي هكذا؟! الانضمام إلى الجيش هو واجب بالنسبة لي، خطوة نحو تحرير فلسطين.

حاول السيطرة على فورة غضبه، وخفض صوته:

- كما أن قادة الجيش لا يهمهم إلا أن يكون انضمامي قد جرى بشكل قانوني فأنا مجرد رقم في ملفاتهم.

اقتربت نادية منه فعلق كعبها بين بلاط الرصيف، فقدت توازنها وهوت

نحوه:

- **أنا** أهتم.

تلقفها عمر مطوقًا خصرها بذراعيه. أوقفها على قدميها، ثم أطلقها على الفور كما لو كانت جمرًا ملتهبًا، كاد أن يدفعها بشدة أثناء ذلك. مشى بخطى واسعة وتخطّاها مخفيًا وجهه الذي التهمته النيران، ثم هتف من فوق كتفه:

- الأمر نهائي، لا مجال للتراجع.

لحقت به وهي تتفحص بيدها الشريط الذي تربط به جديلتها:

- متى يحين موعد ذهابك؟

- منحوني خمسة عشر يوما كي أجهز نفسي.

- وماذا ستعمل بعد التخرج؟

- سأصبح ضابطًا، إنها وظيفة جيدة.

أشار إلى قدميها:

- انتبهي، ستتعثرين ثانية.

- يجب أن تكون معلمًا لا جنديًا.

ردّ عليها مصححًا:

- ضابطًا.

لوحت بيدها:

- لا أرى فرقًا.

- الضابط يقود وحدة، ويدرّب جنودًا.

ألقى صوبها بنظرة خاطفة:

- بعض الأحلام يفترض أن تبقى أحلامًا وحسب، لا شيء زيادة على ذلك.

وصلا الساحة فهبطت نادية فوق المقعد وراحت تنفث أنفاسها بإحباط واضح. لفّت ساقًا فوق ساق، ثم طوت ذراعيها بحدة فوق صدرها:

- لا يعجبني هذا الأمر.

ظل عمر واقفًا:

- لا يعجبك أن أصنع مستقبلًا لنفسي؟

- أعرف أنني أبدو أنانية لكنك لن تعيش معنا بعد الآن، وفاطمة ستتزوج وتترك البيت هي الأخرى، سأكون وحيدة.

أتلك دموع تتلألأ في عينيها؟ جلس عمر بقربها، ثم أسند مرفقيه فوق ركبتيه وثبّت نظره إلى الأمام:

- لديك أخواتك وشريف، إنه لن يذهب إلى أيّ مكان.

- هدى تكرهني، فرح وسلمى صغيرات جدًا وليس في وسعهما فهمي

وشريف... إنه ليس مثلك.

- لديك والداكِ، لن تكوني وحيدة. كما أنني سأزوركم مرة كل ثلاثة أشهر. أريدك منك الحصول على علامات جيدة.

- من سيساعدني على أداء واجباتي المدرسية؟

مال إلى الوراء ملتقطاً اللحظة المناسبة لقول ما يعتمل في ذهنه، ثم حقن صوته بأقصى جرعة ممكنة من السلطة:

- أي أحد سوى سميرة.

أزاحت مقدمة شعرها عن عينيها:

- أهي كل ما يستولي على تفكيرك الآن؟!

مالت مقتربة منه فانسابت ضفيرتها الطويلة فوق كتفها:

- أنت تعرف أن شريف مفتون بها، إن ذهبت سيحملها على نسيانك.

تفحّص عمر يديه:

- لم أعد مهتمًا بأمر سميرة.

- بسبب شريف؟ لا تكن أحمق، إنها لا تكف عن الحديث عنك.

- لا ينبغي لك قضاء كثير من الوقت معها.

- لماذا؟

أخذ نفسًا عميقا وتفحّص وجه نادية، كان دانيًا، ناعمًا وواثقًا به:

- صحبتها غير جيدة.

سحبت نادية نفسها إلى الوراء، ورفعت حاجبيها ثم حدّقت فيه وهي تعضّ على شفتها السفلى.

أبعد عينيه من عينيها، كان عليه أن يطلب من فاطمة أن توضح لها هذا الأمر، ألا تتحدث الفتيات فيما بينهن في أمور كهذه؟

- عمر؟!

لم يقابلها بالنظر.

- لقد حذرتك بشأن إخوتها.

- لم أفعل أي شيء.

- إذن فسر لي كيف اكتشفت أن صحبتها غير جيدة.

- ليس مهمًا كيف اكتشفت ذلك، هل تثقين بي؟

- بالطبع أثق بك.

تركت المقعد:

- يجب أن تقلق على شريف، لا عليّ.

انضم إليها، ولكز مرفقها كي يمضيا إلى البيت:

- شريف قادر على الاعتناء بنفسه.

دسّت ذراعها تحت ذراعه:

- لا ألومكما، سميرة حقًا جميلة.

ضم ذراعها إلى جنبه سامحًا لنفسه بلحظة عابرة من المتعة، ثم فكّ التحام ذراعيهما وربت على يدها قبل إطلاقها:

- إنها ليست في مثل جمالك.

# 11

لم يكن لدى عمر سوى خمسة عشر يومًا لترتيب الأمور قبل رهن مصيره بالكلية الحربية. تحت إلحاح من وليد وإصرار من العم مصطفى وقبول من فاطمة، حدد عمر تاريخ التوقيع على عقد زواجها ليوافق آخر خميس قبل التحاقه بالكلية. أعدّ نفسه جيدًا هذه المرة؛ سأل العم مصطفى، بعض أصدقائه، آباءهم وإمام الجامع عمّا هو متوقع منه، وكيف يتصرف بصفته وليّ أمر فاطمة الوحيد. كان يأمل في أن يثير تحمّله لهذه المسؤولية إعجاب أخته، وأن يرقق قلبها، ويحثها على التخلي عن غضبها تجاه خطته المزمعة.

اصطحب وليد معه إلى تلك الجلسة المهمة المقصورة على الرجال: كبار عائلته، الثقاة من جيرانه والمحترمين من معارفه. مرة أخرى، كان عمر هو الشخصية المحورية التي توجّه لها عم وليد الأكبر بطلب يد فاطمة رسميًا. أنصت عمر إلى شهادة الرجال، الواحد تلو الآخر، وتزكيتهم لوليد. لم يكن بحاجة إلى إقناع، فقد سأل هو والعم مصطفى عن وليد في الأماكن التي أخبرهما عنها، ثم ولمزيد من الإطمئنان تحرّيا عنه من مصادر أخرى. لم يكن لديه أي شك في أن وليد سيحسن معاملة أخته.

بحسب التقاليد والأعراف، سأل عمُّ وليد الأكبر عمر عن المهر المطلوب من ابن أخيه، فحددّ عمر مبلغًا متواضعًا قدره ليرة «عصمليّة» من الذهب. كان قد اتفق مع وليد على ذلك خلال إحدى زياراته. فتح وليد صندوق مجوهرات صغير ومرره بين الرجال ليشهدوا على وصوله إلى يد عمر.

استرق عمر النظر إلى ساعته، وانتابه القلق من عدم وصول كاتب المحكمة لتسجيل عقد الزواج. وعندما وصل أخيرًا، ألقى كاتب المحكمة فيهم محاضرة مطوّلة عن حرمة الزواج، مذكرًا العريس بمسؤولياته وواجباته تجاه زوجه. في منتصف حديثه المرعب، خيل لعمر أن وليد سيهبّ من مقعده ويفرّ من الباب. وكما لو أن الموقف لم يكن عصيبًا بما يكفي على وليد المسكين، أطنب الكاتب في تعداد كل تحذير يخطر في البال بشأن الزواج مستشهدًا بالقرآن والأحاديث. مظهرًا الصبر والجلد، أنصت وليد وهو يؤمّن على الكلام برأسه بين الفينة والأخرى.

طلب كاتب المحكمة أن يكلم العروس شخصيًا وعلى انفراد.

اقتاده عمر إلى غرفة ماما صبحية حيث كانت النساء. فتح الباب، زحمت ماما صبحية وأم وليد مدخله، أخرجتا فاطمة إلى الممر وأبقتا على الباب مشقوقًا. كانت فاطمة في فستان زهريّ ناعم، ووجنتاها الرقيقتان تصطبغان بلون ورديّ، شفتاها ملونتان بدرجة أغمق قليلًا وفوق جفنيها شيء جعل عينيها العسليتين تبدوان أوسع. لم يرَ عمر أخته مزينة بمستحضرات التجميل من قبل، منحها ابتسامة حنون، ثم تنحى جانبًا فاسحًا المجال أمام الكاتب ليتحدث معها على شيء من الانفراد.

سألها كاتب المحكمة:

- هل أنتِ فاطمة بكري؟

ناولته فاطمة بطاقة الهوية:

- أجل.

- هل تؤكدين لي كم تبلغين من العمر؟

- أربع وعشرون سنة.

- هل تقبلين بالزواج من وليد نجاد الذي يبلغ اثنتين وثلاثين سنة؟

أومأت فاطمة.

- لا بد لي من سماع الكلمات، ارجوكِ. قولي يا ابنتي، لا تخافي.

بدر صوتها خافتًا ولكن واضحًا أيضًا:

- نعم، أقبل.

- بمطلق إرادتك؟ هل أنت مجبرة بأي شكل من الأشكال؟

هزّت فاطمة رأسها:

- لست مجبرة.

- هل استلمتِ مهرك البالغ قدره ليرة «عصمليّة» ذهبية؟

اقترب عمر، سلّم صندوق المجوهرات الصغير وبداخله الليرة الذهبية التي يزينها إطار لتعلّق، وتلبس كقلادة ثم رجع إلى حيث كان، بضع خطوات خلف الكاتب.

تفحّص الكاتب القطعة الذهبية، ثم أعطاها لفاطمة وسجّل مواصفاتها في كتابه:

- هل لديكِ أي شروط على هذا الزواج يا ابنتي؟

حوّلت فاطمة بصرها نحو عمر، رفعت حاجبيها والحيرة تعتريها بجلاء.

كان عمر قد سمع بأن بعض العائلات تشترط قيودًا على مكان السكن، أو غيرها من قضايا تافهة في عقود الزواج. لم يرَ من داع لتعقيد الأمور، هزّ رأسه

بالنفي.

ردت فاطمة:

- ليس لديّ شروط.

قال الكاتب:

- على بركة الله إذًا، أين الشاهدان؟ يجب ألاّ يمتّا بصلة قرابة لأيّ من الطرفين.

نادى عمر على وليد ليحضر اثنين من جيرانه، قدّما بطاقتيّ هويتهما، وشهدا على توقيع فاطمة عقد الزواج، تبعهما عمر وأخيرًا وليد، مهرا العقد بتوقيعهما في الختام.

وضعت النساء أيديهن فوق أفواههن وأطلقن الزغاريد، تعالت صيحات الفرح في أرجاء البيت وكان صوت أم وليد الأعلى والأشد حبورًا. تقاطرت صواني الكنافة من باب المطبخ، كنافة نابلسية أصليّة ينزّ منها «القطر» صنعت تحت إشراف دقيق من أم وليد، وقدّمها للضيوف أصدقاء عمر في الحي الذين وزّعوا الصحون إلى جانب القهوة العربية «السادة» والمغليّة بكثير من حبّ الهال. انتهت الجلسة بتحديد موعد الزواج ليوافق يوم عودة عمر من الكلية في أول إجازة له بعد ثلاثة أشهر.

أحسّ عمر بأنه كبر عشرين سنة خلال بضع ساعات. صافح كل رجل وهو في طريقه إلى الباب، شكر أصدقاءه على وقتهم ووعدهم بردّ الجميل. لكزه العم مصطفى كي يدعو وليد للبقاء.

ما إن أغلق الباب وراء آخر الضيوف حتى خرجت أم وليد من غرفة النوم، هرعت لعناق ابنها وهي تبكي، وتضحك في آن واحد، ولسانها يتأرجح بسرعة البرق مثل بندول الساعة مطنطًا بصيحات الفرح التقليدية. قبّل وليد كفّ أمه ومسّ بها جبينه، ثم عاود الكرّة مرتين طالبًا منها أن تباركه وعروسه.

راقب عمر من الزاوية التي يقف فيها، وقد سمرته موجة من الغيرة في مكانه، يدُ من تلك التي سيمسّ بها جبينه عندما يحلّ الدور عليه! مسحت ماما صبحية عينيها، فأخفى منديلها المطرّز نصف وجهها. وقفت وهي مشرئبة الرأس، مرفوعة الهامة، رغم دفقات الدمع المتقطعة، وقفة أم فخورة.

دخلت الفتيات الغرفة، رفرفت نادية مثل الطائر الطنان حول فاطمة مغردة ومطنبة في إطراء فستانها، قهقت الصغيرتان من ورائهما بفرح، وتخلفت هدى عنهن خطوتين إلى الوراء بوجه كالح. توجهت فاطمة نحو ماما صبحية، حملت كفّها، قبّلته ومسّت به جبينها محاكية وليد فيما سبقها إلى فعله.

«الله يرضى عليكِ،» ظلت ماما صبحية تردد المرّة تلو الأخرى.

اغرورقت عينا عمر بالدموع، لفّ رأسه في مواجهة الحائط. هذا لا يصدق! لقد زوّج أخته للتو وأبدى أقصى ما يستطيعه شخص في مثل سنه من رجولة، لم يوشك الآن بحق الجحيم على البكاء مثل الفتيات؟!

أسعفته مما هو فيه مبادرة العم مصطفى إلى اصطحابه مع شريف ووليد خارج البيت لإفساح المجال أمام احتفال النساء بحرية بقية ذلك المساء. أثناء نزولهم على الدرج، مرّوا بمن بدأن بالتوافد من جارات وصديقات وهن يحملن الهدايا، أطباق الطعام وباقات الورد.

دبّت الحيوية والنشاط في شريف، راح يقفز درجتين في كل خطوة ثم هتف من فوق كتفه: «أصدقائي ينتظرونني.»

مدّ عمر عنقه من فوق الدرابزين، رأى سميرة وسط لفيف من النسوة لدى عبورهن إلى البناية، خطت خطوتين جانبًا مفسحة الطريق لمن هنّ خلفها، ثم استدارت وخرجت إلى الشارع. لم يكن شريف بعيدًا من ورائها.

دسّ عمر نفسه في السرير بعد منتصف الليل مرهقًا ومجهدًا حتى النخاع. كان يشعر بالألم في ظهره ويديه من فرط دعك أرضية المطبخ. بعد الاحتفال، بذل الجميع جهدهم في التنظيف، ثم ذهبوا إلى النوم، لكن عمر تخلف عنهم مصرًّا على تنظيف المطبخ لأجل ماما صبحية. كانت البنات متعبات، ولم يرغب في أن تضطر فاطمة إلى قضاء أي وقت من تلك الليلة في التنظيف. كما كان بحاجة إلى متنفس، وما يساعده على الاستغراق في النوم لحظة وضع رأسه فوق الوسادة هربًا من الأفكار والتأملات.

أغلق عمر عينيه. بدت سعادة فاطمة حقيقية هذه الليلة وكانت متألقة بحق، حمدًا لله أن هدى أمسكت عن فعل ما كان يمكن أن يفسد فرحتها. بقيت له ليلة أخرى في هذه الغرفة، في هذا السرير، على مقربة من نادية. كلا، لن يسمح لفكره بالانجرار إلى هناك، لِمَ لم يستغرق بعد في النوم؟

شخر شريف من فوق سريره، قلب عمر نفسه إلى جنب، مواجهًا شريف ومولّيًا ظهره للستارة الفاصلة، ولشطر الفتيات من الغرفة. ارتخى جسده وبدأ النوم يتسلل إلى عينيه.

همست نادية من ورائه:

- فاطمة، لا أستطيع النوم ولا أصدق أن بمقدورك ذلك أيضًا. أتظنين أنهم نيامٌ؟

ردت فاطمة همسًا:

- لا أدري، لنرَ.

نادت على هدى، فلم يأتها ردّ. نادت على شريف، فتواصل شخيره بلا

انقطاع.

نادت نادية على عمر. رفّ جفناه، انفتحت عيناه ولسبب ملتوٍ ظل صامتًا بلا حراك.

صوت فاطمة ظلّ خافتًا:

- إنهم نيامٌ، أما زلت تفكرين بالحفلة؟

- لا أصدق أنك أصبحت متزوجة.

- ليس إلا بعد ثلاثة أشهر.

علا صوت نادية درجة:

- لكن بحسب الشرع، أنت كذلك. لست مضطرة لانتظار الزواج كي تذهبي مع وليد، أليس كذلك؟

- أريد عرسًا وفستانًا أبيض وطرحة شفافة وقالبًا من الكعك. لم أفكر بكل هذا من قبل ولكني أشعر الآن أنها مهمة، هل تحلمين أنت أيضًا بذلك؟

كركرت نادية بضحكات خافتة:

- أحلم بها أحيانًا، عرسي سيتحدث عنه القاصي والداني، ورود بيضاء في كل مكان، ليس من أي لون آخر، فقط ورود بيضاء. وبدل الطرحة الشفافة، سأرتدي قبعة مصنوعة من الورود.

- قبعة؟

- حسنًا، ربما ليس قبعة، لنقل تاجًا، والفستان... عارٍ بلا أكمام.

علا صوت لطمة ثم ضحك مكتوم.

تمنى عمر لو كان بإمكانه سدّ أذنيه، وضع وسادة أو ما شابه فوق رأسه. ظلّ على جنبه خائفًا من الإتيان بحركة. وبينما استغرقت نادية في الوصف، كانت فاطمة تعلّق بشيء سخيف بين الفينة والأخرى. تبادلتا الأدوار، وصفت فاطمة العرس الذي تحلم به. كان خجلًا إلى أبعد حد من استراق السمع، لكن لم يكن لديه من خيار آخر. لم يشأ فعل أو قول ما من شأنه قطع حديث الفتاتين، وبمرور الوقت، هدهده همسهما وأوصله إلى شفير النوم.

- وفي هذا الحلم، هل ترين عريسًا محددًا؟

- أجل.

انسلّ نعاس عمر من جسده، ووثب من النافذة.

قالت فاطمة بلهفة:

- أخبريني من يكون.

اعترى صوت نادية شيء من القلق:

- هل أنت متأكدة من أنهم نيام؟

ردت فاطمة بعجلة:

- أجل، أجل. هم كذلك. من صاحب الحظّ السعيد؟

- أحد أصدقاء عمر ممن ساعدوا على تقديم الضيافة خلال هذه الليلة. لا أعرف اسمه، لكنه كان من أوائل من حضر منهم، إنه لطيف للغاية، جذب انتباهي على الفور.

- صفيهِ لي؟

- له طول شريف تقريبًا، أسمر، شعره أسود مسترسل ومفروق إلى جنب، وعيناه... رموشه طويلة ومعقوفة.

استعرض ذهن عمر وجوه أصدقائه الواحد تلو الآخر، استطلعها بحثًا عن رموش طويلة ومعقوفة، تفصيلة لم يكن قادرًا حتى على تخيّلها. أيّهم هو؟

تابعت نادية القول:

- بينما كنا نعمل معًا في المطبخ، تجاذبنا أطراف الحديث. لن تصدقي أبدًا يا فاطمة، كان مولعًا مثلي بقراءة سلسلة «المغامرين الخمسة»!

حبس عمر أنفاسه. مروان، مروان برادي اللعين.

# 12

كانت مغادرة الكلية الحربية ليوم واحد في أول إجازة لعمر أكثر تعقيدًا مما تخيله، فبعد لهاثه وراء التوقيعات اللازمة والأختام المتعددة، كان نصف النهار قد انقضى. لدى وصوله البيت في وقت متأخر، وجد عمر نفسه بلا مهمة محددة بعد انتهاء كل الترتيبات الخاصة بالعرس. سطح بنايتهم تحول إلى قاعة زفاف، وباقات الزهور الملونة شكّلت خلفية جميلة لـ «اللوج» الذي جلس فوقه العروسان، حبال الزينة المتشابكة مع حبال الغسيل تلألأت بالأنوار من فوق رأسيهما، والفرقة الموسيقية التي تحتل إحدى الزوايا حملت الضيوف على التمايل بطرب في حلبة الرقص وبين الكراسي. أنفق وليد كما يبدو بسخاء على حفل الزفاف.

ألقى العم مصطفى بتوجيهات إلى عمر تقضي بجلوسه في زاوية، والامتناع عن التبسّم خلال الحفل.

- هل أنت جاد فيما تقول؟ لماذا تريديني ألاّ ابتسم؟

ردّ العم مصطفى بنبرة غاضبة:

- أتريد أن تبدو سعيدًا لفراق أختك أمام عائلة وليد؟! يجب أن يفهموا بأن وراء فاطمة عائلة قوية تقوم بالواجب في حال إساءتهم لها بأي شكل من الأشكال.

انصاع عمر لتلك التوجيهات إكرامًا للعم مصطفى، ولكلّ من ينزلون التقاليد القديمة أرفع مقام. أما على مستواه الشخصيّ، فلم يكن بحاجة إلى توجيه أيّ رسائل مبطنة لأنه حذّر وليد مسبقًا وبصريح العبارة عندما وضع يد فاطمة في يده قائلاً: «قم بالإساءة إلى أختي وليكن في معلومك أني سأفسد حياة كل فرد من أفراد عائلتك.»

من الزاوية التي جلس فيها، صرف عمر وقته في مراقبة الحاضرين. لاحظ أمورًا كان في غنى عن ملاحظتها، أمورًا ما كانت لتكدّره لو انشغل بالتنقل بين أصدقائه. هزال العم مصطفى الذي بدا كالشبح، مثلًا. كان يتحرك مثل رجل في السبعين، لا في أواخر الأربعين، مجرجرًا رجليه المقوّستين وظهره المحنيّ وهو يسعل في منديل مع كل نفس يطلقه تقريبًا. أمر جيد أن فاطمة لم تكن بحاجة

إلى مخصصاته المالية، إرسالها إلى العم مصطفى كان أصوب.

وقعت عينا عمر المتجولتان على نادية، أجبر نفسه على أن يحولهما صوب ماما صبحية. كانت تجلس في ركن من القاعة وهي تتجاذب أطراف الحديث مع مجموعة من النساء. إنها في ثوبها الفلاحي الأسود المطرز بالأحمر أشد بروزًا من أم وليد التي تجلس بقربها في فستان رماديّ. لم ير عمر أم وليد إلا في مرات قليلة، ولكن لون ما كانت ترتديه كان يقتصر دائمًا على درجة من درجات الرمادي، وفستانها هذا بضع درجات أفتح، ولكنه رماديّ على أي حال.

وجدت عيناه طريقهما ثانية إلى نادية، حنى رأسه وخفض بصره إلى الأرض. لا ترفع عينيك، صوت في رأسه علا آمرًا. تردد صدى ضحكة من القلب، فارتفع رأسه على الفور. كانت نادية متألقة في فستان عاجيّ بسيط، وشعرها يتكوم في تسريحة كالبرج فوق رأسها، جعلها تبدو أطول وأكبرعمرًا وأكثر نضجًا. كانت تتمايل فوق حلبة الرقص بحركات متزنة متحفظة، ويدها تتفقد سلامة تسريحتها بين الفينة والأخرى. محاطة بجمع من صديقاتها، مسحت الحضور بعينين متقدتين بحيوية وشغف وعندما استقرّتا احمرّ وجهها. اقتفى عمر بصرها.

التقت عيناه بعيني مروان برادي. رفع مروان يده إلى جبينه، مسلمًا على عمر بتحية عسكريّة مشدودة. ردّ عمر بإيماءة مقتضبة، ولو رمش مروان لما التقطها.

شقّ مروان طريقه وسط الضيوف ثم سحب كرسيًا بحذاء عمر قائلًا:

- تهانينا يا صديقي.

اعتدل عمر فوق كرسيه:

- شكرًا لك.

- أنت محظوظ، بات لديك الآن صهر محترم بوظيفة معلم.

- صحيح.

- ما أخبار بطلنا القوميّ عبد الناصر؟ أراهن على أنك حصلت على كثير من المعلومات الداخلية في الكلية الحربية.

- تهديدات عبد الناصر بمنع السفن الإسرائيلية من المرور عبر مضيق تيران ستجرنا على الأغلب إلى الحرب.

- الأخبار صحيحة إذًا؟ ناصر لن يتنازل عن هذا المطلب.

حاول عمر ألا يتكلم كأستاذ مدرسة، ولكنه رحب في تلك اللحظة بحديث يلهيه عما يشغل باله:

- الممرّ المائيّ الضيق بين سيناء والجزيرة العربية بالغ الأهمية. إذا قرر الإسرائيليون ضرب سيناء، فسننضم إلى المصريين لردّ العدوان. وهذا ما يمهد

الطريق إلى فلسطين، لاسترداد ما ضاع منا.

- سمعت أن السوفيات أرسلوا لنا أسلحة ودبابات، أأنتم جاهزون للحرب؟

نظر عمر في عينيّ صديقه:

- بوسعك المراهنة على ذلك.

مدّ مروان يده:

- أعتقد أنكم كنتم دومًا كذلك.

صافح عمر مروان بقوة:

- أشكرك على ثقتك.

- افتقدناك هنا.

- هل من مشاكل؟

أشار مروان برأسه صوب شابين يستندان إلى حائط في الخلفية:

- لا شيء يستحق الذكر، صاحب ربطة العنق الزرقاء أتى على ذكر نادية أمام ابن عمي.

ركز عمر على صاحب الربطة الزرقاء:

- ثمّ؟

عقد مروان يديه فوق صدره:

- لنقل إنه لم يعد يجرؤ على ذكر اسمها ثانية. لا تقلق، كما وعدتك سأقوم بالواجب في غيابك.

يبدو أن خطته تسير وفق ما يريد. بعد معرفته بافتتان نادية بصديقه الحميم، طلب منه أن يُبقي عينه عليها في غيابه. ملزمًا بميثاق غير منطوق، سيضطر مروان إلى الإبقاء على مسافة محترمة بينه وبينها، كي يكون على قدر الثقة التي أولاه إياها عمر. على الأقل، اختارت نادية رجلًا محترمًا، حاول عمر مواساة نفسه.

حقن عمر صوته بأكبر جرعة ممكنة من الثقة:

- أنا متأكد من أن بإمكاني الاعتماد عليك.

تلعثم مروان قليلًا وبدا مترددًا في نطق ما يريد قوله:

- لا أريد تعكير مزاجك فيما يتعلق بشريف ولكن لا بدّ من فعل شيء.

- الفتاة نفسها؟

- سمعت أن أحد أشقائها نصب له كمينًا في الحرم الجامعي، وحذّره من الاقتراب منها. جرى الأمر طبعًا بتكتم شديد، واعتقد الجميع أنهما تعاركا بشأن نقود لكني أعرف القصة بحذافيرها.

هزّ عمر رأسه:

- أحمق.

أبصر عمرُ شريف متواريًا في زاوية مع ثلاثة شباب لا يعرفهم:

- من هؤلاء؟

- أصدقاء جدد من الجامعة، فيما أظن.

مال مروان مقتربًا وهمس في أذن عمر:

- أعتقد أنه لا بد لك من إبلاغ والده عند هذا الحد.

عبس عمر:

- الأمور بهذا السوء؟

- كل ما أستطيع قوله إنه ربما بات عليك ترتيب عرس آخر في القريب العاجل.

سحب نفسه، واعتدل في جلسته:

- وقبل فوات الأوان.

عينا عمر تصوبتا نحو شريف من جديد، أيعقل هذا؟! يا له من أحمق لعين! تقلصت عضلات ذراعيه غضبًا:

- ما مصادرك؟

- أختي الكبيرة، إنها صديقة زوجة شقيق الفتاة الأكبر. النساء يبقين على الأمر سرًا حتى الآن، أختي تعلم بأني معنيّ بـ... سمعة عائلتك، لهذا أخبرتني.

- أأنت متأكد؟

طأطأ مروان رأسه حتى لمس صدره بذقنه:

- لو كنت مكانك لاستفسرت من هدى.

- تبًا! وصلت الأمور إلى هذا الحد؟

- أنا متأسف يا رجل، لن أتفوه بكلمة أخرى. ليسامحني الله لأني أثرت موضوعًا كهذا، عندي أخوات شابات أنا الآخر.

نهض مروان من مقعده:

- لن تتردد في طلب أي شيء مني، أليس كذلك؟

هزّ عمر يد صديقه مصافحًا. آخر ما يودّ فعله في هذه الدنيا هو الحديث مع هدى في أمر بتلك الحساسية، التكلّم مع هدى، نقطة آخر السطر. حتى تلك اللحظة، تمكن من تجنبها، لكنه نظر إليها فرآها جالسة بين النساء، بدت مقهورة للناظر الجاهل ببواطن الأمور، فكانت تتصنع هيئة الأخت الحزينة على فراق أختها، عمر لا يغترّ بهذا.

انصبّ صوت نادية تغريدًا في أذنيه:

- الأمر ليس بهذا السوء.

خلال تركيز عمر على هدى، لم يشعر بوصول نادية إلى جانبه. احتلت الكرسي الذي جلس عليه مروان وتابعت القول:

- فاطمة ستسكن في آخر الشارع ليس إلا.

حبس عمر أنفاسه لبضع ثوان فقد حرّك ما تتعطر به نقطة عميقة في داخله، ثم تنفس من جديد متمتمًا:

- أدري.

- يمكنك أن تبتسم لا مشكلة في ذلك، فقط لا تكشف عن أسنانك.

مطّ شفتيه وهما منطبقتان بابتسامة عريضة.

قهقهت نادية:

- غيّرت رأيي، لا تبتسم. تبدو سخيفًا، خاصة وأنت بلا شعر.

مالت برأسها جانبًا وأطلّ من عينيها اشتياق دافئ مغلّف بالحزن:

- افتقدتك.

مرر عمر يده فوق رأسه الحليق:

- افتقدت الجميع، توقعت أن أراكِ في البيت لدى وصولي.

- لقد تأخّرْتَ وكان علينا الذهاب إلى الصالون.

تحسست شعرها:

- هل تعجبك تسريحتي( الشنيون )؟

- إنها جدًا... جميلة.

- لم ترمني ولو بنظرة!

رماها بنظرة خاطفة ورفع حاجبيه:

- علاماتك؟

- تدهورت كثيرًا.

لكزته في ذراعه:

- أنت السبب.

- كم تدهورت؟

لكزته نادية بكتفها ثانية:

- ألا تسترخي قليلًا، أرجوك؟ علاماتي ليست سيئة هي فقط أقل مما كانت عليه.

وضعت كفها فوق صدرها وأدارت رأسها نحو الفرقة الموسيقية:

- آه، كم أحب هذه الأغنية! عبد الحليم مثل الحلم.

تنهدت وراحت تنصت لأغنية العندليب الأسمر التي كانت الفرقة تؤديها.

غبّ عمر ملء نفسه من جمالها مستغلًا انشغالها عنه. كيف كانت ستشعر لو أن المطرب المحبوب موجود في الحفل، يغني تلك الأغنية بدل الفرقة؟ ربما كان سيغشى عليها.

تمايلت نادية من جانب إلى جانب، هزّت كتفيها إلى أعلى وأسفل وفق الإيقاعات الموسيقية واحتكت بذراع عمر أثناء ذلك.

ليكن الله في عونه، يجب أن يتنحى بعيدًا عنها. تظاهر بإرجاع ظهره إلى الوراء كي يترك مسافة بينه وبينها.

غافلة عما يدور في ذهنه، مدّت نادية عنقها قرب وجهه محاولة استراق النظر من فرجة صغيرة بين شخصين سدّا مجال رؤيتها:

- ألا تبدو رائعة؟

تتبع نظرها إلى حيث كانت فاطمة تجلس وهي غارقة في طبقات فستانها الأبيض بجانب وليد:

- بكل تأكيد.

- ساعدتها على اختيار زينة وجهها.

استدارت نادية صوبه:

- هل يعجبك فستاني؟

- تبدين رائعة أنت الأخرى.

ترك عينيه تحدّق فيها ببله وأضاف:

- إنك دومًا كذلك.

احمرّت وجنتا نادية، ثم رمشت عيناها إلى اليسار منه فازدادت حمرة. دون أن يحوّل ناظريه عنها، أدرك عمر أنها تنظر نحو مروان في الزاوية البعيدة. أومأ برأسه صوب فاطمة:

- هل تظنين أنها سامحتني؟

- لحظة أن أوصد الباب من خلفك، دعت فاطمة لأجل سلامتك ونجاحك.

طبطبت نادية بأناملها الرقيقة فوق وجنتيها:

- أبكتنا جميعًا. عمر، الشاب الذي كنت تتكلم معه للتو، هل هو...

تلعثمت.

استجمع قوته لما سيضطر إلى سماعه:

- مروان برادي ؟ ماذا عنه؟

- إنه لا يدرس معك في الكلية، أليس كذلك؟ رأيته في حينا منذ تقديمه يد المساعدة في حفلة خطوبة فاطمة.

- مروان لديه تجارته الخاصة.

تشاغلت بالتقاط خيط وهميّ في حجرها:

- أين تعرفت عليه؟ شريف قال إنه لم يدرس معكما في المدرسة.

- والد مروان توفي عندما كان في الرابعة عشرة فاضطر إلى ترك المدرسة لمساعدة عمه على إدارة تجارة والده ورعاية أخواته. شريف لا يتذكره، على ما أعتقد.

- هل هو فلسطينيّ؟

- سوريّ.

بدأت رجله بالاهتزاز بشدة عاجزًا عن السيطرة على مشاعره المتفاقمة :

- ما الذي يجري يا نادية؟ هل فعل مروان ما يستوجب القلق مني؟ هل تجاوز أي حد من الحدود معك؟

احمرّت ثم غمغمت:

- آه، كلا. لا شيء من هذا القبيل.

لماذا ألحّ بهذه الطريقة؟ رغم أنه يعرف ردها مسبقًا. حاول التخفيف من حدة صوته لكنه أخفق:

- ما الأمر إذًا؟

بدأت نادية بالنهوض من كرسيها:

- غير مهم، انس الموضوع.

رفع يده بسرعة ليمسكها من ذراعها:

- ليس بهذه السرعة.

خفضت بصرها إليه بمقلتين دامعتين، يا للهول! إنه يكاد أن يحملها على البكاء. أطلق ذراعها وحثها على الجلوس:

- اجلسي، أرجوكِ.

هزّت رأسها. انتابه الهلع عندما باغتته نادية بوضع يديها فوق كتفيه وانحنائها فوقه لتهمس في أذنه:

- أعتقد أنه يشبه المخبر عاطف.

بحركة رشيقة واحدة، اعتدلت وانطلقت بسرعة نحو صديقاتها.

طرفت عينا عمر، ضغط يده بقوة فوق رجله كي يمنعها من الاهتزاز. من بين كلّ أبطال سلسلة «المغامرين الخمسة»، لم تشبّه مروان إلا بالمخبر عاطف؟ بالمغامر الحريص دومًا على حماية الآخرين ؟ هل اكتشفت أن مروان يراقبها لأجل حمايتها؟ هل أتت خطته بعكس أكلها؟ ربما جانب الصواب عندما لجأ إلى إبقاء مروان على تلك المسافة من نادية، لعلّ حضوره الغامض من حولها جذبها إليه. وماذا يكون هو بحق الجحيم؟ المساعد الجانبي الهزيل لعاطف؟ متى

ستكبر هذه الفتاة؟

أبصر عمر العم مصطفى وهو يمشي نحوه ببطء وإجهاد، فنهض ومضى إليه ليختصر عليه المسافة.

وضع العم مصطفى يده فوق كتفه: حان الوقت يا بنيّ.

بدأ موكب العروسين الذي يضمّ الأقارب والأصدقاء المقربين في نزول الدرج. اتجه وليد صوب منزله ممسكًا بيد فاطمة، وسط أغاني الفرح والرقصات العفوية. راقب كبار السن ممن لم ينضموا إلى حفل الزفاف زفة العروسين من النوافذ والشرفات.

عند مدخل بناية شقة وليد، اعترض العم مصطفى طريق عمر كي يحول دون انضمامه إلى الحفل الذي سيستأنف في شقة العريس قائلًا:

- انتهت مهمتك.

تباطأت خطوات عمر فعمد العم مصطفى وشريف إلى شبك ذراعيهما بذراعيه وجرّه إلى البيت. حاول العم مصطفى أن يشاغله بالحديث:

- حدثني عن التدريب. أرى أن وزنك قد نقص، ألا يطعمونكم جيدًا في الكلية؟

- التدريب جيد.

لم يرغب عمر في الحديث عن الأشهر الثلاثة التي قضاها في الكلية التي يصفونها بكلمة تدريب فيما هي الجحيم بعينه. أصبحت عضلاته أشدّ متانة وبشرته أغمق لونًا من طول التعرض للشمس وبات سلوكه أكثر حسمًا وصرامة. لا مزاح في حياة الكلية الحربيّة، فعملية تحويل الفتيان إلى رجال في منتهى القسوة أما غربلة من يمتاز بينهم بصفات قيادية فلا رحمة فيها. إن كان عمر قبل انضمامه إلى الكلية يختلف عن العائلة في شكله، فإنه أصبح الآن مختلفا عنها قلبًا وقالبًا. ترك عمر العم مصطفى في البيت واستدار نحو شريف قائلًا: «هيا بنا، هناك موضوع يجب أن نتحدث فيه.»

# 13

تحايل عمر على شريف لركوب الباص معه إلى جبل قاسيون المطلّ على دمشق من جهة الشمال. ففي ذلك الوقت المتأخر، تخلو آخر محطة للباص على الطريق من الناس وتوفر مكانًا منعزلًا لا يتمكن فيه أحد من سماع حديثهما الحساس.

أثناء الطريق، شاغل عمر شريف بأسئلة عن دراسته، وعمله المسائيّ في مطبعة الجريدة الذي دبّره له وليد. اكتشف عمر أن وضع العائلة الماديّ لم يتحسن؛ فما يجنيه شريف لا يصبّ إلا في جيبه ويغطي به مصاريف الكتب والدراسة، أما أجر فاطمة فقد توقف منذ أن أصبحت كنّة لأم وليد، ومهما بلغ ما تجلبه هدى فإنه يبقى الإضافة الوحيدة والثابتة على دخل العم مصطفى. أما مستحقات عمر الهزيلة من الكلية الحربية فلم تغط سوى كلفة مراجعة العم مصطفى للطبيب مرتين.

حال نزولهما من الباص، عثر عمر على بقعة مناسبة، واستدار ليواجه شريف وجهًا لوجه:

- الآن وقد غطّينا كل المواضيع، ألا تحدثني عن حياتك العاطفية؟

ردّ شريف بنبرة متشككة:

- ألهذا جرجرتني إلى هنا؟

ثم دسّ كفيه في جيبيه وتابع:

- حياتي العاطفية ليست من شأنك.

أجابه عمر بلهجة قاسية ومبطنة بالوعيد:

- بل هي كذلك عندما تتسبب في تلطيخ سمعة أخواتك بالوحل.

أخرج شريف علبة سجائر، ودسّ عقب سيجارة مكرمشة بين شفتيه، ثم أشعل عود ثقاب وأحاط السيجارة بكفيه:

- ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟ من يجرؤ على قول كلمة بحق البنات؟

دخل عمر في صلب الموضوع مباشرة:

- أي شخص سيعرف بما فعلته بسميرة.

أضاء التبغ المحترق وجه شريف وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجارته، انقلبت ملامحه من التحدي إلى الغضب ثم استقرت على الخزيّ. نفث الدخان من أنفه، قطّب حاجبيه، أمسك ذقنه ومرر يده بعصبية تحت أنفه.

في مثل هذه الحالات، كانت شخصية شريف المهزوزة نقطة ضعف إيجابية بالنسبة لعمر، فهو يعرف تمامًا كيفية التلاعب بأوتارها. أمر لا ينبغي له التفاخر به، ولكنه طالما كان مفيدًا. قال عمر:

- إذًا الخبر صحيح.

استدار شريف كي يمضي في حال سبيله وهو يقول:

- لا علم لي بما تتكلم عنه.

قبض عمر على ذراعه بيد من حديد، وأوقفه حيث هو ثم وبّخه بشدة:

- إنك لم تفكر في العواقب، أليس كذلك؟ لم تظن أن أمرك سيفتضح؟ كيف سيكون وقع الخبر على أبيك المريض؟ على أمك؟

قرّب عمر وجهه مشددًا على كل كلمة من كلماته:

- ماذا سيحلّ بسميرة؟ ما الذي سيقوله الناس عن نادية، صديقتها، بحقّ الله؟

ازدرد شريف ريقه:

- كيف عرفت؟ من قال لك؟

ترك عمر ذراع شريف:

- ليس مهمًا.

عثر على صخرة كبيرة وأسند مؤخرته إليها، ثم رفع إصبعه في وجه شريف:

- السؤال الأهم هو... ما الذي ستفعله أنت حيال هذا الأمر؟

ضرب شريف الحصى بنعله:

- لا أعتقد أن إخوتها يعرفون بالأمر حتى الآن، ولهذا فإنني لست مضطرًا لفعل أي شيء عند هذا الحد.

صرخ عمر في وجهه:

- حقا؟ هل تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة؟

- أحد إخوتها حذرني، وطلب مني الابتعاد عنها قبل أسبوعين.

بسط شريف راحتيه وهزّ كتفيه:

- وها أنا ذا، أبقي على نفسي بعيدًا عنها.

- بعد ماذا؟ بعد أن لوثت شرف الفتاة؟

ارتجف صوت شريف:

- إخوتها يجهلون ذلك. وعندما يعرفون بما جرى لن يستطيعوا الحديث عنه

علانية، باتهامي أو ما شابه.

انتصب عمر واقترب فعلت قامته الطويلة شريف:

- ستقوم بالواجب، ستتصرف بمروءة، ستتزوجها.

لفظ شريف كلماته مقهقها:

- هل جننت؟ لن أتزوج بنتًا منفلتة كهذه.

- إن لم تفعل، **أنا** بنفسي سأخبر إخوتها وسأطلقهم خلفك كالذئاب المسعورة.

لكز عمر شريف في صدره:

- ولن أكون من حولك للدفاع عنك.

حاول شريف دفع عمر عن طريقه:

- أتخونني؟

لم يتزحزح عمر:

- سأفعل كل ما يتطلب إيقافك عن زجّ العائلة في مشاكل لها أول وليس لها آخر.

نفض شريف سيجارته إلى الأرض:

- إذا تزوج أنت من سميرة. إن كنت قلقًا عليها إلى هذا الحد، تفضل، تزوجها.

حملق عمر بعينين لم تطرفا وعدّ في ذهنه إلى العشرة محاولًا منع قبضته من لكم حنك شريف:

- وحضرتك لن تفعل لأنك؟

رد شريف:

- لأنني سأتخرج وأنال شهادة محترمة، وحينها ستكون في انتظاري وظيفة واعدة. إنني بصدد تكوين سمعة حسنة لنفسي، أما الزواج من فتاة رمت نفسها عليّ؟!

هزّ شريف رأسه من جانب إلى جانب:

- مستحيل.

هزّ شريف إصبعه في وجه عمر بتحد:

- لا تنظر لي هكذا، أنت لست أفضل مني.

هدر صوت عمر عميقًا داخل صدره مثل موجة عاتية تنذر بطوفان:

- أجل، أنا لست كذلك. لن أحصل على شهادة جامعية وليس لديّ والد أفتخر أمامه بنجاحي، ولكني لم أعبث بشرف فتاة بريئة يا شريف. ألم أحذرك قبل ذهابي إلى الكلية؟ ألم أقل لك أن تنتبه؟ لقد ارتكبت خطأ وليس من أحد

يدّعي الكمال، وأنا أحاول مساعدتك ليس إلا.

- لست بحاجة إلى مساعدتك.

لا بد له من تكتيك آخر، طريقة أخرى تنزل به الألم، وتفتح عينيه على حقيقة وضعه. عدّل عمر من نبرة صوته:

- كيف تشعر لو أن أحدهم فعل الأمر نفسه بنادية؟

كان جواب شريف فوريًا ودون تردد:

- أقتله.

رفع عمر حاجبيه:

- ألا تعتقد أن إخوة سميرة سيفعلون الأمر نفسه؟

أبصر عمر خوفًا حقيقيًا في عينيّ شريف فتابع الضغط عليه:

- لكنهم، مع ذلك، لن يمسوا شعرة من رأس صهرهم بل سيساعدونه لأجل ضمان مستقبل أختهم.

تلاشت الحدّة والرفض في صوت شريف وحلّ محلهما الشكّ:

- حتى لو عرفوا الحقيقة؟

- عندما يحدث ذلك تكون قد أصبحت فردًا من أفراد عائلتهم. لكن إن لم تتزوجها ولم يقتلوك، فإنهم سيدمرون مستقبلك بشتى السبل المتاحة لهم، على ما أعتقد.

فرك عمر ذقنه:

- شخصيًا، سأختار هذه الطريقة لو كنت، لا قدر الله، في مكانهم. لن أقتل ابن الحرام ولكني سأطارده ليل نهار وأنشر عنه إشاعات فظيعة. وبعدها سترفض أي عائلة محترمة تزويجه بنتًا من بناتها، ولن تقبل أي مؤسسة محترمة بتوظيفه لديها.

عاد عمر إلى بقعته وأسند ظهره إلى الصخرة:

- فقط تخيل مقدار ما سيلحقه إخوتها الثلاثة من ضرر بمستقبلك.

طافت عينا شريف في أرجاء المكان وعجلات رأسه في حالة من الدوران:

- أعتقد أن بإمكاني الاقتران بها.

استهل شريف الحديث، ثم أعاد عينيه صوب عمر:

- ثم أطلقها بعد شهرين. هذا سيحلّ المشكلة، أليس كذلك؟

قفز عمر إلى الأمام، كوّر كفيه وشدّ على قبضتيه. سمع صوت دمه يزأر في أذنيه، سبّ وشتم في سرّه، ثم استنشق دفقات من الهواء وأرغم رجليه على الثبات في مكانهما. خطوة تلو الأخرى. رد قائلًا:

- هذا حلّ من الحلول.

- ماذا عن أبي؟ إنه لن يوافق أبدًا على ترتيب كهذا.

- دع العم مصطفى لي، أنا سأكلمه في الأمر.

تفحص عمر الوقت وبدأ في المشي:

- سيصل الباص الأخير خلال دقيقتين، دعنا لا نعلق هنا.

أطلق شريف أسئلة مثل الأعيرة النارية خلال سيره نحو موقف الباص:

- ماذا عن النفقات والتكاليف؟ أين سنسكن؟ لا قدرة لي على إعالة زوجة، ماذا عن مهرها؟

مشى عمر إلى جانبه. كان راضيًا على نحو ما بنتيجة حديثه مع شريف وإن لم يكن في رأسه من أجوبة جاهزة بعد على سيل تساؤلاته. هناك أمور أخرى لا بد له من التصدي لها قبل رجوعه إلى الكلية في الغد. جلستا حديث من العيار الثقيل، إحداهما يستطيع حسمها خلال بضع دقائق، أما الأخرى، فلم يكن لديه أية فكرة حتى عن كيفية البدء بها.

# 14

كانت هدى جالسة في وسط كنبة في غرفة الجلوس قبالة الباب الأمامي مباشرة. ميّز عمر هيأتها وسط الظلام لحظة دخوله فهمس لشريف بحاجته إلى خلوة قصيرة مع نفسه قبل الخلود إلى النوم. رافقه إلى غرفة نومهم، خلع عمر حذاءه ثم رجع إلى غرفة الجلوس.

كانت الطريقة التي اختارتها هدى للجلوس لافتة للنظر؛ تحيطها النافذة المشعة بضوء القمر كإطار وهي تطل منه بفستانها الفضيّ البسيط الذي ارتدته في حفل الزفاف. كان ظهرها مستقيمًا، ركبتاها مثنيتان بزاوية قائمة، قدماها ملتصقتان ببعض، ويداها مستقرتان في حجرها ووجهها أصمّ بلا تعبير. بشعرها القصير وافتقارها للأنوثة، كان يمكنها وببساطة أن تكون أحد ضباطه الصارمين في الكلية.

همست:

- كنت أنتظرك.

- لاحظت ذلك.

نهضت وأشارت له كي يتبعها إلى الشرفة:

- أعرف ما تكلمت أنت وشريف عنه.

حاول عمر إخفاء اضطرابه فلم يكن مستعدًا بعد لخوض مواجهة مع هدى:

- حماقته؟

جلست على أحد الكرسيين الخشبيين الصغيرين:

- إذًا؟ ما الذي سيفعله؟

- ما يتوجب عليه بالطبع.

أومأت هدى:

- جيد، ظننته سيحاول إنكار تورطه في الأمر.

لفّت ساقًا فوق ساق:

- رأيي في الفتاة ليس حسنًا، بالطبع. لكن على شريف دفع ثمن تهاونه.

تحت قرص القمر الكبير، الذي كان يحوّم فوقهما كما لو أن حديثهما السريّ

يثير فضوله، حدّق عمر في هدى متفاجئًا من موقفها. لم يتوقع منها أن تكون في الصفّ المعارض لشريف، شقيقها الحبيب.

رمقته هدى بحدّة:

- ماذا؟ هل توقعت مني أن أتشاجر معك حول أمر كهذا؟

امتطى عمر الكرسيّ الآخر:

- ساورتني بعض الشكوك، فنحن لم نتفق من قبل على رأيّ واحد، أنت وأنا.

- إن الأهالي يا عمر يستأمنونني على أسرارهم، يدخلونني بيوتهم ويولونني ثقتهم تجاه أكثر أمورهم حساسية. أتعتقد أنني سأحمل أمرًا كهذا على غير محمل الجدّ؟ لا يجوز أن تترك الفتاة لتحمل العواقب بمفردها.

من الأفضل لعمر أن يتأكد من عدم وجود أخريات:

- هل نتحدث عن الفتاة نفسها ؟ سمـ...

أخرسته هدى ورمت بنظرة خاطفة من فوق سورالشرفة:

- لا تنطق اسمها لئلا يكون هناك من يسمعنا.

استدارت نحوه، ثم مالت إلى الأمام وهمست:

- الفتاة التي جاءت إلى هنا للدراسة.

حسنا، سيمتثل لقواعد اللعبة، رد عمر عليها همسًا هو الآخر:

- ما الذي يدور في رأسك؟

اعتدلت:

- لديك أسلوب خاص مع شريف، لكن كيف حملته على الاعتراف بفعلته؟

لم يكن هناك ما يستدعي الكشف عن تهديده، ووعيده لشريف فهو كمن يمشي فوق حبل مشدود. لم يشأ قول أي شيء قد يتسبب في تعثره وسقوطه من عينها فهو بحاجة لها. أرخى عمر ذراعيه فوق مسند الكرسي وشبك أصابعه ببعضهما:

- مثلما قلتِ، لديّ أسلوب خاص مع شريف.

نقرت هدى الأرض بحذائها:

- أفترض أن لديك خطة ما؟ حمل شريف على أداء الواجب تجاه الفتاة هو نصف المعركة، هناك مسألة إطلاع أمي وأبي على ما جرى، لست أدري كيف سيكون وقع الخبر عليهما.

صوّبت عينيها في عيني عمر وقالت:

- نحن نتحدث عن **ابنهما**.

ذاك هو اللسان الخنجر الذي تشرعه هدى دائمًا في وجهه، كانت تخفيه منذ البدء تحت ستار التعاون المشترك. أخذ نفسًا عميقا، لا تردّ، قال لنفسه، ارجع

فوق الحبل:

- إنني على استعداد للحديث مع العم مصطفى في الصباح، سأحاول إقناعه بكتابة كتابهما على الأقل ريثما يتخرج شريف.

توقف عمر ورفع حاجبيه:

- إلا إن كنت راغبة في حمل هذه المهمة على عاتقك؟

هزّت هدى رأسها:

- لا أستطيع الحديث عن... مثل هذه الأمور مع والدي.

- هذا ما ظننته، دورك مطلوب مع سمـ... عائلة الفتاة، أبوها وإخوتها يجهلون ما حدث حتى الآن.

- كيف تعرف ذلك؟

قلب عمر كفيه وبسط راحتيه:

- شريف ما يزال على قيد الحياة، أليس كذلك؟ والفتاة لم تصب بسوء؟

- زوجة شقيقها الأكبر فقط تعرف بالأمر، استأمنت شقيقة مروان، رحاب، وأفضت لها بالسر طالبة منها أن تكلمني.

ضيّقت هدى عينيها وتابعت:

- مروان هو من أخبرك، صحيح؟

أومأ عمر برأسه.

- ظننت ذلك لما رأيتكما تتحدثان خلال العرس.

- هل أنتِ صديقة حميمة لشقيقته؟ هل تستطيعين طلب معروف كبير منها؟

أدارت هدى رأسها جانبًا مخفية وجهها عن عيني عمر:

- أستطيع ترتيب كل شيء من خلال النساء. والدة الفتاة ستبذل كل ما في وسعها لإقناع زوجها بقبول شريف عند تقدمه لطلب يد ابنتها.

واجهت عمر من جديد:

- لست مضطرة لطلب أي معروف، لحظة أن يذكر اسمي ستدرك الأم الحقيقة وتمتثل لما هو مطلوب.

نفوذ، قفزت تلك الكلمة في رأس عمر. مهنة هدى كقابلة قانونية منحتها نفوذًا بين كل العائلات، ولم يكن جفاف شخصيتها فحسب هو ما يحمل الناس على التزام حدودهم معها، بل ما تعرفه من أسرار عنهم أيضًا. ترى، هل تعرف بسرّه؟ سرت موجة من القشعريرة في جسمه.

تابعت هدى الحديث:

- إنني أستطيع بيع بعض حاجياتي بالخفية وزيادة عدد زبائني من الأحياء

المجاورة، تأكد من معرفة أبي بإمكانية تدبير مهر متواضع. إن سارت الأمور على ما يرام، فإن والدة الفتاة ستساعد من طرفها أيضًا.

مهّدت هدى فستانها فوق ركبتيها:

- مهما كان مبلغ ظنك بشريف، إلا أنه يحظى بمزايا حسنة تصبّ في صالحه.

رفعت كفها وبدأت في التعداد بإنزال إصبع تلو الآخر:

- مستقبل واعد حال نيله شهادة جامعية، شخصية سلسلة، عائلة كريمة من خلفه وصهر بوظيفة مدرس.

توقفت عند الأصبع الأخير.

لمسه عمر وقال:

- وأخت كبيرة مدبرة.

حملقت هدى فيه، وأنزلت يدها إلى حجرها:

- هل تعتقد أن بمقدورك القيام بما هو مطلوب قبل الرجوع غدًا إلى الكلية؟

- ليس من وقت كافٍ، ولكني سأتكلم مع العم مصطفى وأدفع عجلات الأمر على الدوران. على شريف أن يقوم بترتيب الزيارة الرسمية في أسرع وقت ممكن.

- سيحلّ العيد في الأسبوع المقبل، لنقل إن شريف سيرتب ذلك بعد العطلة مباشرة.

- هل ستخبرين ماما صبحية؟

سحبت هدى نفسا عميقًا:

- أجل، لكن بعد العيد. دعها تفرح قليلًا.

أرخى عمر كتفيه مرتاحًا لسير تلك المواجهة على نحو سلميّ بشكل ما، ثمّ قال :

- من الأفضل ألا نشرك الآخرين في هذا الأمر.

عاد صوت هدى إلى حدّته المعهودة مغلفًا بنبرة استهجان:

- أتعني نادية؟

استولى التوتر على عضلات عمر من جديد. شدّ على فكيّه، هل تحاول جسّ نبضه؟ قال موضحًا:

- لا أريد أن تجد فاطمها نفسها في موقف محرج مع زوجها إن بلغهم الخبر. ولا أحب أيضًا أن ينظر وليد إلى شريف نظرة دونيّة.

كررت هدى سؤالها على مسامعه:

- ونادية؟

- ما زالت صغيرة وبريئة على مواجهة أمر كهذا يخص صديقة لها ستصبح زوجة شقيقها عما قريب.

- ابنة السادسة عشرة ليست بصغيرة.

نهضت هدى وتابعت:

- حرصك علينا مثير جدًا للمشاعر.

لما بلغت عتبة الباب، استدارت ورمته بنظرة دونيّة:

- كونك لست بأخ شقيق لنا.

لم تقصد هدى بكلماتها تلك سوى تسديد صفعة له وفي عرض الوجه. لم يخامر عمر شكّ في ذلك، لكن هل تعلم أن أثر كلماتها كان عكسيًا عليه؟ هل تدري أنها أذكت ما يتقدّ في صدره من جمر وأشعلته حرائق متأججة؟ ما الذي تحتاجه روحه المعذبة من برهان شرعي زيادة على هذا؟ إنه **ليس** بأخ شقيق لنادية.

# 15

خرج مروان من جامع السوق المزدحم، واشترى طعام الغداء من مخبز على الطريق. حمل كيسًا من شطائر «الصفيحة» الساخنة إلى محله ونادى على عماله لأخذ استراحتهم. فاحت رائحة البصل ودبس الرمان عندما وزّع شطائر اللحم الرقيقة فوق طاولة في غرفة المخزن إلى جانب سطل من اللبن الرائب. أوصد الباب خلفه ووقف في واجهة المحل لخدمة الزبائن بنفسه.

إنه يمنح عماله استراحة لمدة ساعتين في العادة، ولكن اليوم هو آخر يوم قبل العيد. يغصّ سوق الحميدية في هذا اليوم بمقتنصي التنزيلات لشراء الهدايا بأسعار مخفضة، ويعادل مدخول المبيعات فيه أرباح الشهر كله. رحّب مروان بالزبائن المتحمسين، واستعد لمواجهة من يساومنه على الأسعار ويختبرن صبره بعنادهنّ. جودة بضاعته من الألبسة النسائية والرجالية تبزّ ما لدى منافسيه، وهو يدري أن أعين النساء تلتقط الفرق، لكنهنّ يساومن على أي حال.

بحلول العصر، كان مروان بحاجة إلى قسط من الراحة. سلّم المسؤولية لمساعده الرئيس وخرج ليتكئ على الباب الأمامي ويستنشق بعض الهواء. كان الدوام المدرسي قد انتهى، والطرقات تفيض بسيل أنثويّ يموج بتنانير رمادية وقمصان بيضاء. تسير في أعقاب الجنس اللطيف جحافل من الفتيان وترمي بعبارات الغزل والإطراء في رقصة يشهدها مروان كل يوم في مثل هذا الوقت. عادة ما تبوء محاولات الفتيان بالفشل، لكن، وفي مرات قليلة، تختطف إحداهنّ نظرة إلى الوراء ثم تندسّ في أحد الأزقة. وعلى الفور، ينفصل أحد الفتيان عن القطيع ويمضي في ملاحقتها. كان مروان، عندما تخفّ حركة الزبائن في محله أحيانًا، يراقب عن بعد ويختبر نفسه في تمييز من ستقدم على تلك الفعلة. ومن سنة إلى أخرى، تحسّنت قدراته في التخمين. صنف محدد من الفتيات يلقي بالفتات، فيلتقطه الفتيان بفجاجة متوقعة. جميع من يعرفهم من الشبان تقريبًا سقطوا في أسر هذه اللعبة السخيفة، إلا هو، لم يفعلها قط، ومهما جمحت به شهوة أن يكون حرًا طليقًا وبلا أي قيد.

لفتت انتباهه أربع فتيات مقبلات في الزقاق. غازلت ثلاثة منهن من تتبعهن بحركات لم تكن بالغة في التستر: رفعن أصواتهن بضحكات مشجعة،

تبادلن الهمس في أذن إحداهن الأخرى، وقضين وقتًا أطول من اللازم أمام واجهات المحلات دون دخولها. كانت رابعتهنّ تمشي وهي تسبقهنّ بخطوة إلى الأمام، محاولة واضحة لفصل نفسها عن صديقاتها. كانت تضم كتبها إلى صدرها، وتبقي عينيها في الأرض. يكشف شعرها المربوط على هيئة ذيل الفرس عن جمال طبيعي موفور بالصحة، ويتناقض وجهها الذي لا تعلوه الابتسامات، مع شفاه رفيقاتها المصبوغة وأعينهن الملطخة بالألوان.

كانت نادية بينهنّ مثل العلامة الفارقة، لا لجمالها المتروك على سجيته فحسب، بل لما تتحلى به أيضًا من حشمة واتزان. تحت سطح هيئتها المتحفظة، تتوقد حيويّةٌ شابةٌ نابضةٌ بالحياة. كانت تدير رؤوس الرجال لا الفتيان، العارفين من الرجال الذين يميزون الجوهرة حال رؤيتها. أما هي فكانت لا تعير أحدًا أي اهتمام، لا الحمقى الذين يتعقبون صاحباتها المبهرجات، ولا المعجبين بها من رجال. مراقبًا وحاميًا لها عن بعد خلال غياب عمر، كان مروان يستبعد أنها تشعر بوجوده من الأساس.

أسرعت إحدى الفتيات قليلًا ولحقت بنادية ثم أسرّت لها بشيء في أذنها، هزّت نادية رأسها وأسرعت الخطى. اعتدل مروان وشدّ قامته، اقتربت نادية، وبدت غير منتبهة لوقوفه على بعد خطوتين من أمامها. قبضت الفتاة الأخرى على مرفقها وأرغمتها على التوقف.

«بقي شيء واحد،» قالت الفتاة واندفعت داخل محله، «إنني بحاجة إلى سترة.»

تنحى مروان لئلا تحتكّ به الفتاة لدى دخولها. هرعت الأخريات خلف صديقتهن، لكن نادية بقيت فوق الرصيف. رفعت عينيها، التقت بعينيه، فاشتعلت وجنتاها.

بادرها مروان بالسلام:

- سلام يا نادية، هل تذكرينني؟

أنزلت كتبها وأومأت:

- صديق عمر.

رمى بنظرة متوعدة لعدد من الفتيان على بعد خطوات من خلفها، ولوح بيده نحو المحل:

- ألا تتفضلين؟

ردت نادية:

- لبضع دقائق فقط.

دخلت مخاطبة صديقاتها:

- تأخر الوقت، ألم تقلن إنكن انتهيتنّ من التسوق؟

شغلت الفتيات مساعد مروان في التقافز بين الرفوف لجلب قطع الثياب، وعرضها عليهن فوق طاولة البيع. أحدثن كثيرًا من الصخب والضوضاء مما دفع نسوة على ترك المحل وهنّ يتأففن، صكّ مروان على أسنانه حانقًا.

ظلت نادية قرب المدخل، أسدلت ذات الشفتين المصبوغتين بلون الدم سترة أرجوانية فوق كتفي نادية:

- أرأيت؟ هذه الدرجة من الزهري تليق جدًا بلون بشرتك.

دون ترك كتبها، أزاحت نادية السترة عنها ودفعت بها إلى يدي صديقتها:

- جميلة، ولكنها تناسبك أكثر.

- أعرف أن لا قدرة لك على دفع ثمنها ولكني أستطيع إقراضك المبلغ. يجب أن تحصلي عليها، فأنت لم تشترِ بعد أي شيء للعيد.

اشتدّ وجه نادية امتقاعًا وابيّضت أناملها من شدة الضغط على كتبها:

- لست بطفلة صغيرة، لا أحتاج شيئًا جديدًا لأجل العيد.

ردت صاحبتها:

- سأشتريها أنا إذًا.

فردت صاحبتها السترة فوق صدرها ونظرت إلى نفسها في المرآة:

- فعلًا تبدو عليّ أجمل، لون بشرتي ورديّ أكثر من بشرتك.

تنحنح مروان وخاطب الفتاة الوقحة المستفزة:

- أخشى أن عليك البحث عن شيء آخر فهذه آخر قطعة وقد بيعت لأحد الزبائن.

جذب السترة من يديها وأعطاها لمساعده:

- عرضت هذه القطعة بالخطأ، ضعها جانبًا.

طوى مساعده السترة معتذرًا دون تردد، ثم وضعها على رفّ خلفيّ. توجهت ذات الشفتين الحمراوين إلى صديقاتها في آخر المحل لتبحث عن بديل.

كلّم مروان نادية:

- هل سيأتي عمر إلى البيت في عطلة العيد؟

- اتصل بالأمس وقال إنهم لم يمنحوه إجازة.

قطّبت حاجبيها:

- أيعقل هذا؟! إنه العيد! من لا يحصل فيه على إجازة؟

- الكلية الحربية نظامها مختلف، لا يمكنهم السماح للجميع بالذهاب إلى بيوتهم دفعة واحدة.

دسّ مروان يديه في جيبيه عند انتباهه إلى تحديق الأخريات فيه وفي نادية

وقال:

- هل عائلتك بحاجة إلى أي شيء؟

- أبدًا، شكرًا لك.

تخطّته:

- يجب أن أذهب إلى البيت، هل انتهيتنّ يا بنات؟

جذبت صاحبة الجفون الملطخة ذراع نادية:

- هل تعرفينه؟

اقترب وجاوبها قبل أن تنطق نادية بشيء:

- أنا صديق شقيقها، ولهذا ستحظين جميعكنّ بتخفيض ممتاز.

جذبت الفتيات أوشحة، قمصانًا وسترات ثم كومنها بحماس فوق طاولة البيع، كما لو كن يتبارين في حلبة سباق. تضاحكن وتناكفن حول الزخارف، الألوان والقصات الدارجة؛ أحدثن جلبة وصخبًا. ظلت نادية في الخلف وهي تشدّ على كتبها، التقت عيناها بعيني مروان فأشاحتهما عنه بسرعة. أضاءت ابتسامتها المتزنة محله بالكامل.

دخلت نادية البيت وخلعت حذاءها، كانت قدماها بحاجة إلى النقع في ماء ساخن. شمّت رائحة خبيز الكعك وهي تملأ غرفة الجلوس فذهبت إلى المطبخ. كانت ماما تجلس على الأرض مع سلمى وفرح، وصواني الفرن المملوءة بالكعك المحشو بالتمر تتوزع من حولهم.

رفعت ماما رأسها والعرق يلمع فوق رقبتها:

- أخيرًا وصلتِ، تعالي بسرعة ونظفي المطبخ. شقيقتاك تسببتا في فوضى عارمة.

- لو كنت أعرف أنك ستصنعين «المعمول» طيلة العصر، ما كنت ذهبت مع صاحباتي إلى سوق الحميدية.

- ساعدتني هدى ثم هرعت للعمل، غمغمت بكلام عن زبونة جديدة ليست من الحي. لا أتوقع مجيئها إلا في وقت متأخر من الليل، هل قضيت وقتًا ممتعًا؟

- كان السوق مزدحمًا بجنون.

خلعت نادية زيها المدرسي وأرسلت أختيها للعب في بيت الجيران. بدأت بالتنظيف متجاهلة قدميها المتعبتين، فيما خبزت ماما دفعة «المعمول» الأخيرة ثم ذهبت لتستحم. تركتها لتنظيف الصواني المدهونة بالزيت والسطوح التي يعلوها الطحين، وحينما كانت على وشك كنس أرضية المطبخ، دقّ جرس الباب.

وقف صبي صغير أمامها وهو يحمل حاجيات مغلفة بأوراق بنية قائلًا:

- عمر بكري بعثها لكم.

- انتظر هنا.

اندفعت نادية صوب المطبخ، لفّت بعض حبات الكعك في منشفة نظيفة ثم رجعت إلى الصبي. أخذت ما يحمله وسلّمته الكعك وبعض القطع المعدنية وقالت:

- شكرًا لك.

خرجت ماما من غرفتها مستحِمّة ومرتدية ثوبًا نظيفًا:

- من الطارق؟

- عمر أرسل لنا هدايا يا ماما، هل تصدقين! لم يتمكن من المجيء، لكنه لم ينس إرسال هدايا العيد.

فتحت نادية الهدية الأولى:

- انظري إلى هذين القميصين.

حملت ماما قميصًا في كل يد:

- على مقاس والدك، ومقاس شريف بالضبط.

فتحت نادية بقيت الهدايا الواحدة تلو أخرى:

- أعتقد أن هذه السترة على مقاس هدى، وهذين فستانان لسلمى وفرح، وهذا الوشاح لا بد وأنه لك.

فتحت آخر الهدايا وسحبت بيدين مرتجفتين السترة الأرجوانية، هبطت فوق كرسيّ وقلبها يتشقلب في صدرها.

تحسّست ماما قماش الهدايا: «كيف استطاع عمر تدبير ثمن هذه الأشياء؟»

طرفت عينا نادية بذهول:

- من الممكن أن يكون قد طلب من صاحبه مروان برادي أن يرسلها لنا.

- لا بد وأن عمر ادخر ثمنها لمدة من الوقت، ذاك الصبي لا يفوته التفكير في أي شيء.

طوّقت ماما عنقها بالوشاح:

- إن كان مروان قد اختار هذه الهدايا بنفسه فإن ذوقه جميل.

دفنت نادية وجهها المتوهج في السترة الراقية:

- أجل يا ماما، هو كذلك.

# 16

كان عمر في الكلية عندما وصله الخبر من العم مصطفى بأن كتب كتاب شريف سيكون في الغد. لم يلق عمر حينما حاول إقناع العم مصطفى بعقد قران شريف على سميرة صعوبة تذكر. كان الرجل على دراية بنواقص ابنه. ورغم ما استبدّ به من غضب عارم تجاه فعلة شريف المشينة، إلا أنه لم يكن متفاجئًا. لكن عمر لم يعرف كيف كان وقع الخبر على ماما صبحية، فقد اضطر إلى مغادرة البيت مباشرة بعد حديثه المنفرد مع العم مصطفى.

لم يكن طلب إجازة ليوم واحد بأمر متاح لعمر، فالسبب لن يقنع مسؤوليه بمنحه إذن انصراف استثنائيّ. كان التجهم يهيمن على كل الضباط بسبب تلبدّ الأجواء السياسية، إذ زادت حدة التوتر بسبب الغارات الإسرائيلية على الضفة الغربية، والاشتباكات الجوية فوق الأراضي السورية،والتهديدات بالقضاء على قوة عبد الناصر. ودفعت احتمالات الحرب الوشيكة جميع من في الكلية على حبس أنفاسهم من شدة الترقب. كان عالم عمر مختلفًا عن عالم شريف؛ عالمه تهيمن عليه التحليلات السياسية، والنقاشات الوطنية، وشبح الحرب يحوم في سمائه المكفهرة. أما عالم شريف فتسوده الشؤون الاعتيادية وما يفتحه الزواج عادة من أبواب أمام دورة الحياة الطبيعية. كان عمر أبعد ما يكون عن تلك الحياة، ولم يكن أمامه وسط غرقه في التدريبات الصارمة سوى أن يعزي نفسه بسير الأمور في البيت على ما يرام وأن ينتظر مكالمة مطمئنة من هدى. لكن عندما جرى استدعاؤه مساء الخميس إلى مكتب الضابط المسؤول، تفاجأ من رؤية وليد وما يحمله في يده من إذن انصراف لأسباب طارئة.

سأله عمر حال تركهما الكلية:

- ما الذي يجري؟

مشى وليد بسرعة مصطحبًا عمر إلى تاكسي:

- مصيبة! شريف لم يأت في الموعد المتفق عليه هذا الصباح، انتظره الجميع حتى كاتب المحكمة ولكننا لم نعثر له على أثر.

انفجر عمر غاضبًا:

- يا له من جبان لعين؟!

حكّ وليد رأسه:

- خطر لي أنك قد تعرف أين يمكن البحث عنه، من يكون أصدقاؤه؟ قلت للضابط المسؤول إن صحة العم مصطفى تدهورت وأنه يسأل عنك.

هزّ وليد رأسه:

- لم أكذب.

- هل أخذتموه إلى الطبيب؟

- لا يستطيع مغادرة السرير يا عمر، أحضرت له الطبيب إلى البيت. وضعه سيئ.

قرص عمر قصبة أنفه مستجمعًا رباطة جأشه:

- ماذا قال الطبيب؟

- قلبه توقف عندما لم يأتِ شريف.

بصق عمر شتيمته متجاهلًا عبوس السائق:

- سافل، وغد وقميء.

- كان عليّ أن آتي لإحضارك، تركت جاركم بالباب ملازمًا للعم مصطفى.

استرق وليد نظرة خاطفة إلى سائق التاكسي وخفض صوته:

- وليت الوضع ينتهي هنا، إن إخوة سميرة يبحثون عن شريف، أتدري ما يعنيه ذلك؟

مسح عمر رأسه الحليق بيده:

- معناه يستحسن بنا أن نعثر عليه قبلهم.

- يمكنني أن أخمن سبب ثورتهم العارمة، أمر آخر غير... ما لحقهم من إهانة علنية.

أومأ عمر.

- كان عليك أن تخبرني، أنا الآن من العائلة.

لم يحاول عمر أن يتستر على إحباطه:

- إن أمرًا من هذا القبيل كلما قلّ عدد من يعرفون به، كان أفضل. علاوة على أنني لم أرغب في معرفة فاطمة به.

- الحيّ بأكمله يعرف الآن.

زفر عمر بحدة:

- الفتاة؟ هل هي بخير؟

رفع وليد كفيه في الهواء:

- الله وحده يعلم. ما زلت آمل في إنقاذ الوضع إن تمكنا من العثور على شريف بسرعة واختلاق عذر مقبول.

- كأن يكون قد تعرض لحادث دهس بالباص؟

- شيء من هذا القبيل، لكن يجب أن يبدو الأمر مقنعًا.

لكم عمر قبضته براحة يده:

- آه، سيكون مقنعًا بكل تأكيد، لحظة أن تقع يديّ على هذا الحيوان.

مسحت عينا وليد الشارع من نافذة التاكسي وتغيرت نبرته، أصبحت جدية وكأنه في اجتماع عمل:

- من أين نبدأ؟

- لكم أتمنى أن نتركهم كي يقبضوا عليه، فهذا السافل يستحق كل ما يمكن أن يحلّ به.

- كنت سأوافق لو أن هذا لن يؤدي إلى الإجهاز على والده. الآن، دعك من الانفعالات وابدأ بالتفكير فيما يتوجب علينا فعله.

صرخ عمر:

- اللعنة! نحن على شفير حرب وهذا الساقط الأناني يركض وراء نزواته؟!

مال ولمس كتف السائق، أعطاه عنوان البيت ثم استدار صوب وليد قائلًا:

- يجب أن تكون إلى جانب العم مصطفى، إنهم بحاجة إليك هناك. سأبحث عن شريف بنفسي، أعتقد أني أعرف أين سأجده.

- وعندما تفعل؟

سأسلمه إلى إخوة سميرة، كان عمر يودّ قول ذلك:

- ستخطر في بالي فكرة ما.

دعا أن يكون ذلك صحيحًا.

ذهبت سدى محاولات البحث في مكانين كانا في بال عمر، حيث عادة ما يتواجد شريف. فتّش في كل مكان قد يخطر في البال، بدءًا بالمستشفيات الرئيسية ومراكز الشرطة، لإراحة باله وضميره، ثم تفقد مكتبة جامعة شريف العتيدة، الجوامع التي قلما يرتادها، البقعة المنعزلة فوق قمة جبل قاسيون وحتى بعض المقاهي رديئة السمعة. لم يره أحد، وقيل لعمر في بعض الأماكن إن ثلاثة رجال مرّوا وسألوا كذلك عن شريف.

كان عمر بحاجة إلى المساعدة فتوجه إلى محلّ مروان. كان يأمل أن يكون صاحبه على معرفة بأصدقاء شريف الجدد في الجامعة، وأن يكون لدى أحدهم فكرة عن المكان الذي يختبئ فيه. كما أن مروان يمتلك سيارة، وعمر نفد من جيبه ما يلزم من أجرة ركوب الباص.

***

في آخر الليل، وبعد تعقب أصدقاء شريف الواحد تلو الآخر، تمكن عمر

ومروان من العثور على خيط؛ حانة في ضواحي المدينة.

بعد أن ركن سيارته على مسافة من نادي «الزنبقة البيضاء» الليليّ، أطفأ مروان المحرك قائلًا:

- لا أستطيع الذهاب إلى هناك.

شعشعت في وجه عمر لوحة مضاءة بمصابيح «النيون» معلنة عن الراقصة الشرقيّة «زاهرة اللاهبة»، رد على صديقه قائلًا:

- أتفهم موقفك، لا تنتظر هنا، قد يراك أحدهم. يجب أن تحافظ على سمعتك.

فتح عمر باب السيارة:

- عد إلى البيت.

أشار مروان صوب بقعة مظلمة:

- لن أتركك، سأركن سيارتي تحت تلك الشجرة.

خرج عمر من السيارة:

- أنا مدين لك.

نادى مروان عليه ومدّ يده من النافذة بحفنة من النقود:

- انتظر، في حال عدم السماح لك بالدخول.

حملق عمر فيه دون أن يستوعب قصده:

- شكلك مختلف عن رواد هذه الأماكن.

نظر عمر إلى ثيابه. كان ما يزال في ثيابه المتسخة؛ زيّ متدرب عسكري برتبة متواضعة وبلا نجوم. حتى الضباط لا طاقة لهم على تحمل كلفة ارتياد مكان كهذا، وضع النقود في جيبه وشكر صديقه ثم توجه صوب المدخل.

كان مروان محقًّا، فقد اضطر عمر إلى شراء ثمن دخوله. خنقته نتانة دخان النراجيل في ذلك المكان المزدحم، كان رواد ذلك النادي يتحلقون حول المسرح، ومن فوق رؤوسهم غيوم من دخان التبغ بنكهات الفاكهة. فاكهة، والله وحده يعلم وماذا أيضًا. ترك بصره يتأقلم مع الضوء الخافت ثم خطا ببطء إلى الأمام، اهتزت الأرضية من تحت قدميه على وقع صاخب. فوق المسرح، رجلان هما المسؤولان عن تلك الإيقاعات النابضة، كان كل منهما يقرع طبلة صغيرة بين ركبتيه وأخرى تحت ذراعه.

في مسار متعرج، مشى عمر بحثًا عن شريف، تظاهر مثل زبون دائم بعدم الانزعاج من الجو الخانق. لما ظهرت زاهرة اللاهبة بقوامها الممتلئ فوق خشبة المسرح، توقف وبحث عن زاوية معتمة ثم راقبها وهي تهزّ بدنها على نحو أصابه بالدوران. لم يكن ساذجًا، فقد رأى خلال سنوات من مخالطة أصناف شتى

من الفتيان في الشوارع ما يكفي من صور النساء العاريات لدى تداولها هنا وهناك. لكنه لم ير من قبل راقصة شرقية محترفة، تكاد بذلتها الحمراء المستفزة لا تستر شيئًا من بدنها، وهي تؤدي عرضًا حيًا أمام عينيه. في منتصف رقصتها المثيرة، تفحّص عمر فمه خشية أن يكون فاغرًا ببلاهة ثم استجمع إرادته لمواصلة البحث. عثر أخيرًا على شريف، كان يجلس مع رجلين محتسيًا الخمر.

تفحّص عمر رفيقيّ شريف، يبدو أنهما مخموران إلى حد التغلب عليهما ببساطة إن قررا التدخل.

لم ينتبه شريف إلى اقتراب عمر منه المنشغل بمتابعة الراقصة.

شبك عمر ذراعه بذراع شريف، وهمس في أذنه:

- تعال معي.

حدّق شريف فيه لبرهة قصيرة، ثم تدلّى حنكه ففاحت نتانة الكحول منه.

شدّ عمر على ذراع شريف بقوة:

- انهض عليك اللعنة!

ضيّق شريف عينيه الحمراوين محاولًا التركيز:

- ماذا؟ ما الذي تفعله هنا؟

استخدم عمر ذراعه الأخرى في سحب شريف:

- أنقذ مؤخرتك من القتل. إياك أن تأتي بأي حركة لإثارة انتباه الحاضرين.

جرجر شريف بقليل من الجهد إلى الخارج متعثرًا في زحمة المتفرجين. استحوذت زاهرة اللاهبة على اهتمام الرجال، فلم يلاحظ أي منهم مقاومة شريف، ولا حتى ندماء كأسه. منح الهواء المنعش شريف قوة نفض ذراعه من قبضة عمر، لكن الحركة أفقدته توازنه فهوى أرضًا وارتطم وجهه بالرصيف.

ممتاز، جال في خاطر عمر، تورّم مقنع والمزيد في الطريق. انتظره ليقف على رجليه ثم دفعه نحو سيارة مروان.

صرخ شريف:

- ما الذي تريده مني؟ أين تأخذني؟

جاهد عمر نفسه كي يبقي صوته منخفضًا:

- أنت تعرف إلى أين.

ثبّت شريف قدميه في الأرض، ثم طوى يديه فوق صدره:

- كلا، لن أذهب إلى هناك. لن أتزوجها.

تمايل من جانب إلى آخر كغصن شجرة وسط ريح عاتية.

سدّد عمر لكمة إلى وجه شريف فتقهقر بضع خطوات، ثم هوى ثانية إلى الأرض. انفجر عمر وراح يكيل له اللكمة تلو الأخرى:

- هل لديك أدنى فكرة عما فعلته أيها السفيه؟

قفز مروان من السيارة وركض كي يمنع عمر من تسديد مزيد من اللكمات لشريف الذي تدحرج مثل كرة وبدأ بالنشيج، ترجى مروان عمر قائلًا:

- المكان غير مناسب. هيا، أدخله إلى السيارة، ودعنا نذهب من هنا.

دفعا شريف مجهشًا بالبكاء في المقعد الخلفي وانطلقا. تفحّص مروان ساعته قائلًا:

- إننا في منتصف الليل، أتريد أن تأخذه إلى البيت وهو بهذه الحالة؟

نفض عمر كفه الأيمن من شدة ما يعتصر عظام أصابعه من ألم:

- لا يمكن أبدًا، هذا سيتعب العم مصطفى أكثر.

فتح عمر نافذته تاركًا النسيم يلطف حرارة جسمه وأعصابه:

- علاوة على أن أحد إخوة سميرة قد يكون كامنًا في الحي مترصدًا رجوعه.

كان لسان شريف ثقيلًا وكلماته متداخلة:

- لم أقصد إهانة والدي، ما مدى انزعاجه؟

هدر عمر كالرعد:

- لقد كدت أن تقتله؟!

- إنها غلطتك.

أوشك عمر على الوثوب إلى الخلف:

- كيف يمكن أن تكون غلطتي أيها السافل؟!

انكمش شريف ساحبًا نفسه إلى أقصى نقطة ممكنة:

- قلت لك إنني لا أريد الزواج من سميرة ولكنك أرغمتني.

وضع مروان يده على كتف عمر:

- دعه يقل ما يشاء إنه مخمور.

تردد صوت عمر مثل أسد يهدد كلبًا:

- اصنع معروفًا بنفسك يا شريف، سدّ حنكك أو أسده أنا لك، وادعُ أن يتحسن والدك سريعًا.

مرر شريف أصابعه فوق الورم تحت عينه اليسرى، ثم أسند رأسه إلى جانب المقعد وأغمض عينيه.

خفف مروان سرعة السيارة:

- إذًا؟ ماذا سنفعل؟

مسح عمر وجهه:

- سأخفيه في مكان ما ريثما أهتدي إلى حلّ، يجب أن أذهب إلى البيت كي أتفقد حالة العم مصطفى.

- يمكنني أن آخذه إلى مخزن بضائعنا، إنه بعيد إلى حد كاف عن الحي. أثق في الحارس الليلي هناك، سيبقيه تحت السيطرة.

حوّل مروان بصره إلى المرآة وألقى نظرة خاطفة:

- لا أحسبه سيحاول الهرب وهو بتلك الحالة.

زفر عمر محبطًا ومرهقًا:

- لا أرغب في توريطك أكثر بهذه المسألة.

رفع مروان حاجبيه:

- ألديك خطة أفضل؟

هزّ عمر رأسه.

- هذا ما ظننته، دعني أساعدك. إنها خطة جيدة، تمنحك بعض الوقت لترتيب الأمور في البيت. متى يتوجب عليك الرجوع إلى الكلية؟

رمى عمر رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه:

- سحقًا! غدًا في الثالثة عصرًا. إنني بحاجة إلى معجزة.

# 17

فتحت نادية بعينين محمّرتين الباب، ورمت ذراعيها حول عنق عمر ثم أجهشت بالبكاء. طوّق عمر خاصرتها بيده ومشّاها خطوات إلى الخلف كي يوصد الباب من ورائه. انطلقت عيناه كالسهم صوب غرفة العم مصطفى فوجد بابها مغلقًا.

همس عمر في أذن نادية:

- كيف حاله؟

- ليس على ما يرام، إنني خائفة.

حاول عمر أن تكون نبرته مقنعة:

- سيصبح بأحسن حال.

تمنى لو سنحت له فرصة استبدال ثيابه المبقعة بالعرق والغارقة برائحة الدخان، أمسك كتفيها وأبعدها برفق.

طأطأت نادية رأسها:

- ظل يسأل عنك وعن شريف، ألم تعثر عليه؟

عبر وليد إلى غرفة الجلوس من الشرفة ووقف على بعد من وراء نادية، استرق عمر نظرة خاطفة تجاهه وردّ على نادية:

- أجل.

ثم رفع ذقنها بإصبعه:

- شريف بخير، هل أستطيع الذهاب للاطمئنان على صحة العم مصطفى أولًا، أرجوك؟

توجهت إلى غرفة النوم قائلة:

- سأبلغ ماما بأنك هنا.

- أمهليني دقيقة لأغسل وجهي ويديّ.

أشار وليد إلى عمر كي يتبعه إلى الشرفة:

- حسنًا؟

أطلعه عمر على ما جرى ثم توجه إلى الحمام. أثناء فرك وجهه ورقبته، سمع طرقًا خفيفًا على الباب. ارتدى القميص النظيف الذي جلبه معه وفتح

الباب.

هزّت هدى إصبعًا في وجهه:

- لا تكذب عليّ، أين هو؟

ألقى عمر نظرة خاطفة من ورائها ليتأكد من عدم وجود شخص آخر وقال:

- صحيح ومعافى في مكان لأحد الأصدقاء، مخمور مثل البغل.

خرج وتجاوزها:

- سأحضره في الصباح بعد أن يصحو من سكرته.

وضعت هدى يدها فوق ذراعه:

- انتظر.

كان صبر عمر يوشك على النفاد، استولى عليه التعب والجوع واستنفد القلق والغضب أعصابه بالكامل. جلّ ما كان يشتهيه هو انقضاء تلك الليلة:

- ماذا هناك؟

شدّت هدى على ذراعه:

- ماما تعتقد أن أمرًا سيئًا ألمّ بشريف، حدس الأم. قل ما يحلو لك، لكن انتبه إلى ضرورة طمأنتها، لا نريدها أن تنهار هي الأخرى.

أومأ عمر. حسنًا، وقع أمر ما لشريف، ضربه باص ثم خارت عزيمته. توجه إلى الغرفة ودخل.

كانت ماما صبحية جالسة بقرب العم مصطفى فوق السرير وهي تمسك بيده، عيناها منتفختان ووجهها شاحب. جاءت فاطمة لتسلم على عمر، ضمّته بشدة إلى صدرها ثم اصطحبت نادية وخرجت. لم يفتح العم مصطفى عينيه.

مالت ماما صبحية نحو العم مصطفى:

- عمر هنا.

سحب عمر كرسيًا وقرّبه من السرير ثم احتضن يد العم مصطفى، كانت واهنة باردة وشرايينها المنتفخة ترسم معالم حياته.

خرجت كلمات العم مصطفى من شفتين شاحبتين:

- ابني.

رد عمر:

- شريف بخير لقد تركته للتو. إنه قلق عليك للغاية.

انقبضت معدة عمر. من حسن حظه أن عينيّ العم مصطفى مقفلتان، فهذا سيسّهل عليه أمر الكذب:

- تعرض شريف وهو في طريقه إلى هنا لحادث بسيط.

شهقت ماما صبحية، وضربت على صدرها.

استدرك عمر:

- لكنه بخير، أصيب ببعض الرضوض. فقد وعيه وحمله أحدهم إلى عيادة طبيب، ولهذا لم نتمكن من العثور عليه سريعًا.

نظر إلى ماما صبحية وشدّد على كلماته:

- شريف حقًا بخير.

ردّد العم مصطفى ثانية:

- ابني.

ربّت عمر على يد العم مصطفى:

- سآخذه إلى عائلة سميرة في الصباح لنكتب الكتاب ونتمم الأمر. لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام، بعد أن أشرح لأهلها ما جرى سيتفهمون الموقف، اطمئن.

كرر العم مصطفى للمرة الثالثة وبنبرة تنمّ عن أمر طارئ ومستعجل:

- ابني.

رفع عمر حاجبيه متشوشًا صوب ماما صبحية. تمخّطت في منديلها وقالت:

- أعتقد أنه يقصدك يا حبيبي.

غصّ حلق عمر ودمعت عيناه. لفّ رأسه جانبًا، ودفن رأسه في فرجة ذراعه المثنيّ، تظاهر بمسح أنفه مسترقًا ثانية من الوقت ليتماسك. شدّت أصابع العم مصطفى على كفّه، فتمكن من النطق ببعض الكلمات:

- أنا هنا بقربك.

- تولّى أمر رعاية البنات.

اختنق عمر:

- نعم سيدي، سأفعل. أعدك.

انهارت ماما صبحية وبدأت بالنشيج، فنهض عمر وأحاطها بذراعيه. حاول أن يطمئنها ويشدّ من أزرها، طلب منها التحلي بالقوة والتماسك، قال لها إن العم مصطفى سيتحسن وأنه يحتاجها إلى جانبه. استخدم عمر ألفاظًا ما كان يظنّ أنه سيتفوه بمثلها أبدًا، كلمات مثل «يمّا» و«يابا»، مشيرًا بهما إلى ماما صبحية والعم مصطفى.

دخلت هدى وحلّت في مكانه، انسحب من الغرفة وقلبه يوشك على الانفجار.

كانت فاطمة بجوار وليد على الكنبة في غرفة الجلوس، رأسها يستند إلى

كتف زوجها وأصابعها تتشابك في أصابعه قالت:

- لا بد وأنك تتضور جوعًا، نادية تعد لك شطيرة في المطبخ.

أومأ عمر. لم تكن لديه أي رغبة في الطعام ولم يشته سوى الفرار من البيت، قبل أن ينهار بالكامل بسبب ما أصاب الجميع من تحطم وانكسار. اللعنة على شريف، اللعنة عليه مِلءَ الأرض والسماء. دخل المطبخ ورمى نفسه فوق كرسي إلى الطاولة الجانبية، أسند مرفقيه فوقها وحمل رأسه بين يديه. سحقًا! إن كان يوشك على الانهيار أمام نادية، فليكن.

لمست نادية عظم كفه المحمّر الذي انكشط ما يغطيه من جلد فوق حنك شريف، فرفع عمر رأسه مبقيًا عينيه في الأرض. وضعت الصحن والشطيرة فوق الطاولة وقالت:

- أعرف أنك تكذب عليهم، وأعرف أن سبب ما دعاك إلى ذلك لا بد وأن يكون وجيهًا.

أغمض عينيه.

توجهت نادية صوب باب المطبخ:

- غسلت فاطمة قميصك، سأتركك لتأكل بسلام.

في الصباح الباكر، عبر عمر إلى سيارة مروان. كان النوم قد أدركه ووجهه فوق طاولة المطبخ لساعتين من الزمن. جلس مدلّكًا عنقه المتيبّس وشرح خطته:

- وليد سيذهب إلى بيت سميرة. مهمته تتلخص في محاولة إقناع أهلها بتعرض شريف لحادث بسيط بالأمس. في العاشرة، سأقابل وليد في المقهى الكائن في آخر الشارع. إن أعطانا الضوء الأخضر، سنأخذ شريف إلى بيت سميرة. وهناك سنحمله على التوقيع على عقد الزواج وتسوية الموضوع برمته.

- أتظنهم يقبلون؟

تنهد عمر:

- ليس لديهم من خيار آخر، إنهم حتمًا يريدون كفّ ألسنة الناس عنهم.

- كيف تنوي حمل شريف على الانصياع للأمر هذه المرة؟

- لا تقلق، سأتخذ كافة التدابير اللازمة.

- هل يستخدم يمناه؟

- أجل، لماذا تسأل؟

- انتبه إذًا إلى كسر يسراه.

نظر مروان في عينيّ عمر:

- كي يكون قادرًا على حمل القلم.

أطلق عمر ضحكة من القلب. برهن مروان على أنه الرجل الأمثل لمثل هذه

المهمات، وأنه خير سند ومعين له. كان عليه أن يقرّ بأن مروان لو لم يجتذب عين نادية، لكان عمر قادرًا على التعبير عن مدى تقديره لمعدن صديقه النفيس. عوض أن يفعل ذلك، بقي صامتًا مخافة أن يفضح مكنونات نفسه فيما بادل مروان نواياه الطيبة صراحة وفي العلن.

ضيّق مروان عينيه:

- أمر آخر، لقد قمت أنت بإرسال هدايا العيد لجميع الأهل.

تبددت ضحكات عمر:

- أنا فعلت ذلك؟

- عندما علمت بأنك عالق في الكلية تصرفت دون تفكير وأرسلتها باسمك. أدري أنه ليس من حقي فعل ذلك، ولهذا أعتذر منك. إنني أخبرك بما جرى حتى تكون على بينة فيما فتح هذا الموضوع.

حرّك عمر حنكه عدة مرات محاولًا تجنب الإفراط في قراءة مقاصد مروان من فعلته الطيبة تلك:

- هل قلت الجميع؟

أومأ مروان:

- بمن فيهم شريف.

فرك عمر عينيه، لا داعي لزوبعة هذا الأمر الآن، إن أمامه معارك كبيرة لخوضها:

- بكم أنا مدين لك؟

- لقّن شريف ما يستحقه، وتأكد من أنه لن يستطع استخدام القميص الذي يرتديه ثانية، وحينها نكون قد تساوينا.

عندما بلغا مخزن البضائع، كسر عمر عظمتين إضافيتين إلى جانب ما كسره من يد شريف اليسرى. كلما صاح شريف مولولًا، كان عمر يردّ عليه بأنه لا بد وأن يبدو كمن سحب من تحت باص. ألقماه القصة الملفقة بكامل تفاصيلها، ثم تركهما عمر كي يلتقي بوليد حسب الخطة. أما مروان فحمل شريف إلى عيادة في بلدة مجاورة على بعد نصف ساعة من دمشق.

أعطى وليد الضوء الأخضر بعد تمكنه من كسب تأييد شقيق سميرة الأكبر. القريب من وليد في العمر، وربما مدفوعًا من جانب زوجته التي تحركها هدى، كان الرجل متفهمًا وأقنع والده وشقيقيه بعدم الشك في نوايا شريف ومنحه فرصة ثانية؛ راميًا بالتأكيد إلى صون سمعة عائلته. اضطر وليد إلى اختلاق كذبة أخرى لدى سؤاله عن سبب عدم اتصال شريف بإحدى العائلتين وإبلاغهم بالحادث. لم يعرف عمر بما جادت به قريحة وليد، لكنه كان ممتنًا للغاية من

خصب مخيلة صهره.

بعد صلاة الجمعة، كان عمر يقف خلف شريف وهو يقبض على كتفه الأيمن بيد ثابتة أثناء توقيعه على عقد الزواج. أجريت مراسيم المناسبة على عجل، وأصرّ والد سميرة على إتمامها في الجامع المحلي ليتمكن كل رجال الحي من حضورها. تناقل الجميع أخبار الحادث وما تعرض له شريف من كسور وإصابات، وعمّتهم الدهشة مما طلبه والد سميرة من مهر باهظ وغير معهود. ولأنه كان مهرًا مؤجّلًا، تفاقمت حدة النميمة.

قال البعض إن والد سميرة كسب ابنًا رابعًا وشابًا محترمًا ذا مستقبل مضمون. بينما أبدى آخرون إعجابهم بالأب لأنه لم يثقل كاهل شريف بمهر معجّل وكأنه يحمد الله على نجاة صهره. فيما امتدح قسم آخر العائلة على التعجيل في أمر الزواج بسبب تردي صحة العم مصطفى. قلّب الناس الأمر ثم قدموا تهانيهم.

لكنّ عمر كان يدرك أن المهر المؤجّل ما هو إلا قيد في يدي شريف. فهو دين واجب التسديد حال طلبه، وإلا فإن بمقدور أهل سميرة اللجوء إلى المحكمة. وفي هذه الحالة، يمكث شريف في السجن إلى حين قضائه. كان باب الزواج موصدًا بإحكام خلف شريف، فهو عاجز عن تسديد ذلك الدين، ولن يتمكن من تطليق سميرة خلال شهرين بحسب خطته المزمعة؛ والدها عمل على الحيلولة دون ذلك. لم يلم عمر الرجل على حساباته تلك، فشريف يستحق ذلك تمامًا بسبب أفعاله الطائشة.

راضيًا عن إنجاز مهمته الرئيسة، اصطحب عمر شريف مكتئبًا ومقهورًا إلى البيت. عمد إلى تفقّد صحة العم مصطفى، ثم ارتدى زيه العسكري، وودّع الجميع ليعود إلى كليته في الوقت المحدد. لم يتصور أبدًا أنه سيحلّ عليه يوم يرحب فيه بالتدريبات القاصمة للظهر ويعتبرها متنفسًا مريحًا.

# 18

بعد سنة واحدة، 1967

انتصب عمر وشدّ قامته وهو في حلّة عسكرية كُوِيَتْ بإتقان، وتسلّم شهادة تخرجه في مكتب القائد العام. ثبّتت نجمة فوق كتفه وحددت رتبته بملازم ثان، دون حفل وبلا عائلة تحوطه بالفرح والفخر. منح إذنًا خاصًا لترك الكلية قبل خمسة أيام على تخرّج بقية دفعته بعد أن استدعت ظروف هذا الاستثناء، كان عمر مضطرًا لحضور جنازة. أبلغه رئيسه صبيحة ذلك اليوم بوفاة العم مصطفى، ولم يمنحه للتغلب على صدمته سوى بضع دقائق فقط قبل أن يختم له أوراقه، بما فيها أوامر مراجعة الكلية بعد أسبوعين للتوجه بعدها إلى مكان الخدمة.

كان مروان في انتظاره خارج البوابة الرئيسية. تلقّى تعازي مروان بصمت، ثم صافحه ودخل السيارة. حملق إلى الأمام متمنيًا أن يستنكف صديقه عن الحديث معه. كانت لجة مهولة من المشاعر المتضاربة تمور في صدره، وتوشك على تحطيم ضلوعه. لم يكن قادرًا على التنفس أو استخدام حنجرته. أجل، لقد حصل على نجمته، لكن العم مصطفى مات. ما الذي يمكن قوله بعد ذلك؟

وضع مروان يده على كتفه:

- وليد وشريف يرتبان للدفن قبل صلاة العصر. إنهما ينتظران وصولك لغسل وتكفين الجثمان، هذه وصية المرحوم.

أغلق عمر عينيه. امتياز خاص بابن من صلب أب متوفى، وواجب لا بد من القيام به، وهذا ما يفسّر منحه إذن المغادرة الاستثنائي. حتى بعد وفاته، برهن العم مصطفى على أنه أب حقيقي له. أراح عمر رأسه فوق مسند المقعد.

شد مروان برفق على كتف عمر قبل أن ينزل يده:

- يبدو أن شريف مضعضع إلى حد عدم القدرة على فعل أي شيء مفيد. أخبرتني شقيقتي بأن شريف منذ أن جلب سميرة إلى البيت وهو يتصرف على نحو غريب بعض الشيء.

بدا صوت عمر غريبًا حتى على مسمعيه:

- أدري.

- أهذا سبب عدم مجيئك إلى البيت خلال إجازاتك؟

ظل عمر صامتًا. كيف له أن يفسّر شعوره بعدم ترحيب شريف بوجوده في البيت؟ كان يرصد كل حركة تصدر عن زوجته وهي من حول عمر، ويتصرف مثل مهرج مصاب بهوس الغيرة والشك. فضلًا عن ذلك، لم يعد في البيت من مكان لنوم عمر، فبعد إغلاق جزء من غرفة الجلوس لتوفير حيز خاص بالزوجين، لم يعد يتقبل فكرة النوم في غرفة البنات. خاصة وأن نادية بلغت السابعة عشرة، وهدى لا تفوّت أيّ فرصة للتعبير عن امتعاضها من رؤيته. اضطر في المرة اليتيمة التي عاد فيها إلى البيت للمبيت في بيت فاطمة، ثم اختلق الحجج كي يعود إلى الكلية قبل موعد رجوعه. يومًا ما، سيعود إلى بيت أبيه في القدس، وعندها سيتخلص من هذا التنقل بين مكان وآخر، والشعور بالتشرد في كل مكان يحل فيه. أطلق تنهيدة عميقة، من الأفضل أن يأتي هذا اليوم سريعًا.

التقط مروان الإشارة من صمت عمر فبقي هادئًا طيلة الطريق.

في البيت، غمس عمر نفسه في عملية تحضير العم مصطفى للدفن. بعد انضمام إمام الجامع المحليّ إليهما، اتبع عمر ووليد تعليماته حول كيفية غسل الجثمان، مكان البدء، الأدعية المستحبة، كيفية أداء الوضوء نيابة عن المتوفى وتكفينه بثلاث طبقات من الكتّان الأبيض.

كان شريف يحوّم هنا وهناك مراقبًا طقوس الغسل والتكفين ومؤكدًا على عقم وجوده. خلال تلك الطقوس، هرب عمر إلى مكان بعيد في مخيلته، إلى بستان مفروش بأشجار اللوز المزهرة. لم يكن العم مصطفى نصب عينيه ممددًا باردًا وبلا حراك فوق الطاولة، بل كان يعمل في بستانه بحيوية ونشاط. تعلّقت أذنه بنشيج نادية المتقطّع، إذ كان عويل النساء ينداح في أرجاء البيت من خلف باب غرفة ماما صبحية الموصد. عندما آن أوان إخراج الجثمان، غصّ البيت بالرجال: الجيران، الأصدقاء وزملاء العمل. حمل شريف، ووليد، وعمر الجثمان على نقّالة وهبطوا بها الدرج حيث كان في انتظارهم باص صغير. مروا في طريقهم بحشود من الرجال تتمتم بالأدعية وترفع الأيادي للمشاركة في واجب حمل الميت.

انطلق الباص الصغير ببطء في الحي، ومضت السيارات التي تكدست بالرجال في إثره. دعت مكبرات الصوت من فوق الباص الناس إلى مسامحة الميت والزوج الطيب والأب الرؤوف، عددت مناقب العم مصطفى وخصاله الطيبة، ورجت من استدان منه مالًا أن يراجع ابنه لاسترداد دينه أو فليسامحه إن شاء. جلس شريف في المقعد الأمامي من الباص معلنًا للملأ عن صفته الجديدة كربّ للعائلة، وعزل نفسه عن الحشود التي تجمعت في الطرقات خلال تشييع الجنازة.

مشى عمر إلى جانب الباص طوال سيره البطيء في الحيّ. عمد بعض أصدقاء العم مصطفى إلى القبض على كفه، حاولوا ترك نقود فيها زعمًا بأنهم يردّون ما عليهم من دين للعم مصطفى. لكنه يعرف تمامًا أن العم مصطفى لا يمكن أن يكون قد أقرض مالًا لأحد، لأنه لم يكن بين يديه ما يتوفر لذلك.

دعا عمر الرجال إلى وجبة الغداء التقليدية بعد الدفن. لم يشعر بأن أي أحد يتشكك في مكانته في العائلة، فالجميع لجؤوا إليه متجاهلين شريف. كان وجه شريف مغلقًا بتعبير محايد، فلم يعرف عمر إن كان متضايقًا من صبّ الحشود اهتمامهم في غير موضعه، أم إن كان غارقًا بشدة في ذاته وفاتته ملاحظة تهميشه. بعد أداء صلاة الميت في الجامع، اتجه موكب التشييع خارج الحي، فركب عمر في سيارة مروان وانطلقا صوب المقبرة.

مرّت أيام العزاء الثلاثة على نحو ضبابيّ، ولم تُترك العائلة خلالها إلا قليلًا. فبينما أدّت النساء واجب العزاء من الصباح وحتى وقت متأخر من العصر، كان الرجال يتوافدون طيلة المساء. فتح جيران العائلة بالباب بيتهم لاستقبال ما يفيض من معزين، فصفّوا غرفة جلوسهم بكراسي مستأجرة من الحائط إلى الحائط. وعندما كان يحين أوان النوم، كان الجميع يزحفون إلى أسرّتهم وهم مرهقون جسديًا وعاطفيًا. كان عمر ينام فوق الكنبة في غرفة الجلوس.

في الليلة الأخيرة، وبعد أن ساد البيت هدوء نسبي، مضى عمر إلى بقعته المفضلة فوق السطح. لقد تمكن حتى تلك اللحظة من تجنب أي مواجهة مع شريف، لكن آن أوان فتح حديث جديّ معه بخصوص أوضاع العائلة المالية. لم يكن دخل شريف من عمله بدوام جزئي يكفي لإبقاء وضع العائلة المالي عائمًا فوق السطح، حتى مع مساهمة هدى. الآن وقد تخرّج عمر، فإن راتبه من الجيش ينبغي أن يكون كافيًا لتغطية معظم النفقات. لكنه لن يستلمه حتى نهاية الشهر، ولهذا كان لا بد له من معرفة الفواتير التي ينبغي تسديدها قبل ذلك الأجل كي يتدبر أمر دفعها.

أصدر الباب من خلفه صريرًا فاستدار كي يرى من لحق به.

كانت فاطمة تقف بالباب وضوء الدرج من خلفها يشعّ بهالة مثل القديسين من حول رأسها، خاطبته مستئذنة:

- هل أستطيع الانضمام إليك؟

أشار إليها لتأتي وتجلس بقربه فوق السور، ثم خلع سترته وألقاها فوق كتفيها:

- إنها ليلة باردة.

كان صوتها ينضح بما تعانيه من إرهاق وفجيعة:

- لا أحسّ بأي شيء.

فرك ذراعيها:

- ما الذي تفعلينه هنا حتى الآن؟ ينبغي أن تكوني قد ذهبت إلى بيت زوجك.

- كنت عند بيت الجيران. ساعدناهم أنا وهدى على ترتيب بيتهم، فاليوم هو الأحد وهم لم يذهبوا إلى الكنيسة بسببنا.

- عائلة رافد طيبة للغاية، آمل أن نتمكن من ردّ جميلهم في ظروف أحسن.

- لا بد وأن بنتًا من بناتهم ستتزوج عما قريب، حينها سنقوم بالواجب.

أمسكت فاطمة بيد عمر:

- أعرف أنه ليس بالوقت المناسب ولكن مبارك حضرة ملازم ثان.

ضغطت على يده واستأنفت قولها:

- لقد جعلت العم مصطفى فخورًا بك.

بلع عمر غصّة في حلقه :

- أرجوك لا تفعلي هذا الآن.

خفضت فاطمة رأسها وهمست:

- لا بد لشخص من قوله. إنني فخورة بك أيضًا، ووليد كذلك. إنه لا يستطيع التوقف عن التباهي بك أمام زملائه في المدرسة.

حضنها بشكل سريع:

- إنني ممتن لذلك.

- تعال معي إلى البيت، نادية قالت لي إنك تنام على الكنبة. هناك غرفة خاصة تنتظرك في بيتي.

بقدر ما كانت تلك الفكرة مغوية وجذابة، إلا أنه ما كان ليرضى أن يفرض نفسه على بيت وليد لأسبوعين دون دعوة صريحة من الرجل. هناك أم وليد ويجب أن يؤخذ وجودها بعين الاعتبار أيضًا.

- ماذا عن زوجك؟

- وليد مصرّ، كان سيخبرك بنفسه لكنه اضطر إلى الذهاب مبكرًا حين كنت مشغولًا مع الرجال.

قطّبت حاجبيها:

- هل تريد حقًا دعوة منه؟

تفحّص عمر يديه.

لكزت كتفه بكتفها:

- أم أنك مستمتع بأذى شريف وسميرة؟

زفر عميقًا:

- لاحظت ما يفعله شريف بسبب عجزه عن الثقة بزوجته. يظنني، مثله، بلا أخلاق.

- شريف أحمق وسميرة أسوأ، إنها تضغط على أعصاب ماما صبحية منذ مجيئها إلى هذا البيت. تضايق نادية أيضًا بعد أن نسيت بأنها كانت صديقتها.

رنا عمر ببصره إلى بعيد، كان ألف سؤال يدور في رأسه فبدأ بأكثرها إلحاحًا:

- كيف حالها؟

فات فاطمة قصده:

- ماما صبحية قوية. إنها منهارة الآن، لكنها ستتماسك فيما بعد. لم تكن الوفاة مفاجئة، فقد شعرنا جميعًا بدنو أجله.

مسحت دموعًا سالت فوق وجنتيها:

- أعتقد الآن وبعد غياب العم مصطفى، لن تسير ماما صبحية على أطراف أصابعها من حول سميرة. رحمة الله عليه، لم يكن راغبًا في وجود توتر بالبيت. الآن راقب وسترى، ستلزم ماما صبحية وهدى سميرة حدودها.

خفض عمر صوته وحاول ثانية:

- لم أتمكن من قضاء وقت مع البنات، هل هنّ بخير؟

- الصغيرتان مصدومتان لكن خوفي الأكبر على نادية.

لم يعبأ بالتستر على اهتمامه بأخبار نادية:

- لماذا؟ ما الذي حلّ بنادية؟

- نادية كانت معتمدة عليك دومًا يا عمر. بعد أن غادرت حاول العم مصطفى ملء ما تركته من فراغ، فأصبحا قريبين من بعض. الآن وقد مات، لم يعد لدى نادية من أحد.

نهضت فاطمة، وسحبت معها عمر:

- يجب أن تقضي بعض الوقت مع نادية قبل أن تغادر إلى الكلية، احملها على فتح مغاليق نفسها لك كما كنت في السابق.

ربتت على يده:

- إنها تعبدك.

اشتعلت وجنتاه فانحنى متظاهرًا بتعديل طيات بنطاله؛ لإخفاء ردة فعله المحرجة على إشارة فاطمة البريئة. ما الذي ستظنه فاطمة إن عرفت بعمق مشاعره تجاه نادية؟ هل ستظل فخورة به؟

قضى عمر أيامه في إنجاز مهمات تخصّ ماما صبحية والبنات متعمدًا الغياب عن البيت أثناء خروج شريف. اضطر إلى الاقتراض من مروان لسدّ الاحتياجات المطلوبة إلى حين استلام راتبه. كان دين مروان يثقل كاهل عمر، لكن لم يكن لديه من خيار آخر.

لم يستطع عمر حمل نفسه على اصطحاب نادية للتمشي كما كانا في الأيام الخوالي، شاعراً بأن ذلك خطأ على عدة مستويات. اختفت براءة نادية التي لا تشوبها شائبة، وحلّ مكانها نضوج كئيب كان يفلّ من عزيمته. كان عندما يمرّ بالعائلة كل مساء قبل التوجه إلى بيت فاطمة للنوم، يتمزق قلبه من رؤية نادية حزينة ومنغلقة على نفسها. كانت تجلس إلى جانب والدتها دون أن تنطق بكلمة، وحين ينهض لتوديعهم لا تبادله النظر. كانت نادية، مثله، تتألم على فقدان ما هو أكثر من الأب، كانت بحاجة ماسة إلى كتف حنون، وعمر لم يستطع إرغام نفسه على تقديمه لها. إنه سيتركهم بعد أيام قليلة، ولو اقترب منها الآن، فإنها ستعاني من ألم فراق جديد. لهذا أبقى على مسافة متحفظة، آملًا في أن يكون ذلك هو التصرف السليم.

رغم ذلك، وعند انتهاء الدوام المدرسيّ عصر كل يوم، كان عمر يتوارى خلف شجرة تقابل مدرسة نادية وينتظر خروجها سامحاً لنفسه بمتعة ملتوية، خسيسة ومشينة؛ كان يتتبعها في سيرها إلى البيت وهو متخفٍ عن الأنظار. لاحظ حركات صغيرة وأودعها في ذاكرته: طريقة ضمّها كتبها إلى صدرها، تأرجح وركيها في المشي، شريط شعرها الأزرق بحاشيته من الدانتيل الأبيض الذي تربط به شعرها كل يوم تقريبًا، كيف تميل برأسها قليلًا إلى اليمين عندما تصغي إلى صديقاتها ومداعبتها مرارا الزرّ العلويّ لقميص زيها المدرسي، تفاصيل بسيطة لكن عمر ظنّ أنها له، له وحده.

لم يكن هناك من مبرر أو شرف في مطاردتها خلسة، لكنه لم يستطع التوقف، فقد كان يشتهي النظر إلى نادية دون عين رقيبة. وحيدًا في سريره أثناء الليل، كان يجلد نفسه عندما يشطّ به الخيال، فيبذل العهود على الإقلاع عن مطاردته السرية ثم يحنث بها عصر اليوم التالي. إرادة البعد عن الحبيب لا مكان لها في قلب رجل مُتيّم.

في الأسبوع اللاحق، وخلال الإفطار في أحد صباحات مطلع حزيران، سألت فاطمة عمر إن كان يشعر بالمرض مشيرة إلى تقلّص شهيته.

منحها سببًا مقنعًا ولكنه لم يكن الوحيد:

- إنني قلق فقط مما هو آت، فتهديدات إسرائيل بمهاجمة سوريا زاد زخمها.

أدار وليد المذياع فعلا صوت المذيع بقراءة رتيبة لنشرة الأخبار وسأل عمر:

- هل تعتقد أننا مقبلون على الحرب؟

- الحرب حتميّة.

رمى وليد نظرة خاطفة نحو فاطمة:

- لا تقلقي، ناصر والجيش المصري سيدعموننا.

كانت عينا فاطمة مثل كرة المضرب تتنقل جيئة وذهابًا بين شقيقها وزوجها:

- هل سيرسلون عمر إلى خطوط القتال الأمامية؟

أومأ عمر:

- لا أشك في ذلك، معظم الـ...

ارتفع صوت انذار عال كبوق سيارة من المذياع وقاطعه. أعلن المذيع عن بيان عاجل، فترك الجميع ما بأيديهم واستدارت رؤوسهم نحو المذياع، كما لو أن رأس المذيع سيخرق الصندوق ويطل عليهم أثناء قراءة النبأ.

شنّت إسرائيل هجومًا مباغتًا على قواعد الطيران المصرية في الساعات الأولى من الصباح.

وثب عمر على رجليه:

- تبًا، لقد اندلعت!

هرع إلى المذياع ورفع صوته.

تلاحقت البيانات العسكرية الواحد تلو الآخر معلنة عن آخر تطورات الوضع على الجبهة المصرية. معظم المقاتلات الحربية المصرية دُمّرت على الأرض، ولم يتمكن سوى القليل منها على الإقلاع. القوات البرية المصرية انطلقت صوب سيناء.

ذرع عمر الأرض جيئة وذهابًا مثل أسد في قفص. عقب إذاعة كلّ تطور جديد، كان ينفجر في موجة من السباب أو في إلقاء بيان من عنده.

سيطر على فاطمة هوس تنظيف المائدة، فصارت تروح وتجيء إلى المطبخ، تنقل صحنًا واحدًا في كل مرة والدموع تنهمر بصمت فوق وجنتيها. في آخر شوط لها، جذبها وليد من مرفقها وضمها إلى صدره قائلًا:

- كل شيء سيكون على ما يرام.

هزت فاطمة رأسها: لا أستطيع سماع هذه الأخبار.

صرخ عمر في المذياع:

- يجب أن نفعل شيئًا، اللعنة، يجب أن ندعم أشقاءنا المصريين.

ذهب إلى غرفته وعاد بعد دقائق في زيّه العسكريّ.

اعترضت فاطمة طريقه وصرخت بجنون:

- إلى أين تذهب؟

قال وليد بصوت حنون:

- ابتعدي عن طريقه، عمر ضابط في الجيش ولا بد له من التوجه إلى قاعدته.

بدل أن تتنحى جانبًا، رمت فاطمة ذراعيها حول عنق عمر منتحبة:

- كلا! ليس بعد، ليس بعد.

فكّ عمر ذراعيّ فاطمة عن عنقه، ووضعهما فوق صدره:

- يجب أن أذهب.

ضمّها إليه بشدة، ثم أودعها ذراعيّ وليد:

- أعدك بأن أرجع.

# 19

مكتبة

على طول الأيام الستة اللاحقة، كانت العائلة تتحلّق حول المذياع في بيت ماما صبحية. يجلس الجميع وكأن على رؤوسهم الطير ويتابعون أنباء المعارك قرب هضبة الجولان على الجبهة السورية، تحركات القوات المصرية في سيناء والجهود الأردنية في الضفة الغربية.

احترامًا لفترة حداد ماما صبحية، حاول شريف ووليد السيطرة على حماسهما عند الإعلان عن اجتياز الجيش المصري سيناء متجهًا نحو صحراء النقب، ومنها إلى تل أبيب. كلّ مساء، كانا ينضمان إلى الرجال في المقهى المحلي لمتابعة الأنباء ومناقشة آخر التطورات. من كان لهم أبناء أو إخوة في الجيش تباهوا بانتشاء الظافرين بين أصدقائهم، أدلى شريف بدلوه هو الآخر متبجحًا بصلته بملازم ثان عمر بكري.

ذات مرة، قفز شريف فوق طاولة صغيرة متفاخرًا:

- كنت أساعد عمر على التدرّب في البيت حتى قبل انضمامه إلى الكلية الحربية.

صكّ وليد على أسنانه وابتلع ردًا نابيًا. كان شريف يتظاهر أمام الجميع بأنه وعمر من أعزّ الأصدقاء، وكأن عداوته الصارخة تجاه عمر بسبب ارغامه على إنقاذ شرف العائلة أمرا لم يكن. بأي حق يزعم لنفسه أيّ إنجاز من إنجازات عمر في هذه الحرب؟

أعلن جار كبير في السن عن تقديم الشاي على حسابه لجميع من هم في المقهى متباهيًا:

- ابني في سلاح المشاة، أراهن أنه في طليعة فرقته العسكرية وسيكون أول من يطأ تل أبيب بقدميه.

صرخ رجل آخر من إحدى الزوايا:

- ابن أخي يقاتل في سلاح الجو، طائرته الحربية ستحلق أولًا فوق المدينة.

عمّت الفرحة الأجواء، وتعالت الهتافات في الطرقات على مرّ الساعات. ضجّ الناس بهتافات النصر بعد أن أذيع عليهم فيض من أنباء تقدم الجيوش العربية

الثلاثة لتحرير فلسطين. كان وليد يقصّ بعض ما يجري في المقهى على مسامع فاطمة لدى عودته إلى البيت، فتشتعل جذوة آمالها وطموحاتها أكثر.

رغم قلق فاطمة البالغ على مصير عمر، لم يكن بوسعها ألا تحلم بالعودة إلى بيت أبيها في القدس والحديث عن ذلك مرارًا. كان وليد واثقًا من قدرة الجيوش العربية الثلاثة مجتمعة على سحق الجيش الإسرائيلي، هو والجميع. فقد كانت البيانات العسكرية على الإذاعة تؤكد على حتمية النصر، والأغاني الوطنية تعمّ موجات الأثير بين فترات بث آخر التطورات. أذكت أم كلثوم الحماسة القوميّة بصوتها العتيد وأغانيها الوطنية، وأسهم مطربون آخرون في ذلك أيضًا، بينهم عبد الحليم معبود الجماهير الشابة الذي كانت نادية متيمة به. امتطى كل لاجئ فلسطينيّ، كبر أو صغر، صهوة الفورة الحماسية؛ إنهم عائدون قريبًا إلى أرض الوطن.

مالت فاطمة برأسها مسترخية بين ذراعي زوجها، واقتفت حنك وليد بإصبعها:

- هل تظن أن بيت أبي ما زال قائمًا؟

غمغم وليد بكلمات غير مفهومة وهو يغالب النعاس.

انقلبت فاطمة إلى جنب وقبّلت ذقنه: هل تظن ذلك؟

فتح عينيه: لا أدري.

- أتذكّرُ رائحة البيت في الفجر، أريج البرتقال والليمون في بستاننا مختلطًا برائحة الزعتر وزيت الزيتون. كل صباح، كانت أمي تخبز أقراص الزعتر البريّ لوالدي قبل انطلاقه لفلاحة أرضه.

لعق وليد شفتيه:

- أقراص الزعتر البريّ تثير شهيتي الآن، هل عندنا شيء منها؟

تنهدت فاطمة:

- سأخبزها لك في الصباح.

مرّغ أنفه في عنقها:

- ولماذا ليس الآن؟ إنني جائع.

- لن أقرقع بأواني المطبخ في منتصف الليل، ماذا سيجول في رأس والدتك؟

صعد بيده إلى أعلى رجلها:

- أمي تعتقد أني أكثر رجل محظوظ في هذا العالم.

تابع قوله بنبرة فيها بُحّة وإغواء:

- ألديك الرغبة في زيادة نهمي كي أستحق أكثر جهدك في صنع الأقراص؟

أفلتت فاطمة من بين ذراعيه، ورمت برأسها فوق مسند السرير:

- إنني أحاول قول شيء لك، الأمر مهم.

تسللت يد وليد تحت قميص نومها:

- أكثر أهمية مني؟

دفعته بمرح بعيدًا عنها:

- الحديث إليك مستحيل، إنني جادة فيما أقول، لم لا تصغ لي؟

زحف وليد على قدميه وركبتيه ثم دفع برأسه إلى الأمام:

- كلّي آذان صاغية.

احتضنت وجهه براحتيها:

- هل تدري لم سألتك عن بيت والدي؟

- ستستردين بيتك يا فاطمة، أعدك بأنني سأبنيه ثانية حتى وإن كان قد سويّ بالأرض.

- عظيم.

هبطت براحتيها إلى بطنها واستأنفت:

- لأنني أرغب في ولادة ابني على أرض أبي.

مرت ثوان عدة قبل أن يستوعب وليد ما قالته، وعندما أدرك، جحظت عيناه ووضع يده فوق يديها ثم غصّ بالقول:

- هل أنت متأكدة؟

أومأت:

- ثلاثة أشهر.

قفز من السرير مهرولًا خارج الغرفة وهو يصيح على أمه:

- أم وليد! سأصبح أبًا!

زفّ وليد الخبر لماما صبحية في الصباح مقدمًا لها ألذّ طبق كنافة صنعته أمه في حياتها:

- إن كان صبيًا، سنسميه فوزي، على اسم أبي بالطبع.

كان تقديم الحلويات في الصباح حدثًا استثنائيًا ولأجل الاحتفال بالخبر السعيد فقط، كما كانت تلك أول طلعة لماما من البيت في فترة الصباح.

متشحة بالسواد وفوق كتفيها طرحتها البيضاء، تبسّمت لصهرها:

- بالطبع، وإن كانت بنتًا؟

ردت فاطمة بحزم ودون تردد:

- مريم، على اسم أمي.

بعدما تعبت من استخدام الشوكة، راحت فرح الصغيرة تلعق أصابعها مصدرة أصواتًا مزعجة:

- فاطمة، والدك متوفى أنت الأخرى. لم لا تطلقين اسمه على ابنك؟

منحت فاطمة فرح ابتسامة أمومية رقيقة عذبة:

- تخليد اسم الأب حقّ من حقوق الأبناء الذكور لا الإناث.

استدارت فرح صوب سميرة:

- عندما تلدين صبيًا، شريف سيصبح أبا مصطفى؟

طبطبت ماما عينيها بمنديلها.

ربتت سميرة على رأس فرح وخيط من الجبن يتدلى من شفتها السفلى ثم قالت:

- لن يكون هذا قريبًا، شريف ليس جاهزًا بعد للبدء في إنجاب الأطفال.

جاهلة بأسباب زواج سميرة، حاولت فرح اللعب بخيط الجبن:

- ولم لا؟

دفعت هدى يد فرح بعيدًا:

- هذا الموضوع غير مناسب لمن هم في مثل سنك.

أثقلت نبرة هدى الحادة جو الغرفة زيادة على ما كان عليه:

- تناولي ما في صحنك، ولا تتدخلي في شؤون الكبار.

دون أن تنزعج من هدى، لعقت فرح رسغها متتبعة قطرة من «القطر»:

- ما اسم أبيك يا فاطمة؟ لا أعتقد أني سمعته من قبل.

حملت نبرة فاطمة مزيجًا من الفخر والحبور:

- جمال، جمال علي بكري.

- عمر سيصبح أبا جمال إذًا؟

كانت نادية تتابع الحديث من الزاوية التي جلست فيها، رفعت رأسها عند ذكر اسم عمر:

- دعونا نفتح المذياع من فضلكم، فاتتنا نشرة التاسعة.

وضع وليد صحنه من يده، ثم شغّل المذياع وأدار مفتاح التحكم في الصوت إلى الحدّ الأقصى قائلًا:

- حسنًا.

أشارت أم وليد لخفض الصوت قليلًا وهي تقول:

- إنها على العموم الأخبار نفسها.

امتثل وليد لطلب أمه، لكنه ظل عند المذياع مبقيًا أذنًا مع الأخبار وأخرى مع النساء.

رفعت أم وليد راحتيها إلى الأعلى:

- يا الله انصر قواتنا عن قريب! عندما يصلون تل أبيب، أقسم أنني سأخضب شعري بالحناء وأرقص فوق السطح.

استدارت نحو ماما:

- حينها يجب أن تسامحيني يا عزيزتي.

- سأخلع ثياب الحداد وأنضم إليك حال عودة عمر إلى البيت.

اقتحمت لعنة وليد حديث المرأتين وأخرست ماما، رفع الصوت ثانية.

توالت على عجل أنباء تراجع كبير للقوات المصرية، وإصدار عبد الحكيم عامر، رئيس أركان الجيش المصري، أمر انسحاب تكتيكي من سيناء إلى قناة السويس.

وثبت فاطمة مثل زنبرك من مقعدها:

- ماذا جرى؟

كما لو أن المذيع سمع سؤالها، تابع صوته المتكدّر النشرة بلا وهج وحماس الأيام الستة الماضية. بعد تدميره معظم الطائرات الحربية المصرية خلال الضربات الجوية الأولى، سدد سلاح الطيران الإسرائيلي ضربات مروعة لسلاحي الدبابات، والمدفعية على الأرض منزلًا خسائر جسيمة في صفوف القوات البرية.

محدّقًا بالمذياع وهو غير مصدق، وضع وليد يديه فوق رأسه:

- الرحمة، يا إلهي! هذه كارثة!

توالت الأنباء المروعة تباعًا. تكرر نفس السيناريو في الجبهة السورية؛ دون غطاء جوي، تداعت القوات السورية وسقطت هضبة الجولان بيد الإسرائيليين.

صرخ وليد في المذياع:

- لماذا بحق الجحيم لم نسمع بهذه التفاصيل من قبل؟

ذهبت فاطمة إلى جانبه:

- هل هذا صحيح؟ هل كانوا يكذبون علينا؟ أم هم الآن يكذبون؟

ارتجفت يد وليد وهي تدير قرص تغيير القنوات:

- لعل هيئة الإذاعة البريطانية لديها تغطية إخبارية أفضل.

أكد مذيع «بي بي سي» الأنباء المروعة مضيفًا أن إسرائيل استولت على الضفة الغربية والقدس الشرقية كذلك.

هوى وليد أرضًا، لم تتحمل ركبتاه وقع تلك النتيجة المأساوية. سقطت فاطمة بقربه وانتحبت:

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، الأسبوع الماضي كله أكاذيب؟ كلها أكاذيب؟

أطلقت أم وليد سيلًا من الدعوات واللعنات، سألت الله أن ينزل غضبه على كل من هو مسؤول عما جرى، وأن يحيق بالإسرائيليين اللعنة الأبدية، ومعهم الساسة المضللون، وصحفيو إذاعة صوت العرب على تقاريرهم الدعائيّة المغلوطة، وصولًا إلى جمال عبد الناصر نفسه.

أصيبت ماما بحالة من الإغماء التخشبيّ؛ تيبّس جسدها كله، وتجمّدت عيناها في نقطة بين المذياع ورأس فاطمة.

أحاطت نادية أمها بذراعيها:

- عمر سيكون بخير.

كررت مرارًا ثم أومأت صوب سميرة:

- وشقيقك أحمد كذلك.

انهارت سميرة وشرعت بالبكاء.

ركعت هدى التي كانت أول من أفاق من الصدمة قرب فاطمة، وناشدتها الوقوف على قدميها قائلة:

- وليد، ساعدني لنأخذها إلى السرير، هذا يضرّ بحالتها.

أخرجت نبرة هدى الآمرة الجميع من حالة الذهول. على نحو غريب، كان هناك شيء معقول في نبرتها تلك التي يفترض أن تفاقم حدّة الوضع. أكدت رباطة جأشها التي تنمّ عن أعصاب ثابتة صحة الأنباء التي كشفت للتوّ. أجل، حدث هذا، الجيوش العربية الثلاثة هزمت.

بالعودة إلى البيت، فتحت نادية الباب فأطل وجه شريف الكئيب قائلًا:

- الجميع في حالة ذهول، خرج الناس إلى الطرقات لكن أحدًا منهم لا يدري ما ينبغي عليهم فعله.

سقط فوق الكنبة وفرك عنقه:

- يستحسن بي الذهاب إلى المصرف، سأسحب ما أقدر عليه من النقود.

سألته نادية:

- لم؟

- يجب أن نفرّ من هنا.

أمسكت جانبيّ الباب بيديها الاثنتين:

- كنت أظن أن جيوشنا على مشارف تل أبيب، أتعتقد أن الإسرائيليين سيصلون دمشق؟

أومأ برأسه:

- طائراتهم الحربية قد تحاول ذلك ونحن نعدم وسيلة صدهم. ما سمعناه

من المذياع كان مجرد أخبار دعائية لرفع المعنويات.

اختنق صوتها ببلوغ الكلمة الأخيرة:

- إلى أين نذهب؟

دخلت ماما بمشية عسكرية إلى الغرفة:

- لن نذهب إلى أي مكان.

وثب من الكنبة:

- أنا رجل هذا البيت ومن واجبي أن أحمي الجميع. وأنا أقول يجب أن نتجه شمالًا بعيدًا عن العاصمة.

شبكت ماما ذراعيها فوق صدرها:

- سنظل هنا إلى أن يرجع عمر.

- أعداد القتلى مهولة قد لا يعود عمر أبدًا.

ترنحت ماما خطوتين إلى الوراء بعد أن لطمتها كلمات شريف في عرض وجهها.

توجهت نادية إليها وطوقتها بذراعيها:

- إنك لا تعلم ذلك يقينًا.

رفع شريف ذراعيه إلى جنبيه ثم تركهما تسقطان بإحباط:

- ليس بإمكاني أن أعرف إن كان حيًا أو ميتًا، لا أحد يستطيع معرفة ذلك. حاول إخوة سميرة معرفة مصير أحمد، ولكنهم لم يتوصلوا إلى شيء. إن الأخبار تأتي تترى بأن دمشق ستقصف لا محالة، الإسرائيليون قادمون، ولا نستطيع المكوث هنا.

صرخت ماما والدموع تنهمر فوق وجنتيها:

- دعهم يأتوا! خسرنا بيتنا مرة، دعهم يحاولوا أخذ هذا البيت أيضًا، دعهم يروا ما سيحدث، دعهم يحاولوا !

ربتت نادية على كتفيّ أمها:

- أرجوك أن تهدئي.

في تلك اللحظة، عبرت هدى باب البيت:

- سمعت أصواتكم من الشارع، ما الذي يجري؟

سألتها ماما بصوت مبحوح:

- كيف حال فاطمة؟

- أحسن، وستصبح بخير حال أن تهدأ أعصابها. سيحرص وليد على عدم سماعها الأخبار. ما سبب صراخكم؟

أرجحت ماما يدًا باتجاه شريف:

- أخوك يريدنا أن نهرب من المدينة.

لجأ شريف إلى هدى:

- قولي لها فهي لا تصدقني. قد يسقطون قنابلهم فوق رؤوسنا بين لحظة وأخرى.

- هذا صحيح.

استدار نحو أمه:

- أرأيتِ؟ لا نستطيع انتظار عمر، الله وحده يعلم ما جرى له.

ضيّقت هدى عينيها:

- إن كنت تريد الهرب، فخذ زوجتك وانصرف. أما أنا فسأتطوع في إحدى المستشفيات لمساعدة الجرحى.

وضعت يدها فوق كتف نادية:

- جئت لأرى إن كنت تحبين الذهاب معي فهم بحاجة إلى المساعدة. أعرف أنك قادرة على تحمّل ما سترينه هناك.

ردت نادية على هدى وقبلت يد أمها:

- هذا أقل الواجب، ادعي لنا يا ماما.

توجهت ماما صوب الباب:

- اذهبا، سأتكلم مع الجيران لجمع البطانيات وما شابه من احتياجات.

رمت هدى شريف بواحدة من نظراتها الحادة كنصل خنجر:

- إنهم يدعون الناس للتبرع بالدم.

مسحته بعينيها من الرأس وحتى أخمص القدم:

- بوسعك التخلي عن قدر منه، أنا متأكدة من ذلك.

## 20

تحدت رائحة المستشفى النفّاذة نادية في الإبقاء على ما في معدتها، وهزّت أبخرة محاليل التعقيم وما يختلط بها من رائحة الدم قدرتها على التماسك. كُلّفت بسبب عدم تلقيها أي تدريب طبي بالعمل في أحد مراكز التبرع بالدم في المستشفى المركزي وسط البلد. سدّت نادية أنفها للسيطرة على ما ينتاب معدتها من تقلصات وسجّلت باختصار وعلى عجل أسماء وأعمار من توافدوا على المركز. كانت وجوههم تبدو هرمة قبل أوانها من هول الفجيعة.

اختفت هدى داخل المستشفى لمساعدة الممرضات، فسيل الجنود المحولين من المستشفى العسكري يكاد لا ينقطع. عمد أطباء الجيش إلى إرسال الحالات الخفيفة إلى المستشفيات المحلية كي يتدبروا فيضان الجرحى الهائل.

منشغلة في أداء عملها، قلبت نادية صفحة جديدة في سجل التسجيل. دون أن ترفع رأسها، طرحت السؤال نفسه للمرة الألف منذ وصولها:

- الاسم؟

- مروان برادي.

تجمّدت يد نادية فوق الصفحة البيضاء. رفعت رأسها، صديق عمر. كان مقطب الجبين وعيناه في محفظته لالتقاط بطاقته المدنية. قدّم هويته فالتقت عيناه بعينيها.

أحدثت المفاجأة زلزالًا في صوته العميق فتلفّت من حوله:

- نادية ! هل أنت هنا وحدك؟

باغتها ما في سؤاله من استصغار، لكنها استأنفت عملها بتسجيل المعلومات الخاصة به في السجل:

- هدى في الداخل مع الممرضات.

رمته بنظرة متحدية وتابعت القول:

- إنني أبلغ ما يكفي من العمر للقيام بواجبي.

تململ مروان، إما خجلًا أو عجلة، لم تستطع التخمين على وجه الدقة.

أبقى عينيه في عينيها وقال:

- هل شريف هنا أيضًا؟ سأذهب إلى المستشفى العسكري حال انتهائي من هنا لأسأل عن...

ابتلع بقية جملته.

رفعت نادية حاجبيها.

تابع قوله:

- كي أرى إن كانوا بحاجة إلى المساعدة، يمكنني أن آخذ شريف معي.

- من الأفضل ألا تنتظر شريف، ليس لدي فكرة إن كان سيأتي أم لا.

أعادت إليه بطاقته:

- هل لديك أقرباء في الجيش؟

أومأ مروان وهو يلوي فمه إلى جنب:

- ثلاثة من أبناء عمومتي.

ما الذي يعنيه بتلك الحركة؟ لو أن لديها فقط خبرة أكبر في قراءة الرجال:

- أتمنى أن يعودوا سالمين.

دسّ بطاقته في محفظته:

- شكرًا لك، حاولت أن أتجند، لكنهم رفضوني.

الإحراج، ذاك هو التعبير الذي لم تتمكن من قراءته في وجهه، كان يشعر بالخجل لأنه شاب صحيح الجسم ولم يقاتل إلى جانب أبناء عمومته.

- أعرف. أنت مثل شريف، ابن وحيد.

أشارت نادية إلى ستارة من خلفها:

- إنهم بحاجة إليك هنا.

بسط مروان كفيه فوق الطاولة ومال نحوها:

- كل شيء على ما يرام في البيت يا نادية؟

باقتراب وجهه كثيرًا من وجهها، احمرّت وجنتاها وأومأت على عجل.

تابع بلهجة ملحة وصادقة:

- أمك بخير؟ هل هناك ما أستطيع فعله؟ هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟

دفعها شيء دافئ في عينيه الداكنتين إلى مدّ يدها ولمس يده قائلة:

- عندما تسأل عن أبناء عمومتك، هلا حاولت السؤال عن عمر أيضًا؟

اعتدل مروان وسحب يده. ألقى نظرة خاطفة صوب من يتجمهر من رجال بقربه، ثم رفع صوته ووجه كلامه باتجاههم:

- سوف أسأل عن قريبك في المستشفى العسكري.

أعاد إلى النظر في عينيها:

- أرجوك اتصلي بأختي على رقم البيت في حال احتياج العائلة لأي شيء،

هل لديك رقمنا؟

نظرت نادية صوب الرجال فرأتهم منهمكين بالحديث عن الحرب، ولا يبدو أنهم يلاحظون كلامها معه، قالت:

- أعتقد أنه لدى هدى.

ثنى مروان كمّ قميصه، منحها طيف ابتسامة، واختفى خلف الستار.

في تلك الليلة، زحفت نادية إلى سريرها زحفًا بعد أن استحمت، ونثرت وسادتها بالعطر محاولة طرد رائحة المستشفى من أنفها. كانت غرفة النوم من نصيبها هي وهدى فقط هذه الليلة، فماما أخذت الصغيرتين إلى غرفة نومها لتمنحها وهدى جوًا من الهدوء بعد نهار طويل ومستنزف عاطفيًا.

مغلقة عينيها، فكرت نادية في مروان، عينيه الداكنتين المبهمتين، يده الخشنة التي لوحتها الشمس، كبريائه وقلقه. انتظرته ليعود إليها بأخبار عن عمر، لكن النهار انقضى ولم تره ثانية. جاء شريف عصرًا وتبرع بالدم، ولكنه لم يكترث كثيراً بما قالته له عن جهود مروان في العثور على عمر.

محتضنة وسادتها بقوة، فكّرت في هدى الراقدة في سريرها على الطرف الآخر من الغرفة. أثناء عودتهما إلى البيت، غلب الشرود والصمت على هدى وارتسم فوق وجهها تعبير غريب. معتادة على رؤية الدماء، لا يمكن أن يكون ذلك جراء صدمة تمريضها للجنود المصابين. ثمة شيء آخر دفعها للانكفاء عميقًا داخل نفسها،وجعلها تبدو هشة ضعيفة. إنها لم تر هدى على ذلك النحو من قبل أبدًا، أصيبت نادية بالحيرة والارتباك، ولم تعرف كيف تخفف عن أختها.

قلبت نادية نفسها، واستلقت على ظهرها، ثم نظرت صوب النافذة. في مثل هذه الليالي، وعندما يراوغها النوم، كانت تحملق في القمر وتدع خيالها يحلّق بها إلى أماكن بعيدة. لكن في هذه الليلة، ألواح النافذة الزجاجية مدهونة بأزرق غامق، فقد نفّذ شريف ما أذيع على الناس من تعليمات لحماية البيوت من هجمات جوية محتملة. لكنّ عمله لم يكن متقنًا، نسي دهن الزوايا التي كانت أشعة القمر تتسلل منها إلى الغرفة. ضيقّت عينيها كي تختلس النظر إلى القمر من إحدى تلك الزوايا، فأبصرت المحاق يتلاشى جزعًا حزينًا. أصبح كل شيء من حولها يثير الكآبة، وعمّ الغم والهم جميع الناس، يبدو أن القمر قد فقد الأمل هو الآخر.

ركّزت في ظلّ داكن قرب سلك الضوء المتدلي من السقف. عندما توفي بابا قالت ماما لشقيقتيها الأصغر إنه في السماء حي يرزق ويرعاهما عن بعد. هل تولى عمر بالرعاية أيضًا؟ هل حفظه سالمًا؟ هل يرده إلى البيت؟

وصلها صوت حازوقة مكتوم من الطرف الآخر للغرفة. رفعت نادية رأسها

فسمعت شهقات بكاء من زاوية هدى. تركت سريرها ومشت حافية القدمين لتقف فوق هدى:

- هل أنت بخير؟

كانت هدى مستلقية على جنبها في مواجهة الحائط، هزّت رأسها وجذبت الغطاء فوق كتفيها بشدة.

- هل تشعرين بالبرد ؟

شعرت نادية بموجة من القشعريرة لا علاقة لها بالطقس تسري في عمودها الفقري. صاربكاء هدى أعلى وأوضح، رفعت نادية حافة الغطاء ثم اندست تحته ولفّت ذراعيها حول أختها:

- إني أشعر بالبرد أنا الأخرى.

في الساعات الأولى من الفجر، أطاح انفجار مدوٍ بنادية وهدى من السرير. تشبّثت نادية بأختها في لحظة الصمت التي تصمّ الآذان عقب الانفجار بعد أن تجمّدت كل عضلة في جسدها بما فيها رئتيها.

صفعتها هدى وصرخت فيها: «تنفسي!»

ثقب هدير سيارات الإسعاف سكون الصمت المشحون، هرولتا إلى الخارج وانضمتا إلى الآخرين في الممر بين الغرف. كان شريف يضم سميرة بين ذراعيه وماما تبقي الصغيرتين إلى جانبها.

تساءلت ماما:

- ما هذا؟ أين وقعت الضربة؟

ردّ شريف:

- أعتقد في منطقة أبي رمانة، من المحتمل أنها استهدفت قواعد الجيش.

جلست ماما على الأرض وجذبت الصغيرتين إلى حجرها:

- لا تخافا، لا تخافا.

قرع الباب فاضطر شريف إلى ترك ما يوفره الممر من سلامة محدودة ثم عاد بعد ثانيتين قائلًا:

- جارنا، السيد رافد، سأل عن سلامتنا.

رمى بنفسه أرضًا إلى جانب زوجته.

صاحت فيه هدى صيحة شبيهة بالنباح:

- ماذا تفعل؟

حملق فيها شريف فاغرًا فمه:

- ماذا؟

دفعته من كتفه بعنف:

- انهض! اذهب وساعد السيد رافد على الاطمئنان على الجميع، أنتما الرجلان الوحيدان في البناية.

تشبّثت سميرة بذراع شريف:

- نحن بحاجة إليه هنا.

أسندت ماما رأسها إلى الحائط، وأغلقت عينيها:

- اذهب يا بني، ولندعُ ألا يكون أحد قد أصيب بأذى من تحطم زجاج النوافذ أو ما شابه.

مشى شريف إلى الخارج بعد استبدال ملابسه فيما كانت زوجته تتوسل إليه ألا يخرج طيلة الوقت.

رنّ جرس الهاتف، فردت هدى. سحبت نادية من ذراعها وتوجّهت إلى غرفة النوم:

- إنها أم وليد. ارتدي ملابسك بسرعة. وليد في طريقه ليصحبنا إلى بيته، فاطمة تنزف.

ركضت نادية إلى الحمام بسطل من أغطية السرير المتسخة للمرة الثالثة.

لحق بها وليد:

- ما أخبار فاطمة؟ ماذا يجري؟

- لا أدري.

وضعت الأغطية البالية في كيس ثم أفرغت السطل في المرحاض. اندلقت مياه حمراء على قدميها ومقدمة فستانها فأصيبت بالذعر، حاولت تنظيف نفسها بسكب ماء نظيف من المغسلة.

جذبها وليد من مرفقيها:

- هل هذه دماء ابني؟

كان وجهها مبللًا بالعرق والدموع تمتمت قائلة:

- لا أدري.

افترست عيناه المرعبتان عينيها:

- هل مات ابني؟

كررت القول أعلى هذه المرة:

- لا أدري.

هزّها وليد:

- اللعنة، تكلمي قولي لي شيئًا.

صاحت:

- لا أعلم شيئًا! كل ما أراه هو الدم وهنّ منشغلات جدًا عن قول أي شيء

لي.

دفعته عنها:

- يجب أن أرجع.

هزّ انفجار مدوٍ الغرفة فأطاح بنادية أرضًا وارتطم وليد بالحائط. ساعدها على الوقوف على رجليها، وركض إلى غرفة النوم.

هرعت أم وليد لتمنعه من الاقتراب أكثر من السرير:

- تمكنت هدى من السيطرة على النزيف لكن يجب أن نحمل فاطمة إلى المستشفى.

رفعت أم وليد يديها:

- لم يعد بمقدور هدى فعل المزيد.

استحوذ القلق على صوت وليد:

- جهزاها، سأوقف سيارة أجرة.

قالت هدى من فوق كتفها:

- لن تعثر على سيارة أجرة وسط هذه الفوضى.

كانت تجلس على حافة السرير مقابلة فاطمة ومولية ظهرها لوليد:

- ولن تصل أي سيارة إسعاف إلى هنا في الوقت المطلوب، ستكون الآن في طريقها صوب مواقع القصف.

تقدمت نادية و حاشية فستانها تنزّ ماء، قالت:

- مروان برادي عنده سيارة، أنا متأكدة أنه سيمد لنا يد العون.

أثنت هدى على كلامها:

- صحيح، اتصلي به، رقمه في الكتاب البنيّ الصغير في حقيبتي. وليد، اجلب مزيدًا من البطاطين. أم وليد، أحضري لي ثوبًا نظيفًا.

# 21

قاد مروان سيارته بما كان متاحًا له من سرعة محاولًا شقّ طريقه وسط ما تعجّ به الشوارع من فوضى واضطراب. كانت زحمة السير شديدة وعشرات السيارات تحاول الوصول إلى المناطق المقصوفة مستهدية بأعمدة الدخان. المارة في الشارع يتراكضون بفزع وهم يصرخون على أولادهم للعودة إلى البيوت.

ركض وليد إلى المدخل الرئيسي للمستشفى، وفاطمة بين ذراعيه وأمه وهدى تحاولان اللحاق به.

لمس مروان مرفق نادية: ستكون بخير.

ردت نادية: يجب أن أذهب معهم.

لكنها لم تتحرك من مكانها، بعد لحظات، لوت جسدها جانبًا، ثم مالت وتقيأت قرب إطار السيارة الخلفيّ. بعد انتهاء ما ألمّ بها من تشجنات، اعتدلت وردّت شعرها إلى الوراء بعد أن فلت معظمه من شريطه الأزرق.

قالت وهي تلهث:

- هدى مخطئة لا قدرة لي على تحمل الدم لا رائحته ولا منظره.

قادها مروان إلى المقعد الأمامي ويداه تحوّمان فوق كتفيها دون لمسهما:

- سآخذك إلى البيت، لا بد وأن أمك في غاية القلق.

حالما انطلقت السيارة، عبرت طائرة السماء أمام ناظريهما، فطوت نادية نفسها وشبكت يديها خلف رأسها وصرخت بأعلى صوتها: قنابل! قنابل!

أوقف مروان السيارة. شقّت نفّاثة أخرى عنان السماء فمدّ عنقه خارج النافذة قائلًا:

- إنها طائراتنا الحربية تطارد الطيار الإسرائيلي.

فكّت نادية يديها ورفعت رأسها:

- طائراتنا؟ هل أنت متأكد.

- متأكد.

رفعت ظهرها واعتدلت: لكنهم قالوا في المذياع إنه لم يعد لدينا طائرات.

فرد مروان ذراعه فوق عجلة القيادة:

- أظن أن بعضها قد نجا. رأيت واحدة منها وأنا في الطريق إليكم والآن

هاتان الاثنتان. لا يعني ذلك أنها ستحدث أيّ تغيير ابن كلـ... أيّ تغيير الآن.

حدّق في السماء:

- انتهى الأمر.

- هل نما إلى علمك أيّ شيء عن عمر؟

- أرسلت كتيبة عمر إلى الجبهة الأمامية في مطلع الحرب.

سحبت نادية نفسًا حادًا.

تابع مروان:

- سأواصل البحث.

- وأبناء عمك؟

شغّل السيارة من جديد:

- عاد اثنان منهما. لم يتمكنا من فعل أيّ شيء، وقع الانسحاب حتى قبل وصولهما إلى الخطوط الأمامية. ما زلت أبحث عن ثالثهما.

ارتجفت شفة نادية السفلى: أريد أن يعود عمر إلى البيت.

نطق مروان كلمته من بين أنفاسه شاكًا في أن نبرته مطمئنة: سيعود.

أغمضت عينيها وهزّت رأسها: لا أصدق أن ثلاثة جيوش خسرت الحرب وخلال ماذا؟ ستة أيام؟

انفكّ شريط شعرها الأزرق تماما وسقط فوق كتفها، ثم انزلق بين المقعدين.

تتبعت عينا مروان الشريط. دسّ إصبعين في الفرجة الضيقة وانتزعه وأودعه جيب قميصه. ماسحًا نادية بعينيه، اعتراه القلق من مظهرها؛ شعرها فوضى عارمة، فستانها متسخ ومبقع، حذاؤها الأبيض تعلوه طبقة سميكة من الدماء المتيبسة. كتم أنفاس محرك السيارة.

فتحت نادية عينيها:

- الوضع ليس آمنًا بعد للإنطلاق؟

- هل تعرفين إن كان شريف في البيت؟

- ليس لدي أي فكرة. لقد ذهب للاطمئنان على الجيران قبل خروجي، يجب أن يكون قد عاد بحلول هذا الوقت. لم تسأل؟

أدار مروان رأسه إلى جنب متفاديًا النظر في عينيها:

- لا أستطيع أن آخذك إلى البيت.

- هل من مشكلة؟

- لا بدّ لنا من المرور ببيتي أولًا.

انتصبت نادية بتشنج:

- أين شطحت بك الظنون؟ أتحسبني من إياهنّ.

- شقيقاتي هناك، أقسم لك. أريدهنّ أن يأتين معنا.

- لماذا؟

- لا ينبغي لأحد أن يراك وأنت تتركين سيارتي بلا مرافق، شريف على وجه التحديد.

أنزل مروان بصره إلى حجره:

- أعتذر عن صراحتي، لكنني أعرف طريقة تفكيره. لن أضعك في موقف يضطرك إلى تبرير أي شيء، لا لشريف أو لأي كان.

وضعت نادية يدها على مقبض الباب:

- لا أصدق! وسط كل ما نحن فيه تنشغل أنت بأمور كهذه!

- شريف هو من سيفكر في مثل هذه الأمور بحثًا عن مستمسك ضدي.

- ولماذا يفعل ذلك؟ لقد ساعدته على إتمام زواجه، أليس كذلك؟

- إنه لا يرى الأمر على هذا النحو.

- ماذا تعني؟

ندم مروان على كلماته لحظة أن نطق بها، لم يكن متأكدًا من مدى معرفة نادية بدوره في إرغام شريف على القيام بما يقتضيه الواجب تجاه سميرة. مساعدة لم تكن بالكلمة الصحيحة، لقد ساند عمر في حبس وضرب شريف، توخيًا للدقة في التعبير. هز رأسه قائلا:

- ليس من رجل يحب أن يكون مدينًا للآخرين في أمر كهذا.

دفعت الباب وهمت بالنزول:

- لن أفهم الرجال أبدًا، سأذهب إلى البيت مشيًا على الأقدام.

- هذا ليس بحلّ، هل تعتقدين بأنني سأتركك تمشين بمفردك وسط هذه الفوضى؟

أنزلت نادية قدمًا من السيارة.

قبض على رسغها:

- اسمعي، لست مضطرة إلى دخول بيتي. ابقي في السيارة، سأطلب من أخواتي أن يخرجن إليك.

حدّقت فيه بغضب:

- دعني.

سحب مروان يده ووضعها فوق صدره:

- إنك لا تعرفين أي صنف من الرجال أكون، طلب عمر مني أن أحيطك بالرعاية والانتباه في غيابه، وهذا ما أنا بصدد فعله.

عند ذكر عمر، توقفت نادية:

- تحيطني بالرعاية والانتباه!

رفعت يديها بقوة في الهواء، وانفجرت بحنق:

- إنني لم أعد طفلة صغيرة!

قال بصوت مهزوز:

- هذا ما قصدته بالضبط.

سحب نفسًا عميقًا:

- أقسم بشرفي، إنني لا أفكر إلا في مصلحتك.

أطل التردد من عينيها:

- كم تبلغ المسافة من هنا إلى بيتك؟

- نصف ساعة، ولكن في هذه الفوضى العارمة قد نستغرق وقتا أطول.

- سأجلس في الخلف.

ركن مروان السيارة قرب زقاق ضيق، وأشار صوبه وهو يخرج من السيارة:

- لا يمكن دخول السيارة، بيتي هو الثاني إلى اليمين. سأعود في الحال.

بعد دقيقتين، خرجت من الزقاق فتاة طويلة تحمل كيسًا كبيرًا، فتحت باب السيارة وانزلقت في المقعد الأمامي وابتسامة رقيقة فوق وجهها:

- مرحبًا نادية، أنا رحاب، هل تذكرينني؟ لقد تقابلنا في عرس فاطمة.

- أجل، رحاب صديقة هدى.

ناولتها رحاب الكيس:

- جلبت لك تنورة تستطيعين لفّها فوق فستانك المتسخ.

أشارت بيدها صوب البيت:

- هل أجلب لك ما تستبدلين به حذاءك؟

- شكرًا، لا داعي. التنورة كافية.

- رفعت نادية يديها إلى شعرها:

- لكني بحاجة إلى ما ألمّ به شعري، يبدو أني أضعت شريطي في الشارع.

دسّت رحاب يدها في حقيبتها وناولتها ربطة ومشطًا:

- استعجلي يا نادية، جيراننا فضوليون للغاية.

لفّت نادية التنورة حول خصرها، ضفّرت شعرها وبذلت ما بوسعها ليبدو مظهرها معقولًا: أنا جاهزة.

ضغطت رحاب بوق السيارة مرتين، فخرج مروان من البيت وبنتان من أمامه، كانتا أصغر من نادية، عرّفتاها بنفسيهما قبل أن تجلسا معها في الخلف. رمى مروان نادية بنظرة خاطفة، ثم شغّل السيارة وانطلق. في الطريق، حاولت رحاب فتح موضوع للحديث، لكن نادية ظلت صامتة. انشغلت في مقارنة ما

تبثه طبيعة رحاب من سكينة في النفس بما لهدى من طبيعة جلفة، اثنتاهما لديها القدرة على تحمل المسؤولية وحلّ المشاكل، وإن كان لكل منهما طريقتها الخاصة. تساءلت نادية، أي امرأة ستصبح بعد أن تتبلور شخصيتها؟ امرأة مسكينة بحاجة إلى شخص مثل مروان ليحيطها بالرعاية والانتباه؟ امرأة ضعيفة ومثيرة للشفقة؟

صعدوا جميعًا الدرج إلى شقة أهل نادية، وتخلّف مروان عنهم بمسافة كبيرة.

فتحت ماما الباب:

- الحمد لله، لماذا تأخرت ؟

تفطنت إلى مظهر نادية الغريب وتابعت:

- كلمتني هدى من المستشفى قبل ساعة، قالت إنك في طريقك إلى هنا.

وضعت رحاب يديها فوق كتفي شقيقتيها وقالت:

- إنها غلطتي. أرغمت مروان على أن يعدني بالرجوع إلى البيت حال إيصال الجميع إلى المستشفى. كنت قلقة، فالفوضى تعمّ الأرجاء، كيف حال فاطمة؟

- أفضل، والجنين كذلك. قد تضطر فاطمة إلى قضاء فترة الحمل في السرير.

أمسكت ماما نادية من ذراعيها:

- ما الذي حصل لك؟

همست نادية:

- سأشرح لك لاحقًا، ينبغي أن نشكر مروان أولًا على مساعدته.

- أين هو؟

قالت رحاب:

- يصعد الدرج من خلفنا.

نحّت ماما رحاب جانبًا ثم مدّت عنقها من الباب ونادت عليه:

- تعال يا مروان.

عجّل مروان الخطى.

أشارت ماما صوب غرفة الجلوس:

- تفضل، تفضل. الأوضاع مقلقة للغاية، طلبت من شريف أن يأخذ سميرة إلى عائلتها فأنا لم أعد أحتمل بكاءها، أتوقع وصوله في أي لحظة.

جاءت سلمى وفرح، سلّمتا بحماس على شقيقتي مروان الأصغر.

أسرعت نادية بالذهاب إلى غرفتها، استبدلت فستانها وحذاءها وعادت بتنورة رحاب في كيس بلاستيكيّ.

أخذ مروان الكيس من يدها:

- يجب أن نذهب كي أتفقّد محلي، أتحتاجون شيئا؟ هل عندكم ما يكفي من شموع؟ خبز؟

أمسكت ماما يد مروان بيديها الاثنتين:

- عندنا ما يكفي، لست أدري ما كان سيحصل لفاطمة لولا مساعدتك، شكرًا لك.

- لا داعي، لا داعي.

أردفت ماما بابتسامة محمّلة بالرجاء:

- هل بالإمكان أن تبقى الفتيات عندنا قليلًا؟ جميعنا بحاجة إلى ما يلهينا عما يجري.

اتجهت عينا مروان صوب رحاب، رفع حاجبيه، فأومأت برأسها.

ذكّر ذلك نادية بطريقة عمر في التشاور مع فاطمة قبل اتخاذ قرار. شريف لم يفعل هذا أبدًا لا معها ولا مع سائر أخواته. وخزة من الغيرة اختلطت بالخزيّ في صدرها، متى سيعود عمر إلى البيت؟

اتجه مروان صوب الباب: سأعود بعد ساعتين.

تبعته نادية وفتحت الباب: أشكرك على مساعدتك.

- أخبريني عندما تصبح فاطمة جاهزة للنزول إلى البيت، سأكون سعيدًا بقيادة السيارة.

استدار مروان، خطا خارج الباب وكاد يصطدم بشريف. قلّب شريف عينيه فيهما جيئة وذهابًا ثم قال:

- تقود السيارة بنادية إلى أين؟

مدّ ذقنه صوب مروان:

- ما الذي تفعله هنا؟

شدّ مروان كتفيه ونفخ صدره متحفزًا:

- أوصلت أختك إلى البيت.

احتدّ صوت شريف:

- أهًا! كنت توصلها؟

جذبت نادية ذراع شريف:

- ادخل، دعني أعرفك على أخوات مروان، لقد وصلنا جميعًا للتو.

سحبت شريف إلى الداخل. قبيل إغلاقها الباب، التقت عيناها بعينيّ مروان، افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة وإمارات وجهه تقول بجلاء: «ألم أقل لك؟»

في وقت متأخر من العصر، ارتمى مروان فوق سريره بلا حراك. فرك عينيه من الإرهاق قائلًا في نفسه إنه سيستريح عشر دقائق قبل معاودة الخروج. كان

قد قضى سحابة نهاره في المستشفى العسكري وهو يوزع المستلزمات، ويحدث الجنود المصابين. حاول أن يرفع من معنوياتهم لكن هل من الممكن حقًا أن يهون عليهم هول ما واجهوه؟ فقد هؤلاء عافية أجسادهم، الكثير من أصدقائهم، كرامتهم والأهم من ذلك كله، خسروا الحرب. مع ذلك، لم يألُ مروان جهدًا في التعبير عن مدى الترحيب بعودتهم وفي مواساتهم بالزعم بأن المسؤولين الحقيقيين عن هذا الفشل الكارثيّ سيحاسبون. تقافزت كلماته فوق الحيطان وحطّت جوفاء بلا معنى فوق أجساد الجنود المضمّدة. لكن ذلك لم يفلّ من عضد مروان، ظنّ أنه إن كرر كلماته عددا كافيا من المرات، فربما صدقها هو الآخر.

سأل عن ابن عمه وعن عمر، فأخبره جندي، فقد بصره وفي عرض وجهه أثر جرح طويل، أن اسم عمر ذكر أمامه قبل تحويله من القنيطرة؛ المستشفى العسكريّ الأقرب خلف خطّ الإنسحاب من هضبة الجولان.

وهو ما يزال متمددًا على ظهره، تفحّص مروان ساعته فوجدها تشير إلى الخامسة. يجب أن يتصل بشريف ويبلغه بالخبر، سيعرض عليه اصطحابه في الرحلة التي تستغرق ساعتين. بعيدًا عما بينهما من توتر، لم يكن لديه شكّ في أن شريف يودّ رؤية عمر.

دخلت رحاب غرفته وهي تحمل صينية طعام:

- لن تذهب إلى أي مكان قبل أن تأكل شيئًا.

قامت رحاب منذ وفاة والديهم، بدور الأم فاعتنت بشقيقاتها الأصغر، وأشرفت على شؤون المنزل، وتركت له أمر التفرغ لإدارة تجارة والدهم. وضعت الصينية فوق مكتبه وجلست بقربه قائلة:

- ألا تستطيع تأجيل الخروج حتى الغد؟ منظرك مرعب.

مطّ ذراعيه عاليًا فوق رأسه وقوّس ظهره:

- سأكون على ما يرام.

سحبت رحاب الشريط الأزق من جيب قميصه:

- ما هذا؟

وثب مثل زمبرك مضغوط وخطف الشريط من يدها.

خلَت نبرة رحاب من الحنان الذي كان معتادًا على سماعه منها:

- إنه شريط لشعر البنات، أهو لنادية؟

حاول تصنع البراءة:

- حقا؟ عثرت عليه في السيارة.

- إنها تعتقد أنها أضاعته في الشارع، أنا متأكدة من أنه لها.

فرك مروان الشريط بين أصابعه بضع مرات ثم وضعه قرب سريره.

- ردّيه لنادية عندما ترينها في المرة المقبلة.

أبقى عينيه في الأرض مثل صبيّ أمسك به وهو يخبئ دمية شقيقته تحت بطانيته.

نهضت رحاب:

- لست أنا من عثر عليه. إن توجب على أحد ردّه فيجب أن يكون أنت.

مشت صوب الباب ثم استدارت:

- لا أظنها ستعير فقدانه اهتمامًا على أي حال.

رفع مروان عينيه، حدّقت رحاب فيه بشدة حتى ظنّ أنها قد تلتقط صورة أشعة لصدره وتفضح مكنونات قلبه. إنها تعرف، أخته تعرف أنه كان ينوي الاحتفاظ بالشريط وهي تمنحه الإذن.

- أنت معجب بنادية، أليس كذلك؟

أومأ مروان خجلًا جدًا من قول أي شيء تحت عين أخته الرقيبة.

- إلى درجة التفكير في مستقبل معها؟

قفز على رجليه:

- وماذا يمكن أن يكون غير هذا؟

عادت نبرة رحاب إلى حرارتها المعهودة:

- إذا كان الأمر كذلك، يجب أن ترطّب العلاقة بينك وبين شريف. إنه صاحب الكلمة الأخيرة، لا بد وأنك تعرف ذلك.

تنحنح مروان.

- سأمهد الطريق مع هدى عندما تصبح جاهزًا.

خطى نحو شقيقته كي يحتضنها:

- شكرًا لك.

همس:

- حال أن تهدأ الأمور ويصبح التفكير في مثل هذه الأمور لائقًا، وبعد عودة عمر إلى البيت.

خرجت رحاب وأوصدت الباب من خلفها. اختار كتابًا من فوق سطح مكتبه ووضع الشريط داخل صفحاته، ترك طرفه متدليًا مثل علامة تذكّر القارئ بالصفحة التي بلغها.

# 22

توجه مروان إلى القنيطرة مع شريف، ومنذ أن انطلقا قبل ساعة وشريف ينفث سيجارة تلو الأخرى وكأنه محرك بخاريّ. احترقت أعصاب مروان وحاول تبديد ما يهيمن على السيارة من جو مشحون:

- أعرف أنك مستاء مني يا شريف، أليس في وسعك أن تقدّر بأني فعلت ما فعلت لأجل حمايتك؟

ألقى شريف عقب سيجارته من النافذة:

- لقد نفذّت أوامر عمر. لذا، أجل، أنا أقدّر.

ترك مروان ما في كلام شريف من دسيسة ولم يعلق، رطّب العلاقة بينك وبين شريف، هكذا نصحته رحاب:

- اسمع، كلنا نقدم على أفعال نندم عليها لاحقًا.

قهر مروان نفسه ملطفًا من نبرة صوته:

- أنت رجل متعلم، رجل جامعي. أما أنا فلم أكمل الثانوية. لقد فعلت أفضل ما كان بوسعي على ضوء ما أعرف.

كان في هذا ما يكفي ليرفع غرور شريف إلى السماء.

زحفت ابتسامة بطيئة فوق وجه شريف وأشعل سيجارة أخرى: تابع كلامك.

حاول مروان دفن ضيقه:

- لا أدري بأي حال سنجد عمر. لأجله، ألا يمكننا طيّ صفحة الماضي؟

مال شريف بعنقه إلى الوراء، رفع وجهه إلى أعلى، أطبق شفتيه ونفث الدخان محركًا فكّه السفليّ مثل سمكة خارج الماء. تدافعت حلقات الدخان صوب وجه مروان ثم قال :

- أجل، حسنًا. دعنا نمضي قدمًا.

لوح بيده فتناثر رماد سيجارته التي يحملها بين أصبعيه في الهواء:

- هل اعتبر هذا بمثابة اعتذار؟

صكّ مروان على أسنانه، أحقًا يريد هذا الأحمق رؤية الأمر بهذه الطريقة؟ كيف يمكن أن يكون لهذا الأبله أخت برقة وحساسية نادية؟ شدّ على عجلة

القيادة حتى ابيّضة عُقد أصابعه. رطّب العلاقة، رطّب العلاقة، ظلّ صوت رحاب يطنّ في أذنيه. منح شريف إيماءة مقتضبة وفظّة ثم غمغم بصوت لا يكاد يسمع: «حسنًا.»

مشى مروان وشريف خلف ممرض قادهما عبر ممر طويل في المستشفى الصغير. كانت حيطانه مقشورة وتتدلّى على طول سقفه مصابيح ذات شكل مخروطي تنيره بضوء أصفر. مرّا بغرف على جانبي الممر فبلغهما أنين الجرحى مثيرًا في مروان حساسية من صوت احتكاك حذائه بالأرض. عند الاقتراب من القاعة الرئيسية، اختلط الأنين بصرخات الألم.

اتسعت حدقتا شريف، ثم تراجع خطوة وانكمش مرتعدًا خلف مروان.

كانت القاعة فسيحة وفيها اثنا عشر سريرًا كل ستة منها إلى جنب وبينهما ممر ضيق، النوافذ ضخمة وتوفر نسيمًا وفيرًا، الذباب يئزّ حول مصابيح السقف، ومساند الأسرة الحديدية يعلوها الصدأ. كان في الزاوية القصيّة من القاعة سرير تغطيه ناموسية بيضاء، اتجه الممرض نحو ذلك السرير. حاول مروان النظر في عيون الجنود مومئًا لهم بتحية سريعة، من كان منهم قادرًاعلى رؤيته.

وقف الممرض على بعد خطوتين من السرير المغطى بالناموسية وأشار بيده:

- ملازم ثان عمر بكري. لا تحاولوا قلبه على ظهره، يجب أن يظلّ في نفس الوضعيّة.

استدار الممرض وتركهم للإشراف على جندي في الطرف الآخر من القاعة.

كان مروان يوشك على فتح الناموسية، لكن تأوهات مكتومة جمّدت يده، إنها تصدر عن عمر. كان ممددًا على جنبه الأيمن، ظهره قبالتهما. ترك مروان شريف في مكانه، استدار ولفّ حول السرير ليصبح قبالة عمر ثم عبر إلى داخل الناموسية.

كانت عينا عمر مطبقتين بإحكام، وحاجباه مقطبين، وفكّه مشدودًا في طيّات جبينه، تتجمع حبّات من العرق، وجسمه مغطى ببطانية من أخمص القدم وحتى العنق.

لم يستطع مروان رؤية الإصابة التي يعاني منها عمر. قال هامسًا:

- عمر، هل تسمعني؟ أنا مروان.

تأوّه عمر ثانية مصدرًا أنينًا طويلًا وعميقًا.

أشار مروان لشريف بأن يأتي إلى جنبه.

- شريف هنا أيضًا.

عبر شريف إلى داخل الناموسية وحاول تقليد صوت مروان الهامس:

- هل تستطيع فتح عينيك؟

أطلق عمر أنينًا مروعًا وظلّت عيناه مقفلتين.

لمس شريف كتف عمر وربت عليه:

- هيا استيقظ.

انبثقت صرخة مروّعة من أحشاء عمر فتعثر شريف في تقهقره وانسحابه من الحيز الأبيض. توالت نوبة من صرخات الألم التي تقطّع نياط القلوب، وتبعث القشعريرة في الأجساد.

جاء الممرض راكضًا، جهز بارتباك حقنة، سحب البطانية عن عمر وحقنه في مؤخرته متمتمًا:

- ستنام قريبًا.

لم يصدق مروان ما رأته عيناه. كان جسد عمر برمته مضمدًا مثل مومياء، وبقع من الدماء تنزّ من جنبه الأيسر وظهره. ضربت نتانة البول المختلط بالدم مروان بموجة من الغثيان، فقبض على مسند السرير ليحافظ على توازنه.

كمّم شريف أنفه وفمه بقبضته، خطا إلى الوراء بضع خطوات، ثم استدار مهرولًا خارج القاعة.

عدّل الممرض الوسائد خلف ظهر عمر كي يمنعه من التقلّب قائلًا:

- لو كنت أعرف أن صديقك سيتصرف مثل النساء لما سمحت له بالدخول.

ابتلع مروان ريقه محاولًا السيطرة على معدته:

- هل حقنته بالمورفين؟

اعتدل الممرض وسحب البطانية فوق عمر:

- إنه يعاني من ألم عظيم، نحن نبقيه تحت تأثير المخدر. لا داعي لوجودك فهو لن يفيق في أي وقت قريب، هيا بنا.

زفر مروان:

- ألا تقوم بتنظيفه أولًا لو سمحت؟

- إنني هنا بمفردي وهو رجل وليس بطفل صغير. لا أستطيع فعل هذا بنفسي، عليّ انتظار ممرضي الفترة الصباحية ليقوموا بذلك.

بدا الممرض القصير البدين وكأنه تعرض لإهانة لكن مروان لم يأبه لذلك، ما كان ليذهب قبل أن ينال صديقه ما يحتاجه من رعاية. حاول حثّ الممرض قائلا:

- سأساعدك بنفسي، لقد تطوعت منذ مدة في المستشفى العسكري في دمشق.

دسّ مروان يده في جيبه وأخرج رزمة من النقود:

- إنني على دراية بما يتوجب علينا القيام به.

غمز بعينه للممرض مقدمًا له عرضًا غير منطوق ولكنه محفوف بالترغيب.

لم يعبأ مروان باللجوء إلى ذلك التصرف فالمستشفيات تعاني من أزمة نقص في الأيدي العاملة والاكتظاظ بالمصابين. كان الممرضون يبذلون قصارى جهدهم، لكن بعضهم بحاجة إلى محفزات.

تناول الممرض النقود من يد مروان ودسّها في جيبه:

- سيسدد هذا ثمن سجائر المرضى من ذوي الحالات الأخف.

توجه إلى خزانة وأحضر كومة من المستلزمات الطبية.

تولّى مروان مهمة تحريك عمر محاولًا الرفق بصديقه قدر ما استطاع، أما الممرض فتولى تغيير ضمادات عمر وملابسه القذرة. سأله مروان:

- ما الذي حصل له؟

- قذيفة دبابة أمطرت جسده بوابل من الشظايا. قادته قالوا إنه ظل يقاتل حتى اللحظة الأخيرة لتأمين الغطاء اللازم لانسحاب رجاله.

هزّ الممرض رأسه:

- لم أر إصابة كهذه أبدًا، جسده مخرّم مثل المصفاة. رغم ذلك، إنه قويّ البدن وتمكن الأطباء من استخراج معظم الشظايا.

- معظم؟

- ما تزال قطعتان منغرستين قرب قلبه، يجب أن يسترد عافيته أولًا قبل الخضوع لمبضع الجراح من جديد.

غطيّا عمر بأغطية نظيفة وتركاه، أبصرا شريف قابعًا في مدخل الممر وهو يراقبهما عن بعد، تجاوزاه وهما في الطريق إلى الغرفة الأمامية.

لحقهما شريف سائلًا الممرض:

- متى سينقل إلى دمشق؟

- لا أدري، الأمر يعود للأطباء. لكنني أعتقد أن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا.

تململ شريف:

- ليس من السهل زيارته هنا، لديّ محاضرات في الصباح وبعدها أذهب إلى العمل.

تدخل مروان:

- أنا أستطيع المجيء، كل مساء.

دوّن الممرض في دفتر تسجيل ضخم:

- لست متأكدًا إن كان الممرضون الآخرون سيسمحون لك بمساعدتهم كما فعلت.

قذف مروان مفاتيح السيارة لشريف:

- أمهلني دقيقة من فضلك.

لم يسأل شريف حتى عن السبب، فضح لهفته على ترك المكان عندما أوشك على التعثر بسلة قمامة أثناء خروجه.

بسط مروان راحتيه فوق المكتب الذي يجلس إليه الممرض:

- متى تبدأ مناوبتك؟

- في السادسة، أنا هنا كل يوم عدا أيام الجمعة.

- سأكون هنا بعد السادسة إذا، ما اسمك يا صديقي؟

- أبو وسام.

غمزه مروان:

- ما نوعية سجائرك المفضلة يا أبو وسام؟

- أنا؟ إنني لا أدخن، لكن يبدو أن الجميع يفضلون الـ «مالبورو».

- أراك في الغد إذًا.

لحظة أن دخل مروان السيارة وضع يده فوق كتف شريف:

- من الأفضل ألا تطلع النساء على تفاصيل حالة عمر، ولا حتى وليد، لديه ما يكفيه هو وزوجته من هموم.

سحب شريف كتفه بغلظة:

- لم أتصور أن حالته بهذا السوء.

- لا داعي لإثارة قلقهم طالما أنهم لا يستطيعون الحضور لرؤيته، مصاب ويتعافى جيدًا ينبغي أن يكون خبرًا كافيًا.

أومأ شريف وهو يطرق على علبة سجائر جديدة إلى أن انفصلت سيجارة عن صفوف أخواتها المتراصة ثم قال متسائلًا:

- هل كنت جادًا فيما قلته؟ هل ستأتي إلى هنا كل يوم؟

- إنني أشرف على إدارة تجارتي الخاصة وبوسعي إغلاق المحل ساعة أشاء.

- لكن لماذا تفعل ذلك؟ لم تجبر نفسك على رؤية عمر وهو في هذه الحالة؟ وهو لا يعرف أصلًا إن كنت موجودًا أم لا.

- أريد التأكد من حصوله على الرعاية المناسبة ولا أريده أن يواجه المصيرنفسه الذي لقيه ابن عمي.

هزّ شريف كتفيه:

- لكنني لا أفهم الغاية من ذلك، ابن عمك مات في ساحة القتال لا فوق سرير مستشفى.

سدد مروان إلى شريف نظرة مسحته صعودًا وهبوطًا ثم شغّل السيارة وانطلق:

- لا تشغل بالك كثيرًا بالأمر، إنك لن تفهمه أبدًا.

***

طرقت رحاب باب غرفة مروان صباح يوم جمعة. أغلق الكتاب الذي بين يديه ووضعه قرب السرير قبل دعوتها للدخول.

قالت رحاب: ارتد ثيابك، لديك ضيوف.

أرجح رجليه إلى الأرض:

- من؟

أغلقت الباب من خلفها:

- هدى ونادية.

هبّ على قدميه:

- ماذا؟ هنا؟

ردت رحاب:

- في فنائنا الداخليّ.

قرع صدره بإبهامه:

- تريدان الحديث معي؟

أومأت رحاب:

- قلت لهما إنك نائم لمنحك بعض الوقت.

وضعت يدها فوق مقبض الباب:

- جهّز نفسك وانضم إلينا لاحتساء القهوة عند النافورة.

هرع مروان إلى خزانته، استبدل ثياب نومه ومرّر مشطًا في شعره. تفحّص نفسه في المرآة، دسّ قميصه ثانية في بنطاله، شدّ حزامه، أخذ نفسًا عميقًا وترك الغرفة.

مشى إلى الفناء الداخلي في وسط البيت متمهلًا لدى الخروج. كانت نادية جالسة بمفردها على حافة النافورة وهي ترسم بيدها دوائر فوق سطح الماء.

وقفت حال رؤيته وتساقطت قطرات الماء من يدها:

- صباح الخير.

كح كحة خفيفة :

- صباح النور، أنت بمفردك؟

هزّت رأسها:

- ذاك السؤال ثانية؟

ضيّق عينيه بشدة نادمًا على ما قاله.

مسحت يدها بتنورتها السوداء:

- رحاب وهدى تعدان القهوة في المطبخ.

توجه صوب طاولة وكراسي تحت شجرة البرتقال، حمل كرسيًا ووضعه قرب النافورة:

- تفضلي.

ظلت واقفة بلا حراك وعيناها لا تتركان عينيه:

- تعازيّ الحارة بخصوص ابن عمك.

- على الأقل، نحن نعرف ما حلّ به. بعض العائلات ما زالت تبحث عن أحبائها ولا تعرف أخبارًا عنهم.

- قالت هدى إن لديه زوجة شابة، هل من أطفال؟

أشار مروان بيده إلى الكرسي:

- طفل في عامه الأول.

اقتربت مدركة أنه يريد تغيير الموضوع:

- لم أدخل بيتًا تقليديًا من قبل. هذا الفناء الداخليّ مدهش، أما النافورة فهي... تبعث الصفاء في النفس.

جلست ولفت ساقًا فوق ساق:

- أنت محظوظ جدًا.

جلب مروان كرسيين آخرين لكنه ظل واقفًا:

- جدّ جدي بنى هذا البيت في عام 1870.

- هل كل الحيطان من الرخام؟

- هذا هو سرّ بقاء الجو لطيفًا هنا في الصيف، حتى في وقت الظهيرة. الأشجار توفر ظلالًا وفيرة كذلك.

أمسك بمسند أحد الكراسي:

- اضطر جدي إلى تحسين المطبخ وتمديد الكهرباء، عدا ذلك فإن البيت بقي على هيئته الأولى. بإمكاني، لو أحببتِ، أن أصحبك في جولة لتتفرجي عليه.

نقرت نادية الزرّ العلوي لقميصها الأبيض:

- اعذرني على فضولي، ولكن كم عدد الغرف؟

- اثنتا عشرة غرفة.

أشار إلى الأبواب من خلفها:

- سقف القاعة الشتوية مصنوع من خشب الجوز ومزخرف بأصداف من اللؤلؤ الطبيعي.

لوت ظهرها لتنظر خلفها وقالت:

- وألواح النوافذ؟ زخارفها الفسيفسائية مشغولة من الزجاج الملوّن الأصليّ؟

- تلك التي على اليمين نسخة مطابقة لسابقاتها، لقد وقع حادث عندما كنت صبيًا.

دخلت رحاب بصينية القهوة وهدى إلى جانبها:

- حادث بكرة قدم، على ما أذكر.

رحّب مروان بهدى، جلب كرسيًا آخر ووضعه مقابل نادية.

دفعت هدى كمّيها الطويلين إلى أعلى:

- سأدخل في الموضوع مباشرة.

عبر مصادفته مرارًا لهدى خلال سنوات صداقتها مع شقيقته، كان مروان معتادًا على صرامتها. انتظرها لقول ما يدور في خلدها.

- أخبرني رجاء بكل ما تعرفه عن حالة عمر. إن شريف لا يفصح عن كل ما لديه وأنا أريد معرفة التفاصيل. لا بد لنا من تهيئة أمي وفاطمة لما هو آت.

تفحّص مروان نادية التي بدأ وجهها بالشحوب. أخلى حنجرته.

قالت هدى وكأن الأمر حقيقة مفروغ منها:

- لا تقلق، نادية قادرة على تحمّل التفاصيل.

على مدار الأسبوع، ساعد مروان الممرض على تغيير ضمادات عمر كل مساء. ورغم إصرار الممرض على أن عمر مُخَدَّر، إلا أن صراخه كان يملأ الغرفة أحيانًا. ليس بإمكانه أبدًا إطلاعهم على التفاصيل.

ضغطت عليه هدى:

- إلى أي مدى حالته سيئة؟

تناول فنجان القهوة الذي قدمته له رحاب معملًا ذهنه في كيفية وضع حدّ لأسئلة هدى التي لا تحفل بما لأختها من قلب رقيق. طمأنهم قائلًا: حالة عمر في تحسن.

حدّقت هدى فيه بغضب:

- ليس هذا ما سألتك عنه.

لم يرفع مروان عينيه من عينيها:

- سمعتك، وأجبتك. إنه يسترد عافيته بشكل جيد.

وضعت نادية فنجانها فوق حافة النافورة:

- أرغب في رؤية ذلك بنفسي.

استدارت نحو مروان:

- هل تأخذني معك غدًا؟

هزّ رأسه:

- لا أستطيع.

مالت برأسها جانبًا، فانسدل شعر رأسها فوق كتفها:

- أرجوك؟ مرة واحدة فقط.

- إنه مستشفى عسكريّ، لن يسمحوا لك بالدخول.

- لكنهم سمحوا لك، صحيح؟ رغم أنك لا تمتّ له بصلة قرابة.

كان مروان سعيدًا بما اختلقه من عذر:

- أنا متطوع مسجل بشكل رسمي، لا تسمح المستشفيات العسكرية للنساء بالدخول.

أفسدت هدى سعادته القصيرة:

- هذا غير صحيح، والدة سميرة زارت ابنها أحمد في المستشفى العسكريّ.

كان على مروان التفكير بسرعة:

- الوضع في القنيطرة مختلف. إنه مستشفى صغير خلف الخطوط الأمامية، وضعه مختلف عن المستشفى الرئيسيّ في دمشق. لديهم ضوابط خاصة تخضع للضرورات الأمنية.

وجّه كلامه إلى نادية: قد يحوّلون عمر إلى هنا بعد عملية جراحية أخيرة. شظية قذيفة.

أمسك لسانه قبل إتمام جملته، لا داعي لإخبارهم بأن الجراحة ستكون قرب القلب، تابع قائلًا:

- يتلقى عمر رعاية جيدة، إنني أقوم بالتأكد من ذلك بنفسي.

مالت نادية إلى الأمام وقد ارتسمت ملامح الأمل فوق وجهها:

- أيمكنك أن تمرّ بنا كل يوم بعد زيارتك له لتخبرنا بأحواله؟

رمت بنظرة خاطفة نحو أختها:

- ماما في غاية القلق.

أومأت هدى:

- هذا سيخفف شيئًا من قلقها.

فرك مروان ذقنه. إنها فكرة معقولة، ولكن كيف سينظر لها شريف؟ نظر في عينيّ نادية آملًا في أن تفهم سبب تردده:

- عندما أعود من هناك يكون الوقت متأخرًا، ليس مناسبًا لقيام رجل بزيارة.

أخفت رحاب ابتسامتها بفنجان قهوتها، ولم يفت مروان ما في صوتها من نبرة شقاوة:

- سأذهب معك، أحب ما يتيحه ذلك من فرصة زيارة ورؤية الجميع.

وضعت هدى فنجانها في الصينية:

- اتفقنا إذًا، سنراكم غدًا. في أي وقت على وجه التحديد؟

ترك مروان كرسيه:

- أخشى أنه لن يكون قبل التاسعة.

- مناسب، آن أوان رجوعنا إلى البيت يا نادية.

هبّت رحاب واقفة على رجليها:

- لا يمكن على الإطلاق، سنتناول الإفطار معًا. مروان، ألم أسمعك تَعِدُ نادية بأخذها في جولة لتريها البيت؟

# 23

مرّت ثلاثون دقيقة على بدء موعد الزيارة في مستشفى دمشق العسكريّ ومروان لم يصل بعد. وقفت نادية على الشرفة ونقّلت بصرها بين أول الشارع وآخره بحثًا عن سيارته. كانوا قد اتفقوا مع مروان كي يأخذهم في زيارتهم الأولى لعمر بعد نقله من القنيطرة.

دخلت نادية وجذبت يد أمها: هيا نذهب، سنأخذ سيارة أجرة.

دفعت ماما نفسها للنهوض من الكنبة: سميرة، ابقي مع الصغيرتين.

عدّلت طرحتها البيضاء المنسدلة فوق كتفيها وتابعت قولها: إذا جاء مروان، قولي له إننا لم نستطع انتظاره لوقت أطول.

إلحاح سميرة لم يختلف في نبرته الرفيعة عن صوت الصغيرتين لكنه كان أكثر أزعاجًا فقط: أريد رؤية عمر أنا أيضًا.

كانت أعصاب نادية مشدوة إلى أبعد حد فردت عليها بلا تحفظ: هل أذن لك زوجك بمرافقتنا قبل ذهابه إلى العمل؟

ردت سميرة لها الصاع صاعين: هذا أمر لا يخصك.

وضعت ماما يدها فوق بطنها ثم صفعتها بالأخرى وزفرت: ردّي، هل أذن لك؟

هزّت سميرة رأسها: لم أطلب منه.

قالت لها ماما بلهجة جافة: لو كنت في مكانك لما تزحزحت خطوة خارج هذا الباب، إنك تعرفين تماما كيف يتصرف ابني عندما تذهبين إلى مكان دون إذن منه.

توجهت صوب الباب وتمتمت: لست في مزاج إن حلّ عراك آخر بينكما.

علا بوق سيارة من الشارع فاندفعت نادية صوب الشرفة ورجعت: وصل مروان، هيا بنا.

اعتذر مروان: اضطررت إلى تدبّر أمر طارئ في المحل.

لم تضع ماما الوقت، احتلت المقعد الأمامي واستحثت مروان: استعجل أرجوك.

أدار المحرك: أين هدى؟

ردت نادية: في الشغل.

دسّت نادية نفسها في المقعد الخلفي وحملقت خارج النافذة. كان صخب أفكارها يطغى على ما يردده مروان من مجاملات، ويداها تؤلمانها من عجن وخبز أقراص الزيت والزعتر مع ماما طيلة النهار. راحت تقبض أصابعها وتبسطهما محاولة إخفاء ما ينتابها من جزع على عمر.

مروان كذب. كل مساء، كان يجلس في غرفة جلوسهم مع شقيقته ويكذب بشأن حالة عمر متسترًا على التفاصيل الحرجة. أدرك الجميع ذلك عدا أمها فشاركوا في تلك التمثيلية لأجلها، ولم يضغطوا على مروان للبوح بالمزيد. راقبت نادية وجه مروان في المرآة الأمامية. رغم كل محاولاته وما بذله من جهد، إلا أنه لم يستطع منع عينيه الداكنتين من فضح الحقيقة. عمر في وضع سيئ.

شريف كذب هو الآخر، كذب بشأن قيامه بزيارة عمر في أيام الجمع. انتزعت نادية هذه المعلومة من مروان خلال إحدى الأمسيات. كان مروان يعتقد أن شريف يزور عمر في أيام عطلته الأسبوعية، لكنّ شريف كان يقضي تلك الأيام مع عائلة سميرة. شريف كذب على أمه، زوجته، أخواته وعلى مروان.

تنهدت نادية، هل كل الرجال يكذبون؟ عمر لم يكذب عليها أبدًا، أم تراه فعل؟

لقد كان عمر سندها، بل كان سندًا للجميع. يجب أن يتحسن سريعًا ويعود إلى البيت. لا بد من إعادة الأمور إلى نصابها من جديد، إلى الوقت الذي لم تكن فيه أمها تبكي كل ليلة، وحينما كانت الحياة محتملة ومحمّلة بالأمل. سيضع عمر حدًا لإلحاح هدى المتواصل عليها بشأن معهد التمريض، ستبتسم فاطمة من جديد وتتطلع إلى إنجاب إبنها، وسيمنع عمر شريف من التصرف كطاغية مع سميرة.

ستتوفر لمروان أسباب أكثر لزيارتهم.

أفاقت نادية من خواطرها الحالمة عندما ضربت ماما يديها فوق حجرها:

- أوه، نادية! نسينا إحضار أقراص الزعتر لعمر.

هزّ مروان رأسه:

- لن يتمكن من تناولها في كل الأحوال.

- لماذا؟

- إنه يخضع لحمية غذائية خاصة، لا يتناول إلا السوائل.

أغمضت نادية عينيها، وما الذي وقاهم مروان أيضًا من شرّ معرفته؟ بأيّ حال ستجد عمر؟

جالسًا وظهره مدعم بالوسائد في سريره، انتاب عمر القلق من عدم مجيء

أحد. لا بد أنه أساء فهم ما قاله مروان، افتراض سهل على ضوء ما تفعله العقاقير بدماغه من أفاعيل طيلة الوقت.

منفتحتان على غشاوة، كابدت عيناه الأمرين في تبيّن معالم ما يحيط به. ثمة ممرضة تقف قرب سريره، مريولها الأبيض ساطع للغاية، إنها تحمل شيئًا لامعًا بين يديها.

يا إلهي! لا تجعله حقنة أخرى. فرك عمر عينيه بيده اليمنى فطعنت تلك الحركة البسيطة جسده بالألم، كأنما غمد سيف بين ضلوعه. حبس أنفاسه إلى أن سكن الألم مفلتًا مسبّبًا مبتكرتين. صكّ أسنانه قائلًا:

- لا أريد مزيدًا من المسكنات.

لوّحت الممرضة بالحقنة:

- هل أنت متأكد؟ عائلتك ستأتي اليوم.

- لا أريدهم أن يروني واللعاب يسيل من فمي مثل الرضّع.

علّق الجندي الذي يشاطر عمر الغرفة:

- أفضل من تلويث أسماعهم بالسباب كلما تحركت، خذ الحقنة يا صاحبي إنك بحاجة لها.

طالما منع عمر نفسه من الحركة فإن الأمور ستمرّ بسلام، رد على رفيقه:

- لا أريدها، أليس من المفترض أن تقابل زوجتك في فناء المستشفى؟

دفع الجندي عجلات كرسيه المتحرك إلى خارج الغرفة:

- اصنع ما يحلو لك.

طلب عمر العون من الممرضة بعد أن أصبح عاجزًا عن القيام بشؤونه الشخصية بكرامة:

- أحتاج مساعدتك من جديد.

جلبت الممرضة وعاء التبوّل وانتظرته قرب السرير ليفرغ مثانته.

شعر عمر بالحاجة ولو إلى قدر قليل من الخصوصية:

- من فضلك، أسدلي ستائر النافذة.

توجهت الممرضة إلى النافذة، جذبت الستارة ثم رجعت. دفعت المبولة الممتلئة تحت السرير وأعادت توضيب الأغطية.

خاف عمر من أن تفوح نتانة البول في جو الغرفة:

- أرجوك، أخرجيها من هنا.

تردد صدى خطى سريعة في الممر ثم دخل مروان وماما صبحية، نادية كانت وراءهما لم يستطع عمر تبيّن وجه نادية، فقد كانت عيناه تحاولان التأقلم

مع الضوء الخافت.

تمتمت الممرضة بتحية مقتضبة لمروان وهرولت خارج الغرفة. تركت المبولة في مكانها، فكتم عمر شتيمة في سرّه.

هرولت ماما صبحية نحوه مشرعة ذراعيها على اتساع. رفع مروان يده كي يوقفها، فات الأوان، ألقت بجسدها الممتلئ فوق عمر واحتضنته مطوقة عنقه بذراعيها.

بكت وضحكت في آن واحد:

- الحمد لله على السلامة.

شدّ عمر على عينيه وعضّ على لسانه كي يمنع نفسه من السباب عاليًا. بعدما تمكن مروان من سحب ماما صبحية، كان ما أغرق عمر من عرق قد أطفأ قليلًا من لهيب النيران التي أحرقت جسده. أشاح برأسه عنهم، وراح يشهق ويزفر على نحو قصير وسريع في محاولة عقيمة للسيطرة على الألم. يا له من أحمق، أين ذهبت تلك الممرضة؟

حاولت ماما صبحية مسح دموعها:

- ماذا جرى له؟

سحب مروان الكرسي الوحيد في الغرفة وقدمه لماما صبحية:

- أمهليه دقيقة، تفضلي بالجلوس.

همست نادية:

- ربما ينبغي استدعاء الطبيب؟

انتزع صوتها المشوب بالجزع عمر من بؤسه، لفّ رأسه صوبهم ملصقًا ابتسامة فوق وجهه:

- أنا بخير.

كان يعني ما قاله بحق، الآن وقد رأى وجه نادية الآسر وعينيها اللتين تموران بالدفء والحنان. أجل، إنها البيت والوطن وها هو يعود إليهما. سحب نفسًا عميقًا فغطّى عطر نادية المعهود على الرائحة المنبعثة من تحت سريره، الله رحيم لا محالة. ركّز عمر على ماما صبحية:

- لماذا تبكين؟

تمخّطت ماما صبحية:

- كنا في غاية القلق. هل يعتنون بك جيدًا يا **حبيبي**؟ إنك هزيل للغاية.

عبست في وجه مروان:

- سأجلب شوربة عدس معي في المرة المقبلة.

رفعت مؤخرتها عن الكرسي ومالت إلى الأمام:

- أين أصابتك؟ أرني.

وضعت نادية يدها فوق كتف أمها:

- ماما، ليس الآن.

غيّر عمر الموضوع:

- أين فاطمة؟

تبادلت نادية مع مروان نظرة سريعة. تبادلا إشارة لم يلتقط عمر مغزاها، أسرار؟ منذ متى أصبح بين مروان ونادية أسرار؟ زحفت حرارة إلى أعلى عنقه، دفعها الغضب من أعماق صدره. شدّد على جرس كلماته:

- كيف حال فاطمة؟

أقحمت نادية ابتسامة فوق وجهها:

- إنها حامل وسترزق بمولود.

ضيّق عمر عينيه:

- حقا؟ هل ستأتي؟

عدّلت ماما صبحية طرحتها البيضاء:

- ألم يخبرك مروان ؟

رفع مروان حاجبيه:

- لم أعتقد أنني الشخص المناسب.

- ما الذي يجري؟ أخبروني، بحق الله.

لمست نادية يده:

- حمل فاطمة معقد ويجب أن تظل في السرير حتى موعد الولادة، هذا كل ما هنالك.

شدّ عمر بقبضته على غطاء السرير، معقّد مثل حمل أمه به؟ هل ترث النساء أمورًا كهذه عن أمهاتهنّ؟ هل ستضطر فاطمة إلى التخلي عن حياتها لأجل أن تلد ابنها؟

انحنت نادية مقتربة منه:

- وليد وأمه يحيطانها بالرعاية التامة، أمرّ بهم يوميًا على أمل أن يكون هناك ما أستطيع القيام به، ولكن فاطمة لا تحتاج إلى شيء.

شدّت على يده:

- صدقني، فاطمة حقًا بخير.

حاولت ماما صبحية النهوض ثانية وهي تقول:

- طلبت فاطمة مني أن أحضنك نيابة عنها.

دفعها كل من نادية ومروان في كرسيها.

ابتلع عمر خوفه:

- من كم شهر هي حامل؟

ردت ماما:

- خمسة أشهر.

فردت ماما صبحية أصابعها على مبعدة من بطنها:

- بهذا الحجم، هدى تمر عليها أيضًا وتتفقدها يوميًا، لا تقلق.

نقّل عمر بصره بين الأم وابنتها:

- ستبلغانني! عندما يحين موعد ولادتها!

خفضت ماما صبحية عينيها وتشاغلت بمنديلها:

- ستكون في البيت بحلول ذلك الموعد. أراد شريف المجيء معنا، لكن كما تعلم، إنه في العمل. أنا متأكدة أنه سيمرّ عليك يوم الجمعة كالمعتاد.

قطّب عمر حاجبيه، هل تظن أن شريف يأتي لزيارته كلّ جمعة؟ فتح فمه ليصحح لها معلوماتها.

كحّ مروان مكممًا فمه بقبضة يده.

ضغطت نادية على يده مرتين.

إنهما يطلبان منه التزام الصمت. مزيد من الرسائل السرية بين هذين الاثنين، من أين أتت هذه الراحة؟ لم يعجبه الأمر، لم يعجبه قطّ. فرك إبهامه فوق كفّ نادية علامة على التقاطه لما يجري وسألها:

- كيف كانت امتحاناتك النهائية؟ هل أعلنت النتائج؟

أضاءت الغرفة بابتسامتها:

- نجحت.

قطّب عمر وجهه بصعوبة فابتسامة نادية دائمًا معدية:

- أعرف أنك نجحت، لكني أريد معرفة إن كانت نتيجتك حسنة أم لا.

مالت نادية برأسها فانسدل شعر رأسها فوق كتفها:

- حسنة إلى درجة ركوب هدى فوق ظهري لحملي على التسجيل في معهد التمريض.

سحب يدها إلى جنبه محاولًا الإبقاء على القرب منها:

- لا أعتقد أن التمريض مهنة تناسبك.

- حاولت أن أقول لها ذلك لكنها ترفض الإنصات.

وبّختها ماما صبحية:

- هدى تريد لك كل الخير.

تنحنح مروان:

- أتسمحين لي بالسؤال عما تريدين فعله إذًا يا نادية؟ إن كنت لا ترغبين بمعهد التمريض، فما الذي يجول في ذهنك؟

- لست متأكدة بعد، ربما دراسة الأدب في الجامعة. دائما ما استمتعت بقراءة الكتب الكلاسيكية.

ابتسمت نادية بإشراق لعمر:

- تلك التي ترجمتها المكتبة الخضراء، أتذكر؟ دفعتني إلى الإدمان عليها. لست أدري كيف تدبرتَ شراء المجموعة بأكملها بعد نفاد طبعاتها ولم تعد متوفرة في محال بيع الكتب.

سعى عمر بعينيه إلى مروان متوسّلًا إليه أن يترك نادية في الظلام، ترى ما الفرق الذي سيحصل حال معرفتها بمصدر تلك الكتب؟

لم يلتقط مروان رسالة عمر الصامتة لأن عينيه لم تبرحا وجه نادية وقال معقبًا:

- آه! لقد عرفت الآن لماذا طلب مني عمر شراء كل تلك الكتب من مكتبةقرب بيتي كانت على وشك الإغلاق.

صبغت حمرة داكنة جذور شعر نادية المشدود إلى الوراء:

- عليّ أن أشكرك إذن.

- عندي بقية المجموعة. جزءان أو ثلاثة، فيما أعتقد. يمكنني أن أجلبها لك إن أحببت.

- أجل، أرجوك.

ضغط عمر رأسه فوق وسادته مستدعيًا آلامًا اعتصرت صدره. أحدثت معرفة نادية بمصدر الكتب فرقًا لعينًا لصالح الافتتان بمروان، بريق ابتسامة صديقه بحاجة إلى ستارة للتخفيف من شدة وهجه. أطلق عمر كحة عالية كي يخفي إحباطه ووجه كلامه إلى مروان:

- لم أدفع ثمن تلك الأجزاء المتبقية بعد.

تساءل مروان وهو ما يزال متوهجًا بالابتسام:

- اعتبرها هدية تخرّج.

لوّحت ماما صبحية بمنديلها له:

- شكرًا، ولكن ليس في وسعنا قبول هذا أنا سأسدد ثمنها.

اعتدلت نادية:

- دعونا من إزعاج عمر بهذا الموضوع.

وضعت يدها الأخرى فوق ساعده:

- لا تشغل بالك بشيء سوى التركيز على صحتك.

صار عمر أحسن، أحسن بكثير بعد أن أولته نادية اهتمامها الكامل من جديد. شعر بقسط من الرضا وألقى نظرة خاطفة نحو مروان. حان أوان طرح أمر مستعجل:

- امنحنا شيئًا من الوقت على انفراد من فضلك.

ترك مروان الغرفة قائلًا:

- بالطبع.

- كيف تتدبرين الأمور؟ لم تسنح لي فرصة سؤال شريف، هل تخلّفتِ عن تسديد الإيجار؟

ردّت عليه ماما صبحية:

- مروان يجلب لي راتبك كلّ شهر وهو يغطي كل احتياجاتنا.

طرفت عينا عمر دهشة.

خفضت ماما صبحية صوتها، «الراتب يكفينا وزيادة». لمصلحة من؟ عمر لم تكن لديه أي فكرة.

- إنني أضع جانبًا بعض المال لك كي لا تكون خالي الوفاض عند عودتك إلى البيت.

نظر عمر لوهلة نحو الخزانة الصغيرة قرب سريره، في الدرج رسالة من وزارة الدفاع تبلّغه بحجز راتبه في خزينتها إلى حين مطالبته به. لا يمكن أن يسلّموا راتبه لمروان. قطعًا، مروان يعطي ماما صبحية من أمواله الخاصة مختلقًا هذه القصة كي يحفظ لها ماء الوجه.

أطلق تنهيدة طويلة ملقيًا رأسه إلى الوراء،كان دين مروان يطوّق عنقه كأغلال من حديد، هل يمكنه أصلًا الوفاء به كاملًا؟

طيلة بقية الشهر، واظبت العائلة على زيارته كلّ يوم تقريبًا. جاء شريف مرتين وكان منقبضًا باردًا ومؤديًا واجبًا لا أكثر، أما هدى فكانت تمرّ أحيانًا قرب انتهاء موعد الزيارة ، ثم تنصرف مع الجميع في سيارة مروان الذي أصبح سائقًا تحت أيديهم لا يأتون أو ينصرفون إلا وهو معهم.

ما لاحظه عمر من تنامي الإعجاب بين مروان ونادية نهش قلبه. لم يفته تسجيل أي شاردة أو واردة: لا النظرات المختلسة، ولا ابتسامات التأييد المتبادلة عند حديث أيّ منهما، أو تململ مروان بعصبية كلما نظرت نادية فيه مباشرة، ولا تلك الأريحية التي باتت نادية تتحرك بها دون تحفظ من حول مروان. وهو أمر لم يكن إلا من نصيب عمر في السابق، من نصيبه وحده فقط. تبدد ما كان يشعر

به من سرور كلما زارته نادية وأفسح الطريق أمام القلق والاضطراب.

في عصر يوم صحو، حاول عمر أن يترك السرير ويجرب المشي بقامة منتصبة دون أن يحني كتفيه. استجمع قوته متحملًا ما يداهمه من ضربات ألم حادة بين الفينة والأخرى، فهي كما قال الطبيب مجرد إزعاج لا بد له من التعود عليه.

كان رفيقه الذي يقاسمه غرفته قد ترك المستشفى، فأصبحت الغرفة بأسرها من نصيب عمر. بقي فيها وحيدًا ولكنه رحب بالعزلة وما تتيحه من خصوصية. ولما كانت معظم الأسرّة في جناحه قد خلت من نزلائها، صار يعمد أحيانًا إلى جرّ قدميه حتى نهاية الممر. كان يرغم جسمه المريض على بذل جهد يفوق حدود طاقته لأنه بحاجة إلى الحركة والانشغال عن حالته البائسة تلك، عن جسده المعطوب وروحه المعنوية المهزومة، لكنه حبيس المستشفى ولا قدرة لديه على الذهاب إلى أي مكان.

حملق عمر خارج نافذة غرفته شابكًا أصابعه خلف ظهره، وتأمل واقعه الأليم. الجيش لم يصرفه من الخدمة، ولكن ما الذي يتوقعونه منه وهو في هذه الحالة؟ توزيع الأوراق؟ تلميع النسور والنجوم النحاسية فوق صدور من أوصلوه من حمقى إلى هذه النقطة؟ ما كان ينبغي للحرب أن تنتهي على هذه الشاكلة، كان يجب أن يكون الآن واقفًا في بيته، في بيته الحقيقي، بيت أبيه في فلسطين.

مثل أسد جريح في مصيدة، كان عمر بحاجة إلى الوثوب على أحد ما. لا بد من فعل شيء ما، يجب أن يحاسب شخص ما على هذه الكارثة. إعلان عبد الناصر عن تحمله كامل المسؤولية ليس كافيًا فالشعب المصري لن يسمح له بالاستقالة. مرّت أربعة أيام بتمامها على وقف إطلاق النار وهو مرميّ فوق التراب، وبعد كل ما لحق به من تنكيل تُرك غارقا وسط بركة من دمائه. أخبره مروان عن خروج الجماهير إلى الميادين والشوارع مطالبة عبد الناصر بسحب استقالته. ماذا دها هؤلاء؟ من سيحاسب على إزهاق كل تلك الأرواح، سحق كل تلك الأحلام، هدر كل تلك الآمال ؟ من سيلوم على كلّ ما حاق به من بؤس؟

سمع مروان يدخل الغرفة من خلفه، ويلقي بنفسه فوق السرير الفارغ:

- سلام، هل سمعت الأخبار؟

لم يستدر عمر:

- هل أنت بمفردك؟

- أجل، أقوم بقضاء بعض الحاجات أولًا قبل أن أحضر الجميع لاحقًا. أتحتاج شيئًا؟

- لا تحضرهم. قل لهم إنك مشغول اليوم فلست في مزاج لاستقبال أي زوار.

- ستصاب نادية بخيبة الأمل.

استدار عمر ليواجه صديقه:

- لا شك لدي في أنها قادرة على تحمل مرور يوم دون رؤيتي.

تمهل ليرى إن كانت كلماته قد ضغطت على وتر حساس. لم يكن عمر غبيًا، إن مروان هو من سيشعر بخيبة الأمل إن فاتته فرصة رؤية نادية والعكس غير صحيح.

كحّ مروان وسحب عينيه من عيني عمر.

شعر عمر بالأسف تجاه مروان متقززًا من صبّ غضبه على من لا يستحقه، فهو صديق مخلص، ورجل عطوف ومسؤول. ولكنه أيضًا واقع في حبّ نادية. خلال رؤيته لمروان ونادية كل يوم تقريبًا، كانت تلك الحقيقة المفزعة تصرخ في وجهه. كيف له أن يخطّئ مروان على مجرد وقوعه في غرام ناديته؟ بل كيف له ألا يقع أصلًا؟

أدار عمر ظهره ليمنع وجهه من فضح مشاعره المتضاربة:

- أي أخبار؟

- حمّل عبد الناصر مسؤولية الإخفاق التام للمشير عبد الحكيم عامر، وأعلنت الآن أنباء انتحار المشير قبل محاكمته عسكريًا.

- هل كان المشير مسؤولًا؟

- وضع عبد الناصر ثقته بالمشير عامر، لكن يبدو أن المشير لم يكن جديرًا بمهمة رئيس أركان الجيش. لم يتمتع بالكفاءة المطلوبة وخدع عبد الناصر فيما قدمه له من تقارير حول جاهزية الجيش المصريّ. هل تصدق أن الجنود خلال الحرب لم تتوفر لهم المعدات المناسبة وأن الوقود نفد من معظم الدبابات في سيناء!

زفر مروان بشدة:

- تعرض عبد الناصر للخذلان على يد قريبه وصديقه الأقرب، لا يمكنني مجرد تصور ما يشعر به الآن.

وضع عمر يديه فوق حافة النافذة ومال إلى أن لمست جبهته سطح الزجاج:

- قاتلنا في جبهتنا حتى النخاع.

اقترب مروان منه ووضع يده فوق كتفه:

- ليس من أحد يشكّ في ذلك.

- كنا نحرز تقدمًا إثر الآخر ثم وفجأة صدرت الأوامر بالانسحاب، ما زلت أجهل سبب ذلك.

- عندما وقع التشرذم والشلل في صفوف الجيش المصريّ في سيناء، أصبحت القوات السورية مكشوفة للعدو خاصة وأن غطاءنا الجويّ ضعيف في الأساس.

اعتدل عمر:

- هذا هراء! كنا نتقدم في الزحف إلى الأمام وتمكنّا من تأمين الأرض في مرتفعات الجولان، لكن وزير الدفاع أصدر أوامر الانسحاب رغم ذلك.

ضرب بقبضته حافة النافذة:

- لماذا بحق الجحيم؟

- لا يجرؤ أحد على طرح هذا السؤال على حافظ الأسد.

استدار عمر على نحو خاطف:

- المصريون قاموا بتحقيقاتهم وحمّلوا قادتهم المسؤولية، حتى رئيسهم تحمّل المسؤولية.

أشار عمر بإبهامه إلى صدره:

- متى سنقوم نحن بمحاكمة المسؤول عن الأخطاء الفادحة في الجبهة السورية؟

وضع مروان يديه فوق كتفي عمر:

- الوضع برمته مثير للريبة، لكني لو كنت مكانك لما حاولت التنقيب عميقًا في هذا الأمر فهناك عيون وآذان في كل مكان. حان الآن أوان التفكير فيما هو آت، خطط لمستقبلك.

زفر عمر محاولًا نفض الكآبة عن عاتقه:

- حسنًا.

أزاح يديّ مروان ومشى إلى الخزانة الصغيرة قرب سريره ثم أخرج الرسالة من الدرج قائلًا:

- اقرأ ما هو مكتوب هنا.

نقّل مروان عينيه بين السطور:

- هل منحوك نجمة ثانية؟

حيّا عمر بتحيّة عسكرية:

- تهانينا، ملازم أول عمر بكري.

أمره عمر بلهجة جافة:

- تابع القراءة.

وضع مروان الرسالة فوق الخزانة الصغيرة:

- حسنًا، بشأن ذلك الأمر.

- بدا صوته محرجًا:

- كنت سأخبرك عندما يحين الوقت المناسب.

عبس عمر:

- أعطيت عائلتي مبلغًا من المال شهريًا، مقداره قيمة راتبي.

أشار مروان إلى الرسالة:

- في الواقع، أقل بقليل. لم أعرف أنهم زادوا راتبك.

ضايقته مداعبة مروان للتخفيف من وطأة الأمر. كان عمر جديًّا للغاية، فرزوحه تحت وطأة ذلك الدين كان يخنقه ويبقيه أسير الأرق في الليل :

- حال خروجي من هنا، سأذهب لأخذ مستحقاتي من خزينة وزارة الدفاع وأسدد لك ما عليّ.

اقترب مروان قائلًا بنبرة جديّة:

- لكنك فعلت، هذا أقلّ ما يمكنني فعله. مكثت أنا هنا مثل العجائز بينما خاطرت أنت بحياتك.

حملق عمر في صديقه محاولًا بمشقة منع عينيه من الترقرق بالدموع :

- أقدر لك كرمك وشهامتك يا مروان، لكنني لا أستطيع قبول ذلك.

هزّ مروان رأسه:

- لست مدينًا لي بشيء.

- لسنا متفقين.

زفر مروان بإحباط:

- إذًا، هل يمكننا تأجيل الحديث في هذا الموضوع؟ بعد ستة أشهر من الآن؟ تعافَ في جسدك، عُدْ إلى بيتك، اهتمّ بشؤون عائلتك، ثم لنفتح موضوع النقود ثانية. هل تقبل بهذا؟

- سأسدد ما في عنقي على أقساط لمدة أربعة أشهر.

أومأ مروان:

- حسنًا.

# 24

تخلت ماما صبحية عن غرفة نومها لاستقبال عمر فيها وخوّلت نادية سلطة توضيبها. اعتمدت نادية التي لم يتوفر بين يديها سوى القليل على مواهبها الفنية لتحويل جوّ الغرفة المملّ إلى آخر مشرق ودافئ.

نقلت نادية وهدى سرير ماما وتسريحتها إلى غرفة البنات، وحشرتا القطعتين الضخمتين في الحيز المكتظ. وعند نقل سرير عمر، وجهته نادية صوب النافذتين لاستغلال ما يغمر الغرفة من إضاءة طبيعية أغلب ساعات النهار. ثم صفّت كتب عمر فوق حافة النافذة العريضة وحولت الحيز العقيم إلى رفّ للكتب.

تولت نادية بحماس المهمة الأمثل لها؛ نظّفت الغرفة، أعادت تنسيق الأثاث وأضافت لمسات من الألوان فوق الحيطان العارية بتعليق رسومات شقيقتيها الصغيرتين. لم تنس نادية فاطمة التي كانت طريحة الفراش فطلبت منها حياكة ستائر خضراء رقيقة لتغيير الستائر البيج الثقيلة.

ساهم الجميع في الجهد المبذول عدا شريف وسميرة. رفض شريف تقديم المساعدة وأثار مشكلة كبيرة لدى علمه بأمر استبدال الغرف. تظلّم قائلًا إن خيار الانتقال إلى غرفة أبيه كان من الأولى أن يمنح له. خرج من البيت غاضبًا بعد أن اتهم أمه بتفضيل عمر عليه، على ابنها الذي هو من لحمها ودمها.

تابعت سميرة انفجار زوجها وهي تقف على عتبة غرفتها. كانت تتكئ على جنب الباب ويداها مطويتان فوق صدرها ورجلها تهتزّ بشدة فاضحة ما يعتريها من توتر. دفعت حركتها تلك وركيها على التمايل فبدت وكأنها ترقص.

تقدمت نادية نحو سميرة:

- أراهن على أنك وراء كل هذا، أنت من حشا رأس شريف بهذه السخافات فهو لم يخاطب ماما بهذه الطريقة أبدًا من قبل.

تقهقرت سميرة إلى داخل غرفتها:

- أنت مخطئة، شريف يشعر بأنه مثل الغريب منذ فترة طويلة.

رفعت يدها وأشارت إلى ما وراء ظهر نادية:

- كلكم تتجاهلونه وتتحدثون عن عمر ليل نهار.

حركت رأسها من جنب إلى آخر ورفعت صوتها:

- يحتاج هذا عمر، يحتاج ذاك عمر. عمر المسكين، ماذا يمكن أن يأكل عمر؟ كيف سيستحم عمر؟ متى سيعود عمر إلى العمل؟ عمر، عمر، عمر.

طوت ذراعيها فوق صدرها:

- حسنًا، ماذا عن شريف، هه؟ ماذا عن الرجل الحقيقي لهذا البيت؟

باغت هجوم سميرة اللفظيّ نادية فلم تلاحظ أن هدى لحقت بها إلى داخل الغرفة وأوصدت الباب. وعندما ردّت هدى على سميرة، قفزت نادية هلعًا من هول نبرتها الجليديّة:

- أخفضي صوتك الأبله.

مشت هدى بخطى متقصّدة نحو سميرة وهيئتها شرسة وخطيرة:

- لن أسمح بسماع ماما ولو نقطة واحدة من سمومك.

تعثّرت سميرة أثناء تقهقرها فهبطت فوق سريرها.

انحنت هدى مرغمة سميرة على الميل بجذعها إلى الخلف، وقالت بنبرة متوعدة:

- أجيبي عن سؤال واحد، من الذي يسدد إيجار هذا البيت الذي تعيشين فيه أنت وزوجك برفاه؟

فتحت سميرة فمها وقد جحظت عيناها، بدت وكأنها قد غيّرت رأيها فسدّته ثانية. واصلت هدى هجومها:

- عمر هو من يسدد إيجار السقف من فوق رأسك، حتى وهو يرقد فوق سرير في المستشفى أمّن لنا جميعا بيتًا يأوينا.

اهتزّ صوت سميرة:

- شريف يدرس ويشتغل طيلة الوقت، إنه يقوم بما عليه.

- لو لم يتحمل عمر عبء الإنفاق على العائلة، لما كان بمقدور شريف مواصلة الدراسة. ألا تفهمين ذلك؟ كان سيتحتم على شريف أن يعمل بدوام كامل وأن يقول الوداع لشهادته الجامعية.

- أي منكن لا تولي زوجي ما يستحقه من قدر.

قهقهت هدى:

- احترام؟

قرّبت وجهها فأرغمت سميرة على بسط جذعها إلى الخلف أكثر والاتكاء على مرفقيها:

- لولا عمر، لما كنت على ما أنت عليه الآن، امرأة **محترمة** متزوجة. كان الأمر سينتهي بقتل شريف ودخول أحد إخوتك أو كلهم إلى السجن.

طعنت كتف سميرة بإصبعها:

- لهذا احمدي الله على وجود عمر. اشكري عمر لأنه تدخل بالأصالة عنك وأدركته الشفقة بك، واشكري ماما على قبولها بك بين أفراد هذه العائلة.

اعتدلت هدى وتابعت النظر بوعيد في وجه سميرة المصفرّ:

- الاحترام ينال بالأفعال أيتها **البنت**. في المرة المقبلة، عندما تمارسين سحرك على زوجك ذكّريه بهذه الحقائق. قولي له إن رجل العائلة هو من يتولى **رعاية** عائلته لا من يثقلها بنزواته الأنانية.

فردت هدى كتفيها وأومأت مرة واحدة:

- الليلة، ستحملين شريف على الركوع عند قدميّ ماما وإبداء الندم على ما بدر منه.

جذبت يد سميرة وشدّتها من السرير:

- وأنت ستعتذرين من ماما الآن وفورًا.

في اليوم التالي، ساعد كل من مروان وهدى ونادية عمر على الدخول برفق إلى المقعد الخلفيّ لسيارة مروان. جلس عمر وهو شبه مستلق فلم يبق لنادية سوى فسحة ضيقة حشرت فيها نفسها بقربه، أما هدى فجلست في المقعد الأمامي.

حاول عمر منع رجليه من الاصطدام بنادية:

- هل ستكون فاطمة في استقبالنا عند وصولنا إلى البيت؟

استدارت هدى نحوه ورفعت حاجبيها:

- لا يمكنها ذلك، ظننت أن ماما شرحت وضع فاطمة لك.

قطّب عمر حاجبيه:

- وليد أخبرني أنها تحسنت.

وضعت نادية يدها فوق ساعده المكشوف فحاول ألّا يتنهد. ها هي تفعلها من جديد، تلمسه بلا وعي. فعلت ذلك مرارًا في الأسابيع القليلة الماضية، وأحيانًا دون سبب واضح.

انزلقت يد نادية الناعمة فوق بشرته واستقرت فوق كفه:

- فاطمة لا تستطيع صعود الدرج، لكنها **بحق** أحسن من السابق.

خلخلت أصابعها الرقيقة بين أصابعه:

- أصبحت الآن قادرة على الحركة في شقتها.

أزاح عمر ثقل جسده إلى جنبه الآخر مما دفع بيد نادية إلى الانزلاق من

يده، هل يعقل أنها لا تدرك ما في لمستها من إثارة وغنج؟ متى ستكبر هذه الفتاة؟ متى ستفتح عينيها؟ متى ستبصر الرجل فيه؟ إنها لا تلمس شريف أبدًا بهذه الطريقة. كان منتبهًا ورصد حركاتها عن كثب خلال زياراتهم، ما الذي جرى لها؟

تنحنح عمر:

- أريد رؤية فاطمة، هل بإمكاننا أن نعرّج عليها قبل الذهاب إلى البيت؟

مالت نادية بسرعة إلى الأمام ووضعت يدها فوق كتف مروان:

- ستكون مفاجأة عظيمة لفاطمة، هل نستطيع الذهاب؟

التقط عمر عيني مروان في المرآة الأمامية متفحصًا ردّة فعله. خطيئة مميتة، ومروان يظنّ الأمر نفسه. اعتذر بنظراته عن طيش نادية.

قالت هدى دون انتباه لما يدور من حولها:

- فقط إن كانت زيارة خاطفة، ماما ستتفهم الأمر، سأهاتفها من بيت فاطمة.

انسحبت نادية إلى الوراء ووضعت يدها الطائشة فوق فخذ عمر:

- هل تستطيع صعود الدرج؟

ردّ عليها عمر مومئًا مخافة أن تفضحه نبرة صوته. هدى، يجب أن يكلم هدى لتشرح عالم الرجال لنادية. ولكن ما الذي تعرفه هدى عن الرجال؟ ليس بالكثير. فاطمة إذًا، ستكون خير معلمة لنادية الجاهلة. هذا إن كان بمقدوره التعبير عن قلقه لأخته دون فضح حقيقة مشاعره، ودون أن يبدو مسخًا متسلّطًا مثل شريف.

طوق عمر كتفي مروان بيد وأمسك الدربزين بالأخرى. أخذا ما يلزم من وقت لصعود الدرج إلى شقة فاطمة فسبقتهما الفتاتان.

وقف مروان مانحًا عمر فرصة التقاط أنفاسه:

- أرجو ألا تراودك أي أفكار خاطئة، حيالي أنا وأختك.

- نادية ليست أختي.

شدد عمر على كلماته مجبرًا على إيضاح ذلك، ثم لكز مروان كي يتابع السير محاولًا إنهاء الحديث.

تحرك مروان بحذر:

- حسنًا، أجل. إنك تعرف ما أقصده. نادية بريئة للغاية. لقد... لقد أصبحت معتادة عليّ، على ما أظن. لكنني لا أشجعها، أريدك أن تعرف ذلك.

كانت تلك فرصته، بإمكان عمر أن يأمر مروان بالابتعاد عن نادية مفتعلًا ردة فعل أخ غيور، طائش وجاهل. لكن مشكلة عمر تكمن هنا بالضبط، لأنه

رجل صادق لن يغترّ صديقه بأداء مسرحيّ مبتذل منه. بل ستنتاب مروان الظنون وسيبدأ في طرح أسئلة لم يكن عمر جاهزًا بعد للردّ عليها. كما أن مروان تصرف برجولة تجاه ما أقدمت عليه نادية من طيش فهو لم يتجاهل الأمر بل تناوله باحترام ورصانة. كيف ستطاوعه نفسه على خديعة هذا الرجل؟

عندما كانا يوشكان على الوصول إلى الباب، توقف عمر وأسند مؤخرته إلى الدرابزين ثم رفع ذراعه عن كتف مروان. ساحبًا نفسًا عميقًا، اعتدل واقفًا واحتمل انفجار الألم في صدره:

- نواياك !!

لم يتردد مروان:

- شريفة بالطبع، أعرف أن الوقت غير مناسب لكني مستعد لطلب يدها.

ردّ عمر بإيماءة سريعة، أراد منها أن تكون مطمئنة، لكنّ رأسه تحرك بعنف ففضح توتره. يجب أن يعرف منه إن كان غرام نادية الصبيانيّ قد بلغ منعطفًا خطيرًا.

- ونادية! ما رأيها؟

بدا التردد في عينيّ مروان:

- ما كنت لأتكلم معها في أمر كهذا دون إذن منك يا صديقي.

وهذا ما يلخص تمامًا شخصية مروان في ذهن عمر. إنه تقليديّ حتى النخاع، يُعتمد عليه حتى العظم وشهم إلى أبعد الحدود. كيف له أن يحرم نادية من فرصة سعي رجل محترم كهذا خلفها؟ نفض عمر رجله محاولًا تخفيف ما ألمّ بها من تقلصات، فعضلاته تشجنت خوفًا من سماع رد من مروان يؤكد قبول نادية به. لقد فقد والديه، وطنه، صحته، رفاقه وكرامته، ليكن الله في عونه، أهو على وشك فقدان نادية أيضًا؟

أمسك مروان بذراعه:

- هل تحتاج إلى الجلوس؟

تفحّص وجه صديقه الوفيّ، لعل الله ليس ناقمًا عليه إلى ذلك الحد بمنحه مثل هذا الصديق الوفيّ. لكن رجلًا على خلق مثل مروان يمكن إبعاده عن نادية، ألا ينتظر الحصول على إذنه؟ إنه لن يناله أبدًا ولا حتى في الأحلام.

ضاغطًا يدًا إلى صدره، دفع عمر نفسه بعيدًا عن الدربزين:

- احتفظ الآن بهذا الأمر لنفسك، الوقت ليس مناسبًا بعد للتفكير في موضوع كهذا.

زادت خيبة الأمل التي انسكبت من عيني مروان من ضربات المهماز المعقوف الذي ينخز صدر عمر. أي صنف من الرجال هو؟ لماذا يترك صديقه في

العذاب ويحول دون معرفة ناديته بحب رجل محترم لها؟ أيّ شر يكمن داخل هذا القلب الملعون الذي ينبض في جوفه؟

انفتح الباب الأمامي، فأطلت منه فاطمة ببطنها المتكور. نادت على عمر فدثره صوتها بالسكينة والمحبة المعهودة. لم يعرف كيف قطع ما بينهما من خطوات قليلة، لكنه لحظة وصوله طوّق جسدها الضخم بذراعيه ولم يرغب بتركه أبدًا. فاطمة تحبه حبًا راسخًا وغير مشروط، ترى هل يستحقه؟

جرى لمّ الشمل على جرعات متفاوتة. لم تسمح حالة فاطمة الهشّة لعمر بأن يبقيها على قدميها إلا لأمد قصير ولكنه كان كافيًا لإعادة شحن بطاريته العاطفية. جلسا جنبًا إلى جنب فوق الكنبة وأمسكا بيدي بعضهما البعض متجاهلين الجميع. انهمكت هدى في الدردشة مع أم وليد بينما جلس مروان ونادية في كرسيين متقابلين.

ظلت فاطمة تنظر في عينيه بنظرة اعتذارية:

- كنت أريد زيارتك في المستشفى لكنهم منعوني.

- حتى لو كنت قادرة على ذلك فإنني ما كنت لأحبّ أن تضعي ولو قدمًا واحدة في ذلك المستشفى.

- أحاطتني نادية علمًا بكل التفاصيل، هل أنت موجوع الآن؟

موجوع ؟ لقد نسي الوجع، طمأنها:

- أنا بخير.

أومأ صوب هدى هامسًا:

- هل تراجعين طبيبًا؟

ردت فاطمة همسًا هي الأخرى:

- أصر وليد على ذلك، لا تقلق هدى تتفهم الأمر فخدماتها ما زالت مطلوبة لكنني أنوي الولادة في المستشفى.

ضغط عمر على يديها:

- ممتاز.

- أريدك أن تكون هناك لأجل وليد، إنه خائف جدًا.

ازدرد ريقه بصعوبة، وليد خائف؟ إنه مرعوب. رد عليها:

- بالطبع.

ربتت فاطمة على كفه:

- لا تقلق، سأكون بخير. أنا متأكدة من ذلك.

أمسكت يده ووضعتها فوق بطنها:

- سيكون الله في عوني.

سيتخذ عمر كل التدابير اللازمة. ما الذي يتطلبه الأمر؟ طبيب له باع طويل في غرفة الولادة؟ ليس من مشكلة. أكثر من طبيب؟ سيتكفل بذلك ومهما بلغت التكاليف، لن يقف في وجهه شيء. اختطف يده بعيدًا وهو يقول باندهاش:

- واو!

أشرق وجه فاطمة بابتسامة عريضة:

- هل شعرت بذلك؟ إنه يرحب بك وهو يحاول التعبير عن مدى محبته لخاله.

- هو؟

أومأت أم وليد بثقة بالغة:

- بطنها مرتخ إلى أسفل كما لو أنها ابتلعت كرة، وهذا يعني أنها حامل بصبي. لو كان مسطحًا من الأعلى مثل الرفّ، لكانت بنتًا.

التقط عمر هدى وهي تقلب عينيها:

- بالطبع.

هزّت أم وليد إصبعها في وجه هدى:

- اشهدي على كلامي إنه صبي، قلت لوليد أن يشتري كبشًا ويستعد.

توترت فاطمة:

- لا داعي لذلك.

لعلع صوت أم وليد :

- بالطبع هناك داع، لن أقبل بمجيء حفيدي الأول إلى الدنيا دون صنع ذلك.

تشوّش عمر فاستدار نحو مروان مستفهمًا، أوضح مروان: «العقيقة.»

لم يستطع عمر مغالبة عدم الوقوف في صف أم وليد:

- اتباع التقاليد أمر محمود، ذبح حمل وتوزيع لحمه على المحتاجين فيه تشريف للمولود.

لوحت أم وليد بيدها صوب عمر:

- أرأيتِ؟ حتى أخوك متفق معي في الرأي.

جذبت فاطمة يد عمر معبرة عن ضيقها:

- مثلما قال عمر، إنه تقليد اجتماعي وليس بفريضة دينية. العم مصطفى لم يصنع هذا عند ميلاد أي من البنات.

هزّ عمر رأسه:

- العم مصطفى لم تكن لديه القدرة المادية.

حوّل مروان بصره إلى الأرض قائلًا:

- لا تبذل العقيقة في العادة إلا عندما يكون المولود صبيًّا، لكن عمي صنع ذلك عند ميلاد ولديه وكذلك ابنته.

وضعت أم وليد يدها على خصرها ومدّت رجليها:

- حتى لو كانت بنتًا، أريد من وليد أن يذبح عقيقة فداء لها. ماذا تريدين أن يقول الجيران عنا؟

حدّقت فاطمة في حماتها:

- سيقولون إننا أذكياء لأننا لم نورط أنفسنا في الدين لأجل تقاليد عفى عليها الزمن.

استدارت صوب عمر:

- سيتضايق وليد إن فاتته رؤيتك، ألا تمكث بصحبتنا إلى حين رجوعه من عمله؟ دعنا نتغدَّ سوية معًا، كوسا محشي، واحدة من أكلاتك المفضلة.

تفطّن عمر إلى محاولتها تغيير الموضوع:

- لا تتعبي نفسك.

استجمع قوته للنهوض:

- ماما صبحية تنتظرنا.

كانت يد فاطمة في يده فحاول أن ينهض ويسحب أخته معه، لكن الجهد عصف بضلوعه فشدّ على عينيه رغمًا عنه. هبّت نادية لنجدته بمساعدة فاطمة على الوقوف، لكن فاطمة ترنحت وجذبت معها يد عمر فأرغمته على الإنحناء. قطّع ألم حادّ أحشاءه، لكنه صكّ أسنانه ودفع بجذعه إلى الامام فهوى رأسه فوق كتف نادية.

رفعت نادية يديها بسرعة وطوّقته بهما كي تسنده:

- ماذا ألمّ بك؟

أفلتت صرخة ألم من حلق عمر حين تفشّى الألم في فخذيه. شدّ يديه على وسطه ثم طوّح جسده بعيدًا عن نادية فكاد يخرّ على ركبتيه.

صرخت فاطمة برعب:

- ماذا دهاه؟

دفع مروان فاطمة ونادية من طريقه، ثم دسّ ذراعيه القويتين تحت إبطي عمر وجذبه برفق إلى الكنبة.

تمدد عمر على ظهره، ثم دفن وجهه تحت ذراعيه وحبس أنفاسه، أطبق بإحكام على حنكه لقمع شتيمة نابية كانت تغويه بشيء من الارتياح الكاذب.

كانت نبرة مروان جديّة وواثقة:

- قل لي، ما الذي يمكنني القيام به؟

أرخى عمر ذراعيه وأطلق أنفاسه:

- أخرجهنّ من هنا.

حاولت فاطمة دسّ وسادة تحت رأسه:

- لن أبرح مكاني، سأعتني به.

مسحت نادية جبينه بيدها:

- وأنا أيضًا.

فتح عينيه على وجه نادية المرعوب وصرخ فيها بعد أن فقد رباطة جأشه:

- اخرجي!

سحبت هدى فاطمة إلى الخارج:

- مروان يعرف ما يتوجب القيام به، هيا، تعالي.

نظرت من فوق كتفها:

- نادية، أنت أيضًا.

هزّت نادية رأسها والدموع تجري فوق وجنتيها، حرّكت شفتيها بعد أن احتبس صوتها:

- لا.

اختطف عمر وسادة وضغطها فوق وسطه ثم علا صوته كالنباح:

- سحقًا، انصرفي من هنا!

أمسك مروان نادية من كتفيها وأرغمها على التوجه صوب الباب:

- اذهبي من هنا.

هرولت النسوة إلى خارج الغرفة، وأوصدن الباب من خلفهن.

أمسك مروان رجليّ عمر كي يمنعه من السقوط عن الكنبة أثناء انتفاض جسمه وتلويه قائلًا:

- ألم يعتصر أحشاءك مرة أخرى؟

خبط عمر بقبضته مسند الكنبة:

- تبًّا، لم يكن أبدًا بهذا السوء.

رفع مروان رجليه:

- اطوِ ركبتيك، قال الطبيب إن هذا قد يساعد على تخفيف الضغط.

علا صوته بالسباب، لمرات عديدة. طحنت التشنجات أحشاءه وحولتها إلى لحم مفروم يصلح لحشوة كوسا فاطمة. أفلت ضحكة مريرة عندما مرّ هذا الخاطر في ذهنه. وعيه يكاد ينسرب من بين يديه والعرق يضمّخ قميصه، أم

تراها الدماء؟

فتح عمر عينيه:

- أين أنا؟

كان مروان جالسًا فوق مسند الكنبة بحذاء رأسه:

- في بيت فاطمة.

- هل أغمي عليّ؟

- أجل.

حاول معرفة ما فعله بلا وعي:

- هل قلت أو فعلت ما يستوجب الاعتذار؟

- ليس لي، لكنك أتخمت آذان النساء بلغتك المبهرجة.

زفر عمر:

- اللعنة!

- اسمع، من الأفضل أن أعود بك إلى المستشفى. دع الطبيب يفحصك.

- لن يخبرني بشيء لا أعرفه، حذرني من نوبات كهذه.

علا صوت نادية من خلف الباب المغلق:

- هل أستطيع الدخول؟

استوضحه مروان برفع حاجبيه.

قبض عمر على مسند الكنبة:

- ساعدني.

ردّ مروان على نادية:

- أمهلينا دقيقة.

اعتدل جالسًا، كان قميصه ملتصقًا بجلده وإبطاه مبللين بالعرق. لحسن الحظ أنه استحمّ وفرك جسمه جيدًا قبل مغادرة المستشفى، إلى أي حدّ رائحته سيئة؟ احتضن الوسادة مخفيًا الجزء العلويّ من جسده.

دخلت نادية وبين يديها صينية فوقها إبريق ماء وكوبان.

حاول عمر أن تكون نبرة صوته قوية:

- هل فاطمة بخير؟

كان الكوبان يهتزان فوق الصينية ووجه ناديه شاحب.

- فاطمة بخير.

أمنظره بهذا السوء؟

وضعت نادية الصينية فوق الطاولة:

- إنها قلقة فقط، أبقت عليها هدى وأم وليد بعيدة عن مجال السمع.

غمغم عمر:

- أعتذر عما بدر مني.

ملأت نادية كوبًا من الماء وناولته إياه:

- قلت لهما سأدعوهما إلى هنا بعد تفحّص وضعك ، كيف تشعر الآن؟

ارتشف عمر رشفات قصيرة:

- أحسن.

تجاهلت نادية مروان الذي صبّ لنفسه كوبًا من الماء، ورفعت يدها إلى جبين عمر قائلة:

- ماذا حصل؟ لقد أرعبتنا.

أغمض عمر عينيه، ورمى برأسه إلى الوراء من شدة التعب والإنهاك:

- مجرد تشنجات عضلية، ليس من أمر خطير.

قال مروان موضحًا:

- ما زالت عضلاته هشّة جراء ما أصيبت به من جراح بليغة، حال أن يسترد كامل عافيته ستتوقف هذه التشجنات.

- أتعني أن هذا قد يتكرر ثانية؟

- أخشى أن هذا أمر وارد.

فتح عمر عينيه وحدّق في صديقه بغضب:

- لا تثر خوفها.

- لا جدوى من إخفاء الحقيقة، كما لا بد من وجود شخص في البيت يعرف ما ينبغي القيام به لدى تعرضك لنوبة أخرى.

ردت نادية:

- بمقدوري أن أتصدى لهذه المهمة، علمني.

أن تراه نادية وهو يتلوى ويبكي مثل طفل؟ طغى الخوف على صوت عمر:

- لا داعي.

دلفت هدى إلى الغرفة ومن ورائها فاطمة، حمحمتا فوق رأسه، وشغلتاه عن منع مروان من أخذ نادية جانبًا لتعليمها ما يتوجب فعله.

لدى وصولهم إلى البيت، استجمع عمر قوته لمواجهة ترحيب ماما صبحية الحار. تنعّم بما غمرته به من حب صادق محاولًا تناسي أوجاعه والتمتع بما توليه

له من اهتمام. تحمّل ضمّتها الخفيفة في غرفة الجلوس ملاحظًا ما طرأ على تصرفات نادية؛ بدت قلقة وكأنها خائفة من شرّ مرتقب، تحوّم هنا وهناك وهي تعضّ على شفتها السفلى. لم يستطع تخمين سبب توترها، ولاحظ أيضًا أنها رافقت مروان إلى الباب وأخذت وقتها في توديعه.

كانت سميرة تكمن في الخلف كما لو أنها تتهيب من الحديث معه، أما هدى فاختفت في المطبخ، فيما ظلت ماما صبحية تعيد وتزيد في الحديث عن قدر اشتياقها له، وعن مبلغ امتنانها من عودته وأن نتيجة الحرب البائسة لم تعد مهمة طالما أنه عاد بالسلامة.

دخل شريف من الباب الأمامي.

أخذت ماما صبحية نفسًا عميقًا:

- عدت مبكرًا.

مد يده إلى عمر:

- استراحة قصيرة فقط، إنه لأمر حسن أن تكون بيننا في البيت.

صافحه عمر ولم يفهم أبدًا لماذا انهمرت دموع ماما صبحية. فتحت ذراعيها على اتساع وعانقت ابنها بشكل غريب؛ كاد شريف أن ينطبق بين ذراعيها. وقفت نادية على مسافة منهما وما غلّف وجهها من تعبير عجيب زاد عمر حيرة. من زاويتها، راقبت سميرة ما يجري بعبوس وهي تلوي فمها إلى جنب، دفعت هدى برأسها من باب المطبخ واسترقت النظر. كانت تصرفات النساء توحي بأنهن تباغتن من شيء ما. لو أنّه فقط في حالة من صفاء الذهن تمكنه من التحليل والتقييم، وفهم ما يجري من خلف الكواليس. لكنه مرهق للغاية. سرير، إنه بحاجة إلى سرير.

سحب شريف كرسيًا:

- هل تعرف متى يتوقع منك مراجعة قادتك العسكريين؟

كتم عمر تثاؤبًا بظهر يده:

- الإجازة الطبية لمدة شهر، آمل أن يمنحني الطبيب بعدها الضوء الأخضر.

اختطف شريف نظرة إلى ساعته:

- يمكنني أن أجلب وصفات الدواء في طريق العودة من العمل.

- أحضرتها معي. مسكنات، هذا كلّ ما في الأمر.

استدار شريف صوب زوجته:

- هل الغداء جاهز؟ يجب أن أعود سريعًا.

هرعت سميرة إلى المطبخ فتذكر عمر رفاقه عند إطاعتهم أوامر ضباطهم. إلى أيّ درك هوت سميرة من عليائها الملائكي؟ أغلق عينيه وأسند رأسه إلى الخلف

عاجزًا عن التفكير باتزان.

سحبته ماما صبحية من ذراعه:

- دعنا نأخذك إلى السرير.

هرولت نادية وفتحت باب غرفة ماما صبحية، ثم وقفت في المدخل وعصرت كفيها: هذه ستكون غرفتك.

نظر عمر في ماما صبحية مستفسرًا فدفعته برفق:

- هيا، ادخل.

خطا خطوة داخل الغرفة ومرّ بنادية قلقة:

- هذا غير ممكن.

استدار ليواجه ماما صبحية:

- ليس في وسعي أن أحتل غرفتك.

دفعته ماما صبحية أكثر:

- بوسعك وستفعل، إنها الأقرب إلى الحمام.

أمسكت بساعده وسحبته لافتة انتباهه إلى حنيّ رأسه:

- لم تعد كما كانت دون مصطفى، رحمة الله عليه.

- لكن...

ربتت على ذراعه:

- إنني بحاجة إلى أن أكون مع بناتي، وأنت بحاجة إلى خصوصيتك.

اعتدل عمر:

- شكرًا لك.

تناهى إليه صوت شريف من الخلف:

- اشكر نادية، هي من أجهدت نفسها في تجهيزها.

رفعت نادية حاجبيها:

- هل تعجبك؟

لم يرَ شيئا سوى وجهها الحبيب فتمتم:

- للغاية.

تركت ماما صبحية الغرفة:

- سأذهب لتحضير الغداء، وأنت استرح قليلًا.

لحقت بها نادية. وقعت عينا عمر على نظرات شريف الغائمة، فخفض عمر صوته قائلًا:

- لا تسئ فهمي، إنني في غاية الامتنان. لكن هل الجميع راضون بهذا الترتيب؟

هزّ شريف رأسه بإيماءة مربكة:

- مثلما قلت، أهلًا بك في البيت.

على مر الأيام اللاحقة، قام أصدقاء عمر بزيارته دونما توقف. تدفق على البيت سيل من الضباط والجنود الشباب، لكن ما شاب تصرفاتهم من شعور بالهزيمة شوّه ما كان يمكن أن يكون لحضورهم من أبّهة وفخامة. تساءلت نادية، وهي منشغلة بتحضير صواني القهوة والشاي، إن كانت ستعجب بوسامتهم لو أنهم عادوا منتصرين. عوض ذلك، أثارت بزاتهم العسكرية المكوية ونقاشاتهم السياسية ضيقها. كانوا يغرقون غرفة عمر بالدخان ويذكرونه بفشله ويزيدون من اكتئابه. يومًا تلو الآخر، كانت تراقبه وهو يحاول الاحتفاظ بتماسكه، وجرّ نفسه من هوة القنوط التي غرقت فيها البلاد بأسرها.

واجه عمر صعوبات جمة في مواجهة المهمات اليومية؛ مثل الذهاب إلى المرحاض، الاستحمام، استبدال ملابسه، وفي بعض الأيام، الإبقاء على ما في معدته. كانت نادية تقف بعجز خلف بابه الموصد، وتسمعه يتخبط في إنجاز تلك المهمات البسيطة وهو يسبّ ويلعن من الإحباط. لم يسمح لأيّ من البنات بمساعدته ولا حتى ماما. كان شريف يتغيب دائمًا عن البيت، وعند عودته لا يعرض أي مساعدة على عمر. دفعت قسوة قلبه نادية إلى حافة الجنون.

لأجل استعادة لياقته، استعان عمر بالصغيرتين في تدريباته الجسدية. كانت سلمى وفرح تنبطحان أرضًا وتمسكان بكاحليه كي يجرهما حول الغرفة. واجه صعوبات مريرة في البدء، ولم يستطع سحبهما لأكثر من نصف بلاطة قبل أن ينهار من الألم. لكنه واظب على التدريب بتحديد علامات فوق البلاط كأهداف لا بد له من بلوغها. عمل عمر على تقوية ذراعيه برفع معلبات، كتب وأكياس أرز وبرغل. تحدته الصغيرتان لحملهما كهدف نهائي. ضحكتا، شجعتاه ومنحتاه ما يحتاجه من محفزات. كان عمر يتعرق، يصرخ ويصك على أسنانه من التركيز، لكنه ثابر باجتهاد بالغًا هدفًا تلو الآخر.

لم يزرهم مروان كثيرًا حسبما اعتقدت نادية. كان لا يأتي إلا بصحبة عدد من الأصدقاء ويغادر معهم، فشعرت بأنه يتجنب الحديث معها أو اختطاف مجرد نظرة نحوها. حين عجزت عن تخمين سرّ عدم اهتمامه المفاجئ، واستبد بها الاستياء وخيبة الأمل، تحدته هي الأخرى وبذلت أقصى ما في وسعها حتى تتجنب مصادفته. امتنعت في أيام مجيئه عن حمل صينية الضيافة إلى غرفة عمر كالمعتاد وصارت ترسل سلمى في مكانها، وعندما يحين موعد خروجه كانت نادية تختفي في الحمام. ذات مرة، خرج مروان مع المجموعة التي جاء بصحبتها ثم عاد بعد دقيقة قائلًا إنه نسي مفاتيحه. تركته نادية يدخل وتظاهرت بأنها

مشغولة. في طريق خروجه، التقت عيناه بعينيها. هناك أمر ما، عينا مروان الداكنتان صرختا فيها وطلبتا منها شيئًا. التفهّم؟ الصبر؟ ما الذي يقيده؟ من؟ هدى؟ شريف؟

مساء يوم خميس، وبينما كان أصدقاء عمر معه في غرفته بعد أن التهموا كل ما أرسلته نادية لهم من المطبخ، جاءتها ماما وهي تغسل الصحون. وضعت ماما يدها فوق كتف نادية وقالت:

- أم وليد اتصلت، فاطمة متعبة. سأذهب إلى هناك.

جففت نادية يديها بمنشفة:

- سآتي معك.

هزّت ماما رأسها:

- أخذ شريف وسميرة شقيقتيك معهما لزيارة بيت أهلها، وهم لن يرجعوا إلا في وقت متأخر. وبعد قليل سيغادر أصدقاء عمر البيت، ينبغي ألا نتركه وحيدًا.

أومأت نادية: آمل أن تكون فاطمة بخير.

- لا تخبري عمر، لا داعي لإثارة قلقه.

- اتصلي بي وطمئنني عنها، أرجوكِ.

توجهت ماما صوب الباب:

- أنا متأكدة أن الوضع لا يستوجب القلق، إن وصلت هدى قريبًا أرسليها إلى هناك.

بعد ساعتين، أوصدت نادية الباب خلف آخر الزوار. عادت إلى المطبخ لترتيبه وهي تتلهف على فراق المغسلة وخلع ما في قدمها واستبدال ثيابها. يداها تبدوان وكأنها قضت اليوم بأكمله في تنظيف الصحون.

سمعت صوت تهشّم وارتطام عال من غرفة عمر فركضت بسرعة إلى هناك. وجدت عمر متكورًا كالجنين فوق الأرض. كان يتلوى ويتأوه من الألم وقطع الصحون والكؤوس المهشمة تتناثر من حوله وتحته.

هرعت نادية لدفع القطع الحادة بعيدًا عنه ثم قرفصت إلى جانبه:

- أنا هنا، أنا هنا.

صرخ عمر وطرق رأسه بالأرض مرتين، شرايين عنقه متضخمة ونافرة:

- اللعنة!

طوقته نادية بذراعيها وهي مذعورة:

- أرجوك، لا تتحرك. ستؤذي نفسك.

قال بغصّة وهو يصكّ على أسنانه:

- اخرجي، انصرفي من هنا.

جذبت بطانيته من فوق السرير، ثنتها وفردتها فوق الزجاج المتناثر:

- بإمكاني أن أساعدك، هل تقدر على الانتقال فوق البطانية؟

انقلب عمر على ركبتيه واستند فوق يد بينما ضغط بالأخرى على وسطه. تقيأ بذاءات لم تفهمها نادية ثم زحف وانطرح فوق البطانية. تمتم وصرخ في آن واحد وهو يشدّ ذراعيه حول وسطه:

- آسف، أنا آسف جدًا.

أمسكت نادية كاحليه، وبحسب تعليمات مروان، وقفت باستقامة ثم رفعت قدميه ووضعتهما فوق كتفيها:

- اطوِ ركبتيك.

دعت ألا يضاعف ما ستفعله من آلامه، خطت خطوات صغيرة إلى الأمام وهي ترفع رجليه إلى أعلى. أطبق بقبضتيه على مقدمة قميصه، وراح يطلق أنفاسًا قصيرة وسريعة مع كل خطوة تخطوها. لاحظت عددًا من الجروح الصغيرة في صدغه، رقبته وساعديه. تفشّت بقع من الدم في أماكن عديدة فوق بنطاله، معظمها حول ركبته اليسرى.

أغمض عمر عينيه، صوته كان ضعيفًا ومرتجفًا:

- لا تخافي، قد أفقد الوعي.

صاحت نادية فيه:

- لن تفعل ذلك يا عمر بكري!

انهمرت الدموع فوق وجنتيها، سال أنفها وبلل العرق جبينها:

- لن تروّعني على هذا النحو!

- أحاول ألا...

تلاشى صوته، ارتخى رأسه ومال إلى جنب.

- عمر؟

لم يرد.

أنزلت قدميه إلى الأرض، ركعت بقرب رأسه ويداها تحومان فوق وجنتيه. «لا تضطربي، لقد فقد وعيه. هذا كل ما في الأمر.» مررت كمها تحت أنفها وهي تحدث نفسها: «قال مروان إن غيبوبته قد تستغرق دقيقتين.» تفحّصت ساعتها وفكّرت في استدعاء مروان فهو يعرف ما يجب القيام به. لكن الوقت متأخر، ولن يصل إلى هنا قبل أن يفيق عمر.

هل ينبغي لها أن تصفع عمر؟ تصبّ ماء باردًا فوق وجهه؟ تنتظره ريثما يفتح عينيه؟ دفعت بجذعها إلى الوراء ثم ارتكزت على كعبيها ومسحت بعينيها

جسده المرتخي. عليها اللعنة إن كانت ستجلس دون حراك بينما هو غائب عن الوعي وينزف.

هرعت إلى الحمام وجذبت عددًا من المناشف النظيفة ثم ملأت وعاء بماء ساخن من المطبخ وعادت إلى الغرفة. جلست فوق وسادة لاتقاء ما على الأرض من زجاج مكسور.

استهلت عملها بالجروح في صدغه، مسحت الدماء بمنشفة رطبة وجففت المنطقة ثم انتبهت إلى إزالة قطع الزجاج الملتصقة بجلده. هبطت إلى أسفل، فكّت قميصه واعتنت بجرح في رقبته وآخر في كتفه ثم عثرت على اثنين فوق سرّته. كانت الدماء أشد نزفًا من ذراعيه فالجروح هناك أعمق. استخدمت أسنانها في تقطيع المنشفة الجافة واستخدمتها في تضميد الجراح النازفة.

«حان أوان استعادتك للوعي يا عمر،» قالت بصوت عال. «أريدك أن تفيق الآن.»

أزاحت بظاهر يدها خصل شعرها عن وجهها: «إنني لا أحتمل رؤية الدماء، أتعرف ذلك؟» هزّت رأسها: «قطعًا لن أسجل في معهد التمريض.»

كانت ندوب ما أصيب به من جراح في الحرب تغطي جنبه الأيسر، اقتفت آثارها البارزة بأناملها، ثم صرفت انتباهها إلى رجله. كانت الدماء قد أغرقت المنطقة التي تغطي ركبته اليسرى. انحنت، حاولت جذب رجل بنطاله لمعاينة الجرح، لكن القماش أبى أن يرتفع فوق عضلة ساقه.

«من بين سائر الأيام يا عمر، لم يحلُ لك فعل هذا إلا في هذا اليوم؟» لطمت فخذيها من الإحباط. «بينما ليس من أحد في البيت إلا أنا؟»

حاولت وعيناها تغطيهما غشاوة من الدمع فكّ حزامه وسحابه بيدين مرتجفتين: «لا أصدق أني أفعل هذا.»

مصممة على وقف نزيف جرح ركبته البليغ، لملمت حاشية تنورتها الحمراء، وثبتتها بين رجليها ثم جلست فوقه. أمسكت جنبي بنطاله وشدت لسحبهما أسفل وركيه. لحظة أن انكشفت أطراف لباسه الداخلي توقفت ومسحت مزيدًا من الدموع المنهمرة فوق وجهها.

«لا تجرؤ على الإفاقة من غيبوبتك الآن، سأموت من الخزيّ.» أغلقت عينيها ودفعت ثانية.

جمّد صوت هدى نادية في مكانها:

- ما هذا الذي تفعلينه؟

فتحت عينيها برعب، وأدارت رأسها صوب هدى.

كانت هدى تقف في حلق الباب وما يعلو وجهها من نظرة مهولة لا يمكن

استكناه معناها.

تركت نادية بنطال عمر وقامت من فوقه:

- الحمد لله على مجيئك، ساعديني.

اقتربت هدى ومسحت عمر بعينيها من رأسه وحتى أخمص قدمه:

- كم مرّ من الوقت وهو غائب عن الوعي؟

- عدة دقائق، لست أدري.

أشارت نادية إلى ركبته:

- انظري؟ أصاب نفسه بجرح بليغ وهو يتلوى فوق الأرض.

جذبت هدى وسادة من فوق السرير، ثم رمتها أرضًا وركعت فوقها:

- حسنًا، وقبل أيّ شيء، لن أساعدك على تجريده من ملابسه.

رمتها بنظرة باردة:

- إنني متفاجئة من قدرتك على بلوغ هذا الحدّ.

تلعثمت نادية:

- إنه... إنه ينزف. لديه جراح في كافة أنحاء جسده.

- أستطيع رؤية ذلك.

شقت هدى رجل بنطال عمر من نهايته وحتى الفخذ فانكشفت ركبته النازفة.

ضغطت نادية وجنتيها الملتهبتين بظاهر كفيها:

- لم يخطر هذا ببالي.

كانت نبرة هدى متوعدة أكثر منها آمرة:

- اجلبي حقيبتي.

بحركات دقيقة، استخرجت هدى قطعة زجاج كبيرة من ركبة عمر. انهمر الدم فغطّته بشاش معقم من حقيبتها ثم جذبت يد نادية ووضعتها فوق الجرح:

- اضغطي هنا ريثما أجهز الضمادة.

تسرّب الدمّ الحار من بين أصابع نادية فأدارت وجهها وازدرت ريقها بضع مرات كي تهدئ من روع نفسها.

أومأت هدى لحظة أن انتهت:

- عظيم، هذه الضمادة لن تنزلق من مكانها بسهولة.

مسحت نادية يدها الملطخة بالدم ثم جمعت أدوات هدى ودسّتها في حقيبتها:

- آه، يا إلهي! لقد نسيت. أسرعي، يجب أن تذهبي إلى فاطمة، ماما هناك.

قفزت هدى على رجليها:

- هل تعرضت للنزف ثانية؟

هزّت نادية رأسها:

- لست أدري، قالت لي ماما أن أرسلك إلى هناك حال وصولك.

أشارت هدى إلى عمر:

- أبقيه دافئًا وتأكدي من شربه كثيرًا من السوائل عند استيقاظه.

توجهت صوب الباب:

- ولا تقولي له إنني كنت هنا، فلن أتمكن أبدا من رفع عيني في عينه ثانية. ليس بعد أن رأيته وهو بهذه الهيئة.

صفقت هدى الباب الأمامي من ورائها.

طرفت عينا نادية، ما الذي تقصده هدى؟ أي هيئة تلك؟ تفحّصت عمر. كان قميصه مفتوحًا ولا يستر سوى أحد كتفيه، بنطاله مسحوب إلى ما بين خصره ووركيه، فخذه مكشوف ويطل من المزق الواسع لبنطاله. ممدد فوق ظهره وهو شبه عار، كان بطن عمر مشدودًا ومجدولًا بعضلاته الست، وما يتحدّر من عرق فوق جسده يضفي على عضلاته الضخمة لمعانًا وتوهجًا. كأنّ عمر بجسده الماثل أمامها قد قفز من أحد قصص الجبابرة التي تخصها، كيف لم تلاحظ هذا من قبل؟

انبعث صوت من حلق عمر.

يا الله! إنه يسترد وعيه. خوفًا من رؤيتها وهي تحدق فيه ببلاهة اختطفت بطانية وأسدلتها فوقه. جالت ببصرها فيما يحيط بها من فوضى عارمة. كانت بقايا الصحون المهشّمة، الأكواب المكسّرة، فتات البقلاوة وبقع الدماء تغطي أرضية الغرفة. أخذت نفسًا عميقًا، مسّدت شعرها وبدأت بالتنظيف.

# 25

اخترق حفيف خفيض عالم عمر المظلم. فتح عينيه، أين هو؟ لم يمنح شقّ معوجّ في السقف ذهنه المشوش أي علامة على مكان وجوده. أدار رأسه صوب الصوت الغريب، سدت ساقان بضّتان ممشوقتان مجال بصره. طَرَفَ وصعدت عيناه فوق تنورة حمراء لامرأة ووصلتا إلى وركيها، كانا يتمايلان يمينًا ويسارًا. راقصة؟ زاهرة اللاهبة؟ هل هو في نادي الزنبقة البيضاء؟ هبّ قاعدًا فسقطت بطانية عنه وكشفت عن صدره العاري.

كان صوته مشروخًا وحلقه متيبّسًا:

- ماذا؟ ما الذي يجري؟

استدارت المرأة ومكنسة في يدها:

- استفقت.

نادية؟ تخبّط في النهوض على قدميه فسقطت البطانية أرضًا وكاد بنطاله أن يلحق بها. قبض على جنبيه في اللحظة المناسبة، وانطلق ذهنه بسرعة الضوء كي يستعيد تركيزه. قال بارتباك:

- ما هذا بحق الجحيم؟

- أنا من فعل هذا.

تقوّست ركبته فهوى فوق السرير.

كانت أنامل نادية تتحس بارتباك زرّ قميصها العلويّ:

- لم أصب أبدًا بمثل هذا الخوف في حياتي.

بسطت يدها فوق صدرها:

- لكنني أنا من فعل هذا.

حملق عمر فيها وهو يحاول جذب فتحتي قميصه بيد واحدة. كانت يده الأخرى تقبض بشدة على بنطاله المشرع بالكامل.

- ماذا؟

- تلويت على الأرض فوق الزجاج المهشّم فأصبت جسدك بجراح، قمت بتضمديها لك.

تركت المكنسة ترتطم بالأرض واقتربت:

- رغم أنني لا أطيق منظر الدماء وأنت تعرف ذلك.

اختطف نظرة إلى ذراعيه ورجله، لماذا جسده مكشوف إلى هذا الحد؟ رحمتك يا الله، ما الذي فعله؟ ازدرد ريقه بصعوبة بالغة:

- إنني لا أتذكر...

عضّت نادية على شفتها السفلى:

- آسفة بشأن بنطالك، تمزيقه كان أسهل...

احمرّت وجنتاها:

- أسهل من محاولة دفعه إلى أسفل.

استدارت صوب الخزانة الصغيرة المحاذية للسرير فتوارى وجهها عن ناظريه.

ابتلع ريقه لترطيب حلقه المتيبس، نادية خلعت له ملابسه؟ مثل الصاعقة، فجّر هذا الخاطر شحنة كهربائية سرت في جسده شبه العاري.

ناولته كأسًا من الماء:

- يجب أن تشرب، لا بد أنك كنت تحمل الصينية عندما أصبت بالتشنجات.

- أذكر أنني كنت أحاول تنظيف الغرفة.

جلست بقربه فوق السرير:

- كان ينبغي ألا تفعل ذلك.

سحب البطانية فوق حجره، لم يكن هناك من طريقة محتشمة تمكنه من رفع سحاب بنطاله وهي تجلس على تلك المقربة منه، كما أنه يعجز عن المشي إلى الحمام وهو في ذلك الوضع المتردي صحيًا. لا بد من إخراجها من الغرفة.

- اذهبي واطلبي من ماما صبحية أن تأتي إلى هنا، لو سمحتِ؟

- إنها ليست هنا، لا يوجد أحد بالبيت.

كرع ما في الكأس دفعة واحدة.

همست:

- لا تحاول مساعدتي مرة ثانية.

كانت عيناها العسليتان واسعتين وجديّتين، شفتاها حمراوين ونديّتين.

سحب عمر البطانية إلى أعلى وسطه. تبًا، أين شطح به ذهنه القذر؟ ألا يستطيع جسده أن يتحمّل هذا القرب من نادية دون أن ينفعل مثل تلميذ مصعوق بالحب؟ دون أن يخزيه ويشعره بالعار؟

نهضت نادية عن السرير ورفعت المكنسة:

- دعني أنظف هذه الفوضى كي أتركك بعدها لتستريح.

بحركات متخشبة وموجعة، وضع الكأس فوق الخزانة الصغيرة بحذاء

السرير، ثم تمدد على جنبه وتأكد من أن البطانية تغطيه جيدًا. راقب نادية وهي تكنس الغرفة فاختطف وركاها المتمايلان أنفاسه، تحول إلى ثور تصارعه نادية بتنورتها الحمراء من فوق حلبة. تهيّج جسده الدائخ والمشوش بكل ما صدر عنها من حركات، أثارته كل ضربة بالمكنسة من يدها، كل ردة لشعرها إلى الوراء، كل خطوة ونقرة لحذائها فوق أرضية الغرفة. في خلفية ذهنه القذر، كانت حشود المتفرجين تهلل لنادية كي تسدد ضربتها القاضية.

أغلق عينيه. تلوّت له زاهرة اللاهبة بإيقاع مغوية وهي في بذلة رقصها الفاضحة. ضربات الدربكة في أذنيه حاكت نبضات قلبه المتسارعة. كثيرًا ما زارته تلك الراقصة في أحلامه عندما كان راقدًا فوق سرير المستشفى بلا حراك ليلة تلو الأخرى. لكن كان لها وجه نادية الآسر، بشرتها التي تمزج الشاي بالحليب، وطرف شعرها المربوط على شكل ذيل فرس يتقافز هنا هناك. حينذاك، كان يلوم ما يسبح في دمائه من عقاقير طبية على تلك الزيارات الفاحشة، أيّ مبرر سيسوقه الآن لنفسه؟

أصدرت نادية صوتًا، همسة عذبة.

فتح عينيه.

كانت تحني جذعها وتمدّ مكنستها تحت أحد الكراسي، وضعية جسدها أتاحت له نظرة خاطفة إلى مبتدأ نهديها.

تصبّب العرق فوق صدره وظهره. إنه يغرق، يغوص عميقًا نحو القاع. ليت بإمكانه رمي البطانية عنه أو فقدان الوعي ثانية قبل أن يجرّه جسده قسرًا نحو نقطة اللاعودة.

- اخرجي.

تدبر أمر النطق بتلك الجملة لكن لهجته وشت بالفظاظة والاستعجال.

غرّدت نادية مثل البلابل:

- أشارف على الانتهاء، لا بد لي الآن من مسح الغرفة بالماء.

أولته ظهرها ثم انحنت لرفع كومة من الوسخ.

عظيم، هذا ما كان ينقص رجلًا منحرفًا مثله تهيّج من مكنسة تحركها يد نادية. انقلب بصعوبة على جنبه الآخر، سرّح بصره خارج النافذة، تفحّص رسومات الصغيرتين المضحكة فوق الحيطان، بحثت عيناه عن أي شيء لتسقطا عليه عدا تكورات جسد نادية. تفحّم جلده تحت ألسنة من النيران الحارقة، تقطعت عضلاته من شدة الترقب واستبدّ به الألم. ألم مرغوب وفيه لذة: مُلّحٌ، متصاعد، طاغ على نبض جروحه، وغامراً لأعصابه. عند اقتراب تماسكه من شفير والانهيار، أفلتت أنّةٌ من حلقه.

- هل أحضر لك شيئًا؟

كان صوت نادية دانياً، مغويًا، معذبًا بدوام قربه وبعده، ومستدرجًا إلى حافة الاستسلام المذلّ.

- أريدك أن تخرجي في الحال.

تقعّرت الفرشة من ورائه لدى قعودها فحبس أنفاسه.

انبعث صوت آخر منها، تنهيدة رقيقة.

دفن وجهه في وسادته، الثور استسلم، ترنّح وأوشك على السقوط.

- ما الأمر؟ دعني أساعدك؟

سحب البطانية فوق رأسه وصرخ بأعلى طاقة لحنجرته:

- انصرفي بحق الجحيم.

عند الخيط الأول من الفجر وقبل استيقاظ أيّ أحد، تسلل عمر إلى الحمام واغتسل. دعك جلده حدّ السلخ وكوى الماء الساخن جروحه، لكنه لم يبال. إنه قذر حتى النخاع وليس في وسعه تطهير نفسه، كيف له أن يصلي الجمعة؟ كيف سيقف بين يدي الله كتفًا إلى كتف مع الأطهار وقد قضى ليلته غارقًا في مستنقع أفكاره القذرة؟ إن الاغتسال يطهر بدنه، لكن أنّى له تطهير ذهنه؟ ألا يجدر به أن يتغيّب عن المسجد؟ ألا يستطيع التعذر بالمرض؟ سبب مقبول، بالتأكيد. لكن طبيبه المكلف بتقييم حالته يتردد على ذلك المسجد، وإن لم يره يعود إلى مزاولة أنشطته الطبيعية، فسيؤجل رجوعه إلى صفوف الجيش. ليكن الله في عونه، إنه بحاجة ماسة إلى العمل، إلى مشاغلة نفسه، إلى ترك البيت والبقاء بعيدًا عن نادية طيلة ما أمكنه ذلك.

رجع إلى غرفته، نقّب في أوراقه وانتزع آخر رسالة استلمها من وزارة الدفاع. كانت تستدعيه لمراجعة وحدته في السبت المقبل لأجل تقييم تقريره الطبي. أسبوع، لديه أسبوع لإقناع طبيبه بأنه في وضع صحيّ مؤاتٍ.

رنّ جرس الهاتف، من الذي يتصل في مثل هذا الوقت المبكر؟ فتح الباب وهرول إلى الهاتف في غرفة الجلوس.

كانت نادية قد سبقته وهي تتدثر برداء فوق قميص نومها وشعرها طليق ومنسدل فوق كتفيها.

«سنكون في الطريق،» أنهت المكالمة.

- من؟

اتجهت نادية صوب غرفتها وبدأت في خلع رداءها العلوي قائلة:

- إنه وليد، فاطمة عانت من المخاض طيلة الليل يجب أن نذهب إلى المستشفى.

تعثر عمر في مشيته من ورائها:

- سأذهب الآن، لا أستطيع انتظار الجميع كي يجهزوا أنفسهم.

- ليس من أحد هنا، ماما وهدى قضتا الليل مع فاطمة.

أغلقت الباب في وجهه:

- سأجهز نفسي خلال بحثك عن سيارة أجرة.

لحق عمر، وهو يعرج، بنادية ودخل قاعة الانتظار. أبصر وليد وهو يذهب ويجيء في القاعة التي جلس في زاوية منها رجلان يدخنان.

أشار وليد إلى نهاية ممر طويل:

- إنهم في الداخل، ستأتينا هدى بالأخبار.

أراد عمر التأكد من استدعاء الطبيب البارع الذي أوصى به قبل مدة:

- الطبيب أنور؟

- اتصلت به قبيل مغادرتي البيت، وصل إلى هنا بعدنا بوقت قصير.

أومأ عمر. خدمته علاقاته العامة في هذا الشأن، فأحد الجنود في كتيبته يكون ابن أخ الطبيب البارع. طبطب عمر على محفظته في جيبه الخلفي، ما ادخرته ماما صبحية له من نقود سيسعفه في هذه اللحظة.

سألت نادية وليد:

- كيف حالها؟

- هادئة، حقًّا هادئة.

فرك وليد ذقنه غير الحليق:

- الأمر غريب، أليس كذلك؟

ضحك أحد الرجلين في الزاوية:

- مولودك الأول، هه؟

عبس عمر في وجه الرجل الذي يلفّه الدخان.

قال الرجل وهو ينفث دخان سيجارته مرة تلو أخرى:

- إنه مولودي الخامس.

انفرجت شفتاه على اتساع فبانت فجوة مربعة بين ثناياه العلوية:

- إن لم تلد لي صبيًا هذه المرة، سأبحث عن زوجة ثانية.

انهمك وليد في حديث مع الرجل مستفسرًا عن ولادات زوجته الأربع في ذلك المستشفى.

جذبت نادية عمر من مرفقه وقادته إلى إحدى الكراسي تحت نافذة مفتوحة. أسند ساعديه فوق ركبتيه وحملق في الأرض.

جلست نادية فوق كرسي إلى يساره:

- من غير المعقول أن يسأل وليد الرجل عن زوجته بهذه الطريقة.

لفت ساقًا فوق ساق:

- ليس من اللياقة والحشمة.

ألقى عمر نظرة خاطفة على الرجل:

- وليد قلق وانشغاله في الحديث أمر جيد، كما لا يبدو الرجل متضايقًا من الأسئلة.

- ومع ذلك، أرى أن الأمر غير لائق.

همست:

- إنها أمور شخصية.

أسند عمر ظهره إلى الكرسي:

- لماذا لم تخبريني أن فاطمة كانت تعاني من المخاض طيلة الليل؟

- كنتَ بحاجة للراحة، كما أن ماما قالت لي إنها ستتصل عندما يحين الوقت.

لوّحت نادية يدها في الهواء:

- وها نحن هنا.

قلّبت كتفيها في مفصليهما ومطّت عنقها يمينًا ويسارًا:

- كيف حال ركبتك؟

- تلسعني قليلًا عند ثنيها.

تفحّص وجهها فرأى هالات داكنة أسفل عينيها:

- أنت مرهقة.

- لم أنم ليلة أمس.

تنحنح:

- لماذا؟

- كنت أنتظر مكالمة ماما وأنتظر إن كنت بحاجة إلى أي شيء. لست أدري، لم أستطع النوم وحسب.

نهض من كرسيه ثم طوى ذراعيه فوق صدره وأسند ظهره إلى الحائط. تفحّص الرجل الآخر في الزاوية، كان مثل المدخنة يدخن سيجارة تلو الأخرى وهو ينصت لحديث وليد مع الأب صاحب السن المخلوع. بين الفينة والأخرى، كان الرجل يصوّب عينين بحجم الخرز نحوه.

لو أن عمر مدخن مثل كل من يعرفهم، لأخمد هو الآخر نيران أعصابه بالنيكوتين. من الأجدر بفاطمة أن تخرج من هذا وهي حية ترزق. إنها قوية البدن، وتتمتع بصحة جيدة، وتلد في مستشفى معقم وتحت إشراف طبيب

أخصائي. تغيّر الزمن منذ ولدته أمه، جنين فاطمة لن يقتل أمه. متذوقًا طعم الدم في فمه، تنبّه إلى أنه كان يمضغ لحم وجنتيه.

- أين الصغيرتان؟

- أخذهما شريف معه إلى بيت أهل سميرة. اتصلت به ليلة أمس وقلت له أن يبقيهما هناك.

لو كان عمر يعرف بأنهما سيقضيان الليلة بمفردهما في البيت لجرجر نفسه وخرج من هناك. نادية الغافلة لم تفكر فيما قد يقوله الجيران، لكنه كان حتمًا سيفكّر في ذلك. لا مجال أبدًا لإثارة الظنون حول مسائل من هذا القبيل.

- كان يجب أن تخبريني بذلك.

- متى؟ عندما كنت فاقدًا للوعيّ أم بعدما طردتني من غرفتك؟

- أشكرك على مساعدتك ليلة أمس. أعرف أنني لم أبدُ ممتنًا، ولكني حقًا كذلك.

تململت نادية في كرسيها وحدّقت فيه بشدة:

- كنت غاضبًا يا عمر. و...فظًا.

تدفقت الدماء إلى عنقه، فسحب أنفاسًا عميقة محاولًا منع وجهه من الاحمرار. أدرك أنه أخفق مما أطل من عيني نادية من نظرة مستغربة. تحرك للجلوس بجنبها متظاهرًا بأنه يريد فحص رباط حذائه وقال:

- اعتذر. لم أكن غاضــ...

- أنا لا أفهم الرجال، إنك لا تتصرف أبدًا بحسب ما هو متوقع.

- أنتن البنات لستنّ أحسن حالًا.

- النساء.

رفع رأسه وتوقف للحظة عن الكلام.

نفخت نادية صدرها ثم قوّمت ظهرها:

- تعني نحن **النساء**.

أرجع ظهره إلى الوراء وأطلق نفسًا طويلًا:

- حسنا، أنتن النساء تربكننا نحن أيضًا.

استدرك:

- مهلًا، من غيري تصرّف معك على نحو غير متوقع؟

احمرّت وجنتا نادية، فألقت ببصرها في حجرها وظلت صامتة.

طنّت أجراس إنذار في أذنيه:

- كلّميني يا نادية.

هزّت رأسها:

- الوقت غير مناسب.

- وهل لدينا من شيء آخر؟

حاول أن يواري رعبه الداخلي ولكز كتفها بكتفه:

- سيشغلني الحديث عن التفكير بفاطمة.

رمى وليد نفسه فوق كرسي بقربه:

- يا إلهي! لم أعد أحتمل معرفة أي تفاصيل أخرى.

وضع عمر يده على كتف وليد:

- فاطمة لديها أفضل طبيب في البلد، حاول الاسترخاء قليلًا.

قصدهم الرجل المدخنة وهو يمشي بخيلاء ووقف أمام عمر:

- ما رتبتك؟

نهض عمر وبسط يده مصافحًا:

- ملازم ثانــ... ملازم أول عمر بكري.

ضيّق الرجل عينيه فتحولت حدقتاه الخرزيّتان إلى شقين ضيقين، ترك يد عمر معلقة بالهواء:

- تقولها وبفخر؟

هبّ وليد على قدميه:

- حسبك.

أبقى عمر بيده الأخرى على وليد في مكانه، حاول أن يقترب من الرجل فمنعته عطانة النيكوتين:

- كيف عرفت أنني عسكريّ في الجيش؟

أشعل الرجل سيجارة ونفث دخانها في وجه عمر:

- أنت الإنجليزي.

جفل عمر:

- لم يدعني أحد بهذا اللقب مذ كنت صبيًّا، هل أعرفك؟

هزّ المدخن رأسه:

- كلا، لكن أنا أعرفك.

- لو كنت تعرفني حقًّا، لكنت تعلم بأنه لا يجدر بك أن تدعوني بهذا اللقب.

عاد الرجل إلى كرسيه تاركا غيمة من الدخان في أثره.

تقدم عمر:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

- ليس مهمًا ما أريده أنا.

سحب نفسًا من سيجارته بشدة، فتوهجت حافتها المشتعله أمام عينيه الخرزيّتين:

- سنلتقي مرة أخرى أيها **الإنجليزي**.

كّور عمر قبضتيه، وتأهبت عضلاته للعراك.

أمسك به وليد من ذراعيه:

- دعه، المكان غير مناسب.

جذبت نادية يد عمر:

- هل أنت جائع؟ إنني بحاجة للطعام، تعال معي إلى الكافتيريا.

سحب عمر عينيه بعيدًا عن الرجل الذي استفزه بسخريته، ونظر في وجه نادية المذعور، العراك هنا سيكون عملًا أحمق. عاود النظر إلى الرجل المدخنة.

ارتسمت ابتسامة غريبة فوق شفتيّ الرجل ثم رفع يده إلى جبينه وحيّاه بتحية عسكرية.

صكّ عمر على أسنانه، ثمة شيء في تلك التحية، شيء أشبه ما يكون بعلامة على أمر ما. من يكون هذا الرجل بحق الجحيم؟

جذبته نادية من جديد:

- أرجوك.

تنهد وترك نادية تجرجره إلى بعيد.

عندما أصبحا بعيدين عن الأسماع، سألته نادية:

- ما مشكلة هذا الرجل؟

- إنه مثل الجميع، يشعر بالخيبة من نتيجة الحرب ويبحث عمن يلومه.

محاولًا تغيير الموضوع، تباطأ في المشي قائلًا:

- هل ستخبرينني بما يضايقك؟ أم ستتركينني أخمّن وأقلق على فاطمة وعليك أنت أيضًا؟

- ليس من شيء.

تعجّلت نادية في المشي وتجاوزته:

- إنني مشوشة فحسب.

لحق بها وأمسك بمرفقها ثم أدارها لتواجهه:

- بشأن ماذا؟

همست وعيناها مصوبتان إلى أسفل:

- بشأن من.

أنزل يده إلى جانبه:

- من يشوشك؟

التمعت عيناها بنظرة مترددة:

- مروان، إنه... مختلف.

- مختلف؟ كيف؟

راحت تعبث بأطراف قبتها:

- منزوٍ. إنه يتجنــ... يتجنبنا. كان في العادة يزورونا طيلة الوقت، أما الآن فلا يأتي إلا لرؤيتك ثم يغادر دون التفوه بكلمة.

استأنف عمر المشي مواريًا ما انتابه من ارتياح بالتظاهر بالبحث عن إشارة إلى الكافتيريا ثم قال:

- مروان لديه مشاغل كثيرة ومسؤوليات ضخمة، إنه يدير تجارة العائلة بمفرده. مقتل ابن عمه قصم ظهر والده الذي ترك كل شيء ليسقط على كاهل مروان.

لحقت نادية به:

- ذهبت هدى وماما مع رحاب لتعزية زوجة ابن عمه. المسكينة، ترملت وهي في ريعان الشباب.

- كثيرات في مثل حالها، ألم تذهبي معهن؟

- لم أستطع بسبب الصغيرتين.

استدارت لتواجهه وخطت خطوتين إلى الوراء:

- ماذا عن بقية أبناء عم مروان؟ لماذا يتحمل كامل العبء بمفرده؟

- إنهم أبناء خؤولته ولا يمتّون لوالده بصلة من الدم، لديهم تجارتهم الخاصة.

وصلا الكافتيريا التي كانت تعجّ بزبائن الفترة الصباحية. اعتراه الارتياح لانقطاع الحديث شاعرًا بأنه تمكن بذكاء من تبديد ما ينتاب نادية من تشوش إزاء تصرفات مروان. طلب شطائر جبنة «حلومي» مشوية.

رفعت نادية حاجبيها:

- خمس شطائر؟ هل أنت جائع إلى هذا الحد؟

- حسبت حساب الرجلين، ربما لم يتناولا أي طعام مثلنا.

- ستطعم ذلك الرجل البغيض؟

لوى عمر فمه وأومأ برأسه:

- أجل، هو أيضًا.

أثناء انتظار إعداد الشطائر فاجأته نادية بسؤال:

- هل تعتقد أن شريف توعّد مروان لحمله على تجنبنا؟

- ماذا تقصدين؟

- كان مروان يهمّ بالخروج ذات ليلة، أقسم بأنه كان يريد قول شيء لي لكنه أحجم. الوضع مكشوف وليس بسرّ، شريف لا يحب مروان.

ارتفعت أصابعها إلى قبة فستانها ثانية، لم تكن هناك أزرار لتعبث بها لكن عادتها تلك فضحت توترها. قالت:

- هل أفصح لك مروان عن شيء؟

- بشأن ماذا؟

غاص صوتها في صدرها:

- بشأن... خططه المستقبلية؟

جذب عمر كيس الشطائر الساخنة من فوق طاولة البيع بعد أن تلكأ في تسديد ثمنها. ذاك هو إذًا، نادية تريد أن تعرف منه طبيعة نوايا مروان تجاهها. ماذا بوسعه أن يقول؟ مروان يريد طلب يدك؟ مروان فعل ذلك بالفعل لكنني طلبت منه الانتظار. كيف ستفكر في ذلك؟ ما الذي ستظنه به؟

- مروان يتكفل الآن بعائلتين، عائلة عمه وعائلة ابن عمه، هذا عدا عن أخواته. لا أظن أن لديه خططًا شخصية في الوقت الحاضر.

ثمة ما تهشّم داخل عيني نادية الواسعتين، خبا بريق الأمل فيهما.

ما الذي فعله بناديته؟ أيّ قلب أناني ذاك الذي يحبها به؟ زفر ونقل كيس الشطائر إلى يده الأخرى. لقد قال الحقيقة، أليس كذلك؟ إن التزامات مروان العائلية تتعقد يومًا بعد يوم، كيف له أن يزجّ بنادية الغافلة وسط هذا كله؟ هاك، ذاك سبب نبيل يبرر قراره بإبقاء مروان على بعد، لكن لتحلّ عليه اللعنة إن كان هذا يشعره حقًّا براحة الضمير.

- يجب أن تفكري في مستقبلك يا نادية فالوقت يوشك على النفاد. قدمي طلبًا للجامعة إن كنت لا تريدين دراسة التمريض في المعهد.

- يجب عليك أن تقف إلى جانب صديقك، فهو لم يتوان عن الوقوف إلى جانبك.

جفل عمر كما لو أنه تلقى صفعة على خده:

- أعرف جيدًا ما الذي فعله مروان لأجلي.

شدّ كتفيه:

- إنني أبذل قصارى جهدي لمواجهة ما هو أمامي الآن.

احمرّ وجه نادية خجلًا:

- لم أقصد القول إنك تخليت عنـ...

قاطعها:

- أعرف ما الذي تقصدينه. دعينا نعد، آمل أن تكون هناك أخبار جيدة.

أسرع بخطاه العرجاء في المشي محاولًا ألا يغضب. أي حق لديه في أن يشعر بالإهانة من كلماتها؟ إنها محقة. يجب أن يساعد مروان، لكن الرجل العنيد لم يشتكِ له من ظروفه. ماذا بوسعه أن يفعل؟ ليس بمقدوره التدخل في شؤونه العائلية، أو مساعدته في تجارته. بمقدوره فقط أن يردّ له نقوده بحسب اتفاقهما، هذا كل ما يستطيع فعله.

استرق عمر نظرة خاطفة نحو نادية فأبصرها تسير بحذائه صامتة وهي تطأطئ رأسها. ربما بوسعه أن يمنح مروان بصيصًا من الأمل، أن يدع قلبه يقرّ وخاطره يستكين، أن يعيد البريق إلى عينيّ نادية. لكن الوضع كان أشبه ما يكون بالميزان، إن رفع عمر العبء من كفة صديقه فلن يكون أمامه سوى تكويمه في كفته هو.

وصل الكبش السمين بهياج وصياح إلى أعلى الدرج. حُمِل على ذلك بقسط من الجرّ وقسط من الترغيب؛ وليد قبض على قرنيه، الجزار دفعه من قوائمه الخلفية، وصبيّ الجزار أغراه بتلويح حزمة من العشب في وجهه.

كان الجيران والأصدقاء يقفون على طول الدرج مهللين مشجعين وهم يكررون قول ما شاء الله مرات ومرات.

عاجزًا عن المساعدة فيما يتطلب مجهودًا بدنيًّا، اكتفى عمر بمراقبة ما يجري من فوق الدرجة العليا. كان قد عكف طيلة الصباح على تجهيز مطبخ فاطمة للطقس الاحتفالي؛ غطّى الأرضية بمفارش بلاستيكية، صفّ أضخم ما عثر عليه من حلل فوق سطح المطبخ وعلّق سلسلة تنتهي بخطّاف من عارضة في السقف. تدبر كافة الأمور ومروان معه يدله ويرشده.

جذب مروان السلسلة بكل قوته:

- هل أنت متأكد من أن هذه لن تنقطع؟ كان عمي يستخدم شجرة في فناء بيتنا.

وضع عمر حلة نحاسية ضخمة تحت الخطّاف:

- لن تنقطع.

- عقلاء الناس يشترون حملًا متوسط الحجم، أما ما فعله صهرك فهو الحماقة بعينها. هذا الكبش أثقل مني ومنك مجتمعين.

ضحك عمر:

- أم وليد ذهبت برفقته إلى البائع واختارته بنفسها.

لحظة ذكر اسمها، دلفت أم وليد إلى المطبخ:

- هل كل شيء جاهز؟ أين أوراق لفّ حصص اللحم؟ لا أريد استخدام الجرائد. الناس لا يستحقون أن يصلهم اللحم وهو مصطبغ بالحبر.

رافقها عمر إلى غرفة فاطمة:

- صبي الجزار لديه لفّة من الورق. لا تقلقي، جهزنا كل شيء.

كانت فاطمة جالسة فوق كرسي قبالة النافذة وظهرها إلى الباب، هدى واقفة جنبها، ماما صبحية جالسة على حافة السرير وسميرة إلى يسارها.

رفعت هدى يدها لتوقفه عند عتبة الباب:

- إنها ترضع.

خفض عمر صوته:

- أريد القائمة، وليد أخبرني أنكم أضفتم أسماء مزيد من العائلات.

ناولت فاطمة الورقة لهدى فاختطفتها أم وليد من يدها كي تناولها لعمر، قبل أن تسلمها له قالت:

- ابدأ بالجيران المتجمعين على الدرج.

- بالطبع.

- الحصص الكبيرة تذهب إلى أكثر العائلات فقرًا في هذه القائمة.

شدّ عمر القائمة:

- أدري.

لم تفلتها أم وليد:

- احتفظ بالكبد، ستحتاجه فاطمة لاسترداد قوتها.

شدّها ثانية منزعجًا من المرأة، ألا تمتلك ولو قطعة ثياب واحدة ليست رمادية؟!

- عُلِمْ.

- تبيّن إن كان للجزار رغبة في جلد الكبش. إن لم يكن، احتفظ به لنرسله إلى الصباغ ونحوّله إلى بساط.

شدّ بقوة أكبر:

- سندفع للجزار لقاء عمله.

خاف من تمزّق القائمة اللعينة لكنه تمكن، وأخيرًا، من انتزاعها من يد أم وليد:

- ليس من داع لإعطائه جلد الكبش.

أودع عمر القائمة في جيبه ورجع إلى المطبخ، رأى شريف وقد وصل فألقى عليه تحية سريعة.

بطح الجزار الكبش على جنبه. عمد وليد إلى تثبيت رأسه بينما عانى مروان الأمرين في تثبيت قوائمه الخلفية.

تمنى عمر أن يستكين الحيوان:

- لِمَ لا تربطهما معا؟

ردّ الجزار:

- لا داعي.

مرّر الجزار يمناه من عنق الكبش وحتى بطنه ممهدًا الصوف من تحت يده. رتّل بصوت هادئ آيات قرآنية وواصل التمسيد. مرّت دقائق عديدة، ثم توقف الحيوان عن المقاومة واسترخت أرجله. أشار الجزار لمروان ووليد كي يرفعا أيديهم. فعلا ذلك فظل الكبش ساكنًا.

مكررًا هدهدته، سأل الجزار بصوت خفيض:

- الاسم؟

بدا أن لحركاته فعل التنويم المغناطيسي على من حوله من رجال، لم يجبه أحد منهم. نظر الجزار إلى وليد:

- ما اسم المولود؟

- فوزي.

ظل صوت الجزار هادئًا وإن شابه شيء من الاستعجال:

- اسمه الكامل يا رجل.

- فوزي وليد فوزي النجاد.

مستبدلًا يسراه بيمناه في مواصلة تمسيد عنق الكبش، مدّ الجزار يمناه خلف ظهره فوضع صبيه الذي لا يتجاوز الحادية عشرة فيها سكينًا طويلًا.

- هذا الكبش العظيم فداء لفوزي، بن وليد، بن فوزي النجاد.

شدّ الجزار على مقبض السكين الجلديّ، وأبقاه بعيدًاعن ناظريّ الكبش، طوى أذنيه فوق عينيه وسحب نفسًا عميقًا، ثم تمتم بصوت ثابت:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

بضربة سريعة ونظيفة، حزّ السكين نحر الكبش منهيًا حياته. رفع الجزار الرأس المنحور وهو يحتضن الجسد الذي انسربت منه الأنفاس. دسّ صبيه حلة تحت الجرح العميق ليتدفق فيها الدم.

تحرك الرجال بسكون خضوعًا لجلال الموت، ساعدوا على تعليق الحيوان من قوائمه الخلفية في الخطاف. تدفقت الدماء في الطنجرة، وبعد أن لم يبق منها شيء في جسم الكبش، مضى سكين الجزار في عمله سلخًا للجلد، نزعًا للأحشاء وتقطيعًا للحم بمهارة واضحة.

تولّى وليد وشريف مهمة توزيع اللحم على الجيران، وتنظيف المطبخ حال انتهاء الجزار من مهمته. أما عمر ومروان فأنزلا حصص اللحم إلى السيارة لتوزيعها وفق قائمة الأسماء. كانا حريصين على القيام بجولاتهما بالسرعة الممكنة

كي يظلّ اللحم طازجًا. في غمرة عجلته، قاد مروان سيارته على غير العادة فأورثت حركاته الحادّة عمر الغثيان.

بعد آخر عنوان في القائمة تساءل مروان:

- إلى بيت فاطمة؟

هزّ عمر رأسه:

- لا أحبذ ذلك، أعتقد أنهم لم ينتهوا من التنظيف بعد.

- كيف ورطّت شريف في التنظيف؟

- أم وليد استأسدت عليه، أظنه لم يستطع اختلاق عذر بسرعة لينجو من توريطه.

- إلى البيت إذا؟

غمغم عمر:

- لا أستطيع.

نادية هناك، من الأفضل أن يبقى بعيدًا. خلال الأيام القليلة الماضية، حاول أن يتجنبها ما استطاع، وقد تكون لاحظت ذلك، أو أن شيئًا آخر أثّر في تصرفاتها وهي من حوله. لم يستطع ترجيح إن كانت غاضبة منه أم أنها مكتئبة فقط بسبب ما قاله لها بشأن مروان. خلال المرات القليلة التي تصادفا فيها، كانت نادية تتحاشى النظر إليه، وتتشاغل بالعثور على ما تحمله بين يديها. كما أنها توقفت أيضًا عن لمسه عفويًا، هذا أشدّ ما لاحظه.

- لا تستطيع الذهاب إلى البيت؟

أراح عمر مرفقه على حافة النافذة وخلل شعره بيده:

- إنني بحاجة إلى متنفس.

- أفهمك، تعال معي إلى البيت. رحاب تصنع أشهى شطائرالفلافل.

- لا أريد أن أفرض نفسي عليكم.

استدار مروان بحدّة:

- كلام فارغ. هل راجعت الطبيب بعد؟

- أجل، رأيت الطاغية الجلاد.

- لم يوافق على رجوعك إلى العمل؟

- مدّد إجازتي لثلاثة أشهر قائلًا إن عليّ المكوث في البيت طيلة فصل الشتاء.

رمى عمر يديه في الهواء:

- ماذا سأفعل بنفسي طيلة ثلاثة أشهر بحق الجحيم؟

- ابحث عن عمل.

- عمل؟ إنني غير قادر بدنيًا على القيام بأي شيء لعين، كما ليس لدي إذن

تسريح من الجيش، لن يستأجرني أحد.

- تعال واعمل عندي إذًا، إنني لا أكترث بإذن من الجيش.

- لن أزجّ بك في المتاعب يا صديقي.

خبط عمر راحتيه فوق رفّ السيارة الأمامي:

- إنني لا أفهمهم! إن كانوا سيكلفونني بوظيفة مكتبية في جميع الأحوال، فلماذا ينتظرون إلى حين شفائي التام؟

- لعلّ لديهم تفكيرًا أكبر تجاهك في الجيش.

- أنا فلسطيني، لن أشق طريقي أبدًا نحو المراتب العليا، وصلت إلى ما وصلت إليه.

- إنك لا تعلم ذلك علم اليقين.

ألقى عمر نظرة جانبية خاطفة على مروان، لن يفهم مروان الذي ولد لعائلة سورية ذات جذور مديدة أبدًا طبيعة العقبات التي يواجهها لاجئ فلسطيني مثل عمر. استأنف عمر القول:

- أتدري بماذا أفكر؟

- ماذا؟

- أفكر بقضاء هذه الأشهر في قواعد حركة فتح في الصحراء الأردنية. أستطيع تدريب الفدائيين في مخيم الكرامة للاجئين، مهاراتي مطلوبة هناك.

أبطأ مروان سرعة السيارة:

- هل اتصل بك أحد من الفدائيين؟

- قبل أسبوع، صادفته في المستشفى يوم ولادة فاطمة.

- حاول تجنيدك في المستشفى؟

- كلا، أعطاني إشارة فقابلته بعد يومين على ذلك، يبدو أن لديّ صيتًا وسمعة.

طوى عمر ذراعيه فوق صدره:

- هناك مكان لي بين الفدائيين، إن المقاتلين هناك من كل الجنسيات، ليس من الفلسطينيين فحسب. نستطيع صدّ الهجمات الإسرائيلية عبر الحدود الأردنية.

- أتحسب أنك تستطيع الاختفاء في صفوف المقاومة الفلسطينية لثلاثة أشهر ثم تعود إلى عملك هنا؟ إنك أبله إن كنت تظن ذلك فهم لن يسمحوا لك بفعل ذلك أبدًا.

- هم؟

رفع مروان يده وعدّ على أصابعه:

- أولًا، التورط مع الفدائيين يعني أنك لن تستطيع تركهم أبدًا، إنهم

سيتملّكونك. ثانيًا، الأردنيون سيطاردونك أينما ذهبت، فهم وإن كانوا متعاطفين مع القضية الفلسطينية لن يسمحوا لجيش آخر بالتمدد فوق أراضيهم.

رافعًا ثالث أصابعه، خفض مروان صوته:

- ثالثًا، السوريون سيعتبرونك فارًا من الجيش عندما تستنكف عن الاتصال بمرؤوسيك في الموعد المحدد. وحينها لن تتمكن أبدًا من العودة إلى هنا ثانية، وإن فعلت، ستحبس في قفص مثل الكلب.

أشاح عمر بوجهه بعيدًا، عليه ألا يتحدث عن خططه مع أي أحد حتى مروان. إن الإقدام على ما من شأنه أن يدفعه إلى المجازفة بقطع علاقاته مع العائلة في دمشق ليس في حسبانه أبدًا. لقد وعد العم مصطفى برعاية بناته، وليس من قوة على وجه الأرض ستحمله على المخاطرة بذلك. لكن لديه أيضًا واجبًا لا بد له من تأديته، فالرجل الذي جنّده قال له إنه سيكون مفيدًا جدًا للفدائيين بسبب ما تلقّاه من تدريبات عسكرية، فلسطين تنتظر منقذيها وهو ليس بجبان. لن **يمتلكه** أحد، لا الفدائيون ولا الجيش السوري، سيتسلل إلى داخل، وخارج معسكر تدريب فتح وفق شروطه.

- أنت على حق، إنني محبط جدًا. فأنا أسير وضعي هنا بينما يقاتل إخوتي بشتى السبل المتاحة لهم.

- أديت نصيبك وقمت بما عليك.

- وفشلت.

أشار عمر نحو زاوية:

- أنزلني هناك، سأتمشى إلى البيت. إنني بحاجة إلى شيء من صفاء الذهن.

- كلانا بحاجة إلى ذلك.

ضغط مروان بقدمه على بدالة السرعة فاهتزت السيارة بشدة:

- قضي الأمر، ستأتي معي إلى البيت.

تفحّص عمر صديقه، نادية محققة، ثمة أمر في مروان ليس على ما يرام. حديثه العفوي بدا مقحمًا. قطعًا، نادية في صلب الأمر. قرص عمر قصبة أنفه مقاومًا واجب منح صديقه فرصة البوح بما يعتمل في صدره.

سارت بهما السيارة في أرجاء المدينة لبعض الوقت وهما صامتان. شعر عمر بالقرف من أنانيته فحثّ صديقه أخيرًا على الكلام:

- هل كل شيء على ما يرام في البيت؟

- أجل.

- وعمك؟

- لا يتحسن، يريدني أن أضمّ ابنه الثاني تحت جناحي، أعلمه سرّ الصنعة

وأقدمه لعالم السوق والتجارة.

- ليستلم مكان شقيقه؟

- شيء من هذا القبيل، الصبي لم يبلغ الخامسة عشرة بعد.

- كنت أصغر منه بسنة عند استلامك تجارة أبيك وها أنت الآن تاجر ناجح.

صفع مروان عجلة القيادة براحته:

- لكني أضعت فرصة الحصول على تعليم جيد. لن أدع عمي يصنع ذلك بنادر فالصبيّ ذكيّ ومتحمس، يجب أن تتاح له فرصة أفضل.

أشار عمر لمروان كي ينعطف يمينًا بعد أن فاته الشارع الذي كان ينبغي أن يعبر إليه:

- هل هذا ما يريده نادر؟

- نادر يودّ إرضاء أبيه بحمل اسم العائلة وصيانة سمعتها في السوق، لكن ينبغي لأحد أن يهتمّ بمصلحة الصبي. اسم برادي قوي إلى حدّ كاف في السوق، وإن واصلت رفعه إلى حين حصول نادر على الثانوية فبمقدوره حينئذ أن يأخذ حصته.

- عمك لا يقبل بهذا؟

هزّ مروان رأسه:

- عمي مضطرب للغاية بسبب مقتل ابنه، إنه لا يفكر على نحو قويم.

فوّت شارعًا آخر كان يجب الانعطاف إليه كي يصلا إلى البيت.

- عمي يريد... المزيد.

مدركًا أن مروان لم يكن منتبهًا إلى قيادته، أشار عمر على مسافة:

- هناك، أوقف السيارة. عمك يريدك أن تسدد له ثمن معروفه؟

- عمي كان كل شيء بالنسبة لنا بعد وفاة أبي. لولا مساعدته، لما كنت قادرًا اليوم على الوقوف على رجليّ.

ركن مروان السيارة بحدة:

- كان بوسعه أن يشرف على كامل تجارة العائلة، يصرف علينا ويقوم بواجبه دون أن يخطّئه أحد على ذلك.

أخرج زفرة طويلة وهو يجد صعوبة في قول ما يريده:

- لكنه أصرّ على تعليمي كل ما يخصّ تجارة والدي؛ قدمني إلى التجار الذين كان والدي يتعامل معهم، دعمني وجعل مني الرجل الذي يرغبون بالتجارة معه.

لم يستطع عمر وضع إصبعه على بيت القصيد:

- أنت مدين له بفعل الأمر نفسه تجاه نادر، فهمت.

واضعًا يديه فوق عجلة القيادة، شدّ مروان ذراعيه وألقى ذقنه فوق صدره:

- أكثر، يريد أكثر. لا أستطيع الرفض.

رفع رأسه وحدّق في عمر بنظرات حادة:

- هل بوسعك أن تتفهم ذلك؟

أومأ عمر:

- ما الذي لا تستطيع رفضه يا رجل؟

ازدرد مروان ريقه مرتين محاولًا تسليك حنجرته لإخراج كلمات صعبة منها ثم أدار محرك السيارة وانطلق:

- دعنا نصل إلى البيت أولا.

كانت شطائر الفلافل التي أعدتها رحاب مغمسة بصلصة الطحينية، ونالت استحسان عمر فأكل زيادة على حاجته. قضم بين اللقمة والأخرى قرون فلفل حار مخللة فانفتحت شهيته أكثر. صلصة الطحينية بحاجة إلى مزيد من عصير الليمون في رأيه، لكنه لم يتفوه بكلمة. تناولا الطعام تحت شجرة البرتقال في الفناء الداخلي، وبدأ مروان في الاسترخاء قليلًا. متشجعًا بما انتابه من مزاج رائق، لعق عمر أصابعه أمام رحاب وهو يطري على مهاراتها في إعداد تلك الوجبة الرائعة:

- هذا أطيب فلافل ذقته منذ سنوات.

راقب مروان رحاب وهي تتجه صوب المطبخ:

- سأفتقدها.

- هل تنوي القيام برحلة أو سفر؟

- ستتزوج، عرسها آخر الشهر.

- مبروك يا رجل، هدى لم تخبرني.

- هدى لا تعلم بعد، فالقرار أخذ مؤخرًا.

- متى خُطِبت رحاب؟

ترك مروان الطاولة وتوجه إلى النافورة ثم غسل يديه:

- ظننتك تعرف، رحاب مخطوبة منذ السنة الماضية.

لحق عمر بمروان:

- ليس لديّ علم، لكن أليست السنة مدة طويلة على خطوبة؟

جفف مروان يديه بمنشفة تتدلى من غصن شجرة:

- رفضت الزواج لأجل شقيقاتي الأصغر. لم ترغب في تركهنّ وأبقت الرجل المسكين منتظرًا طيلة هذه المدة.

تجنب عمر النظر في عيني مروان، ألا يفعل هو نفس الأمر بصديقه؟ ألا يبقي على مروان تحت وطأة انتظار ضوء أخضر منه؟ تناول المنشفة.

- من صاحب الحظّ السعيد؟

- ابن أحد التجار من حلب. رجل محترم لكن صبره يوشك على النفاد. لقد كبرت البنات الآن إلى حد الاستغناء عن رعايتها ولهذا سنتحرك قدمًا.

ابتسم مروان، لكن ابتسامته لم تكن من القلب:

- أعتقد أن رحاب قلقة عليّ أكثر منهن.

- ستنتقل إلى حلب؟

- أجل.

عادت رحاب وهي تحمل صينية الشاي بين يديها.

تناول مروان الصينية:

- شكرًا لك، سنحتسيه في غرفتي.

صبّ مروان الشاي فوق طاولة صغيرة في الزاوية. في الأثناء، تمشّى عمر في أرجاء الغرفة متفحّصًا صور العائلة، وما يزين الحيطان من لوحات. بادلته أجيال من عائلة برادي التحديق بوجوه تكسوها التجاعيد ورؤوس تشتعل بالشيب. مدركًا خلوّ حياته من مثل تلك الصور، وخزته الغيرة في صدره. وصل إلى المكتب وتفحّص رفًا من الكتب.

غرق مروان في الصمت مطلقًا تنهيدة عميقة بين الفينة والأخرى، قرعت الملعقة في يده جوانب كأسيّ الشاي بلا هوادة وهو يحرك السكر، فاندفعت عجلات عقل عمر على الدوران بحثًا عن طريقة لإخراج صديقه من صمته.

- إذًا ستشرف على أمور شقيقاتك بنفسك من الآن فصاعدًا.

- لن أكون بمفردي، عمي حلّ هذه المشكلة.

توقفت أصابع عمر بين الصفحات:

- ماذا تعني؟

رمى مروان ملعقة السكر في الصينية النحاسية:

- لا أستطيع أن أقول له لا.

هزّ رأسه وكشفت لهجته عن قلة حيلته:

- لا أستطيع وحسب.

أغلق عمر الكتاب الذي بين يديه:

- ما الذي يجري؟ ماذا يريد منك بالضبط؟

- ليكن الله في عوني يا عمر.

رفع مروان عينين حمراوين:

- إنه يريد مني أن أتزوج أرملة ابنه.

أطلق عمر نفسًا طويلًا:

- آه! فهمت.

مرر مروان راحتيه فوق وجهه فصدر صوته مكتومًا مشدودًا:

- إنه يعتقد أن هذا سيحلّ **كلّ** المشاكل.

ألقى يديه إلى جنبيه:

- سيبقي حصة ابن عمي في العائلة بقطع الطريق على طلاب الثروة ممن سيسعون إلى الزواج من الأرملة. كما سينعم ابنها بعيش كريم إلى أن يصبح قادرًا على استلام ميراثه. أما أنا فسيتوفر لي من يساعدني على تدبير شؤون أخواتي بينما تتمكن رحاب أخيرًا من المضي في حياتها.

نشر ذراعيه في الهواء على اتساعهما:

- أرأيت؟ حلّت كل المشاكل.

موليًا ظهره لمروان، أغلق عمر عينيه ثم بسط راحتيه فوق سطح المكتب والتقط أنفاسه، هل الأمر بهذه البساطة؟ إبعاد مروان عن طريقه وإخراجه من حياة نادية. هكذا، ودون أن يضطر إلى فعل أي شيء؟ أهي حكمة الله تتجلى لتكشف له أنه لم ينسه؟

وصله صوت مروان قريبًا من خلفه:

- أنت تعرف وجهة قلبي.

فتح عمر عينيه فوقعتا على شريط أزرق مزنر بالأبيض. كان متدليًا من أحد الكتب أمامه، إنه يعرف هذا الشريط جيدًا، تفاصيل حاشيته البيضاء المخرّمة محفورة في ذاكرته. كيف وجد طريقه إلى كتاب مروان؟ كم مرّ عليه من الوقت وهو هنا؟ هل طلبه منها؟ هل أعطته له علامة على محبتها؟ كيف ستستقبل نادية هذه الأخبار؟ هل ستحطم قلبها اليافع؟

أرغم عمر حنجرته على النطق فانبثقت منها كلمة واحدة مثقلة بالإشفاق والقلق ومحملة بالمرارة والإحباط:

- نادية.

غصّ مروان بكلماته:

- كيف لي أن أتزوج امرأة وقلبي ملك لأخرى؟

استدار عمر بسرعة وقلبه يخفق بشدة، أنّى له الإجابة على سؤال كهذا؟ لم يعجز عن اختلاق ما يخفف به قليلًا من جزع صديقه؟ أيتوجب عليه فعل ذلك؟ إن بإمكانه أن يتنحى جانبًا ويترك الأمور تمضي في حال سبيلها. هذا سيسمح

لآماله المختنقة بأن تطفو أخيرًا فوق السطح وتلتقط شيئا من الهواء.

حرّكت الكلمات لسانه قسرًا متجاوزة صوتًا في رأسه يقول: **دع هذا يحصل، دعه يحدث:**

- تكلّم مع الأرملة، حاول أن تحملها على الفهم.

ألقى مروان بنفسه فوق السرير:

- حاولت، لكن كل ما يهمها هو مصلحة ابنها. وعدتها بأنني، وبصرف النظر عن أي أمر، سأعتني بابنها كما لو كان ابنًا لي.

لكم قبضته براحة يده:

- لكن عمي لا يقبل بهذا، يقول إن عليّ القيام بواجبي تجاه العائلة وإيلاء اسم برادي الأولوية على أي شيء آخر، ويصر على أن زواج الأرملة من شخص آخر يعني أن غريبًا سيتولى تنشئة يتيمنا الذي يحمل اسمنا، وهذا ما سيجلب علينا العار بين التجار.

- هذا سخيف، إننا لا نعيش في العصور المظلمة. أنت رجل حرّ.

- حرّ؟

هزّ مروان رأسه:

- إنني لا أساوي شيئًا دون اسم عائلتي. إرثنا يعود إلى مئات السنين، ليس بإمكاني تجاهل ذلك.

ذرع عمر الغرفة محاولًا التركيز؛ أما مشاعره فمسألة أخرى. منذ لحظة، كان يغار من جذور مروان العميقة، لكنه أبصر الآن كيف تحولت إلى قيد يوثق قدميّ مروان.

- الأرملة لها رأي في هذا الأمر، أليس كذلك؟ ماذا عن عائلتها؟

- تركوا الأمر لها، لكن والدها قال إنه لن يقف في طريق شخص آخر من عائلة برادي يودّ رعاية ابنته وحفيده. سيكون فخورًا لو حدث ذلك، وهي... تبدو موافقة.

- يعني؟

- لا مانع لديها من هذا الترتيب إن وافقت أنا عليه.

لوى مروان شفتيه بابتسامة حزينة:

- لديها انطباع بأنني رجل طيب.

صرخ الصوت في رأس عمر فيه لإنهاء الحديث عند ذلك الحد لينهض ويغادر. لكن النظرة البائسة في عيني صديقه لكزته، دفعته للتصرف بمروءة.

- يجب أن تكون هناك طريقة ما تنقذك من هذا الوضع دون الإضرار بمكانة عائلتك.

نهض مروان من السرير:

- هناك **طريقة**، لكني أحتاج إلى مساعدتك.

- ما الذي أستطيع فعله؟

- اذهب إلى عمي وقل له إني طلبت منك يد نادية للزواج فهو لن يسمح لي بنكث عهد نبيل من هذا القبيل.

رفع مروان حاجبيه:

- سمعة العائلة تأتي قبل أي شيء آخر، أتذكر؟

رفع يديه ونفخ صدره:

- أنا سأتحرر من التزامي تجاه الأرملة بشرف، وهي تستطيع اختيار من تشاء للزواج، أما الصبي فسيتربى تحت إشرافي.

أنزل يديه:

- حلّت المشكلة.

طرفت عينا عمر مرتين:

- ألم تنس شيئًا؟

أومأ مروان:

- نادية لا علم لها برغبتي في طلب يدها، أعرف ذلك. دعني أكلمها.

حوّل عمر بصره عن مروان، يا لهذا الصّلَف! هل يعتقد أن نادية تنتظر مجرد إشارة منه؟ أنها عقدت النية على قبول عرضه؟ مستحضرًا أسئلة نادية في المستشفى، ضغط قبضته على وسطه. إنه هو الصَلِف الأحمق لظنه بأنه قادر على الإبقاء عليها لنفسه. طبعًا لن ترفض مروان، إن كل ما راقبه على مر الأشهر الماضية يؤكّد على رغبة نادية في أن تكون لمروان.

خطا مروان داخل مجال بصره:

- إن أخبرت عمي بتأجيلك النظر في عرضي الرسمي بسبب ما جرى بعد الحرب فسيحترم هذا بقدر أكبر.

كح عمر في قبضته المغلقة مرغمًا نفسه على مواجهة ذلك الواقع الأليم. بصرف النظر عن كل ما فعله وما يتمناه، يجب أن يمنح نادية على الأقل فرصة سماع ما يود مروان قوله. هذا **إذا** أرادت ذلك.

قبض مروان على ذراعه:

- عمي ينظر إليك باحترام كبير جدًا، إنك جندي مثل ابنه. قطعًا، **سوف** ينصت لك.

- أنت تعلم أن الأمر ليس بيدي فشريف هو صاحب الرأي الأخير.

- أعتقد أنني تمكنت من بلوغ درجة من التعامل المتحضّر معه. لم أتمكن

من استرضائه بالكامل، لكني متأكد أننا وبمساعدتك نستطيع إقناعه.

صكّ عمر على أسنانه:

- إنك لا تعرف حقيقة ما تطلبه.

- إنني أطلب منك استخدام ما لديك من قدرات في الإقناع.

- وماذا إن رفضتك نادية؟

شفط مروان نفسًا حادًّا وهبطت يداه إلى جنبيه ثم تبددت ملامح الأمل في وجهه أمام ناظري عمر. ألم يفكر في هذا الاحتمال؟ أهو متأكد إلى هذا الحدّ من مشاعر نادية؟ ما الذي فعلته لمنحه مثل هذه الثقة؟

هزّ مروان رأسه:

- لدي إحساس بأنها لن تفعل.

قمع عمر رغبة بتسديد لكمة إلى حنك مروان الوقح، ثم استدار وتوجه صوب الباب. كان لا بد له من الخروج قبل أن يفقد صوابه:

- دعني أكلم نادية، لنرَ أين نقف.

لحق به مروان،ولمس ذراعه حاثًّا إياه على الاستدارة، ثم دفع بيده إلى الأمام مصافحًا:

- هل اعتبر هذا بمثابة كلمة منك؟

لم يكن لدى عمر من خيار سوى وضع يده في يد مروان ومصافحته بشدة:

- إننا هنا نتكلم كلام الرجال، ألسنا كذلك؟ سأكلمك في غضون يومين.

سحب الباب وفتحه بقوة أشدّ من اللازم:

- في الوقت الراهن، يستحسن أن تظل بعيدًا.

# 26

تعالت طرقات مستعجلة من الباب الأمامي، فهبّ عمر من سريره كي يرى من يجرؤ على ازعاج أهل البيت بعد منتصف الليل.

سأل رجل طويل ونحيف عمر بصوت خفيض بينما كانت عيناه تتقلبان بين أسفل الدرج وأعلاه:

- هل أنت الإنجليزي؟

- من أنت؟ ماذا تريد؟

دفع الرجل بطرد إلى صدر عمر:

- خذ هذا.

ألقى بنظرة خاطفة من فوق كتفه:

- ستفهم.

قبض عمر على أطراف قميص الرجل بدل الطرد:

- أفهم ماذا؟

بلغهما صوت شريف وهو في طريقه إلى الباب: «من هناك؟»

دفع الرجل الطرد المغلّف بورق الجرائد ثانية إلى صدر عمر:

- خذه، لا تدع أحدًا يعرف بأمره. قيل لي أن أسلّمه إلى الإنجليزي.

سامعًا اقتراب خطوات شريف، أطلق عمر الرجل، وأخذ الطرد ثم خبأه تحت قميص نومه. انطلق الرجل بسرعة فابتلعته العتمة أسفل الدرج. أغلق عمر الباب واستدار ليواجه شريف.

- أحدهم يسأل عن فيصل نبوي.

قفز الاسم إلى ذهن عمر من ملصق فلم سينمائي رآه في أحد الشوارع، سأل عمر شريف:

- هل تعرفه؟

هزّ شريف رأسه متثائبًا:

- في الواحدة صباحًا؟

توجه عمر صوب غرفته:

- يبدو أنه أمر طارئ، قلت له إنه أتى إلى البناية الخطأ.

لم يضع شريف وقته في بحث الأمر، سحب رجليه باتجاه غرفته مغمغمًا بالشتائم وكاشًا زوجته لتعود إلى السرير.

بعيدًا عن أعين الرقباء وخلف باب غرفته الموصد، وضع عمر الطرد فوق سريره وفتحه. سقطت منه ورقتان مطويتان ومحفظة جلدية بنية اللون. فتح المحفظة أولًا فحملق وجهه فيه؛ بطاقة هوية عليها صورته وتحمل اسم وبيانات شخص آخر: زياد نمر، ست وعشرون سنة، مولود في يافا. أخرج البطاقة وتفحص شطريها، تبدو أصلية غير مزورة، دسّها في المحفظة ثانية وتناول إحدى الورقتين. إنها وثيقة سفر تحمل نفس البيانات الشخصية الواردة في الهوية، ومدموغة بختم يؤكد على أنها تأشيرة عبور إلى الأردن صالحة لمدة شهرين.

نقّب عمر في درج الخزانة الصغيرة بحذاء سريره بحثًا عن بطاقة هويته. قارن بين الهويتين فخلص إلى أن الجديدة أصليّة. أما الورقة الأخيرة في الطرد ففيها قائمة أسماء وتشرح تفاصيل تاريخ عائلته الجديدة. في الخلف منها، تعليمات واضحة حول كيفية التسلل إلى مخيم الكرامة بعد عبور الحدود الأردنية.

ألقى الورقتين فوق سريره وحكَّ رأسه، هو ذاك إذًا؟ هوية جديدة وهدف؟ نطق اسمه الجديد: زياد نمر. هل يمكنه انتحال هذه الشخصية بنجاح؟ أيستطيع أن يصبح هذا الرجل الأكبر سنًّا منه خلال مكوثه في المعسكر، وأثناء تدريب فدائيين يضعون أرواحهم بين يديه؟ بين يديّ شخص دَعيّ من يافا؟

لمّ الوثائق وتفحّص الغرفة بحثًا عن مخبأ جيد، تحت الفرشة؟ نادية تستبدل أغطية السرير وهي تفعل ذلك بإتقان شديد، قد تعثر عليها وهي تحرّك الفرشة. في درجه؟ ليس له مفتاح. بين ملابسه؟ الصغيرتان تختبئان أحيانًا في خزانته عندما تلعبان. وقع بصره على الكتب المصفوفة عاموديًا فوق حافة النافذة، اختار منها الكتب الثلاثة السفليّة ودسّ وثيقة داخل كل واحد منها، لا أحد يلمس كتبه دون إذن منه.

- عمر، هل أنت مستيقظ؟

بلغه صوت نادية مكتومًا من خلف الباب.

فتح عمر الباب:

- كل شيء على ما يرام، ارجعي إلى سريرك.

- ماما قلقة، سمعتك أنت وشريفان تتكلمان.

شدّت نادية حزام رداء نومها وتابعت:

- من الذي طرق الباب؟

- شخص قصد عنوانًا خاطئًا، أخبريها ألا تقلق.

أومأت برأسها واستدارت. كانت خصل شعرها الطليق تتحدر شلالًا فوق ظهرها، أما أطرافه فتداعب رداء نومها الرقيق أثناء مشيها.

نادى عليها قبل أن تبتعد:

- نادية.

استدارتها المفاجئة رمت بخصلة من الشعر فوق كتفها، رفعت حاجبيها له بتساؤول.

خطا خارج غرفته مدفوعًا برغبة القرب منها، ومتمنيًا فرك خصلة من شعرها بين أنامله:

- أتودين الذهاب غدًا إلى الجامعة للبدء في إجراءات التسجيل؟

وجه نادية، منارًا بقمر منتصف الشهر، توهج بابتسامة عريضة:

- أوه، حقًّا !

- جهزّي أوراقك.

راقبها وهي تسير إلى غرفة البنات غير عابئ بإخفاء إعجابه الصارخ بجسدها. متهادية إلى بعيد، كان خصرها النحيل يبرز تكور وركيها. في تلك اللحظة، وتحت نصف ستار من العتمة، لم يكن عمر بكري؛ ذلك الجندي الذي يلطّخه عار جيش مهزوم، أو تلك الروح المثقلة بما عليها من دين تجاه صديق، أو ذلك الرجل المحروم أسير القلب الذي لا سلطان له عليه. بل كان زياد نمر؛ القائد المتنكر، الضابط الماهر، الرجل الذي يتمتع بكامل عافيته وبحرية الإعجاب بنادية في العلن، دون ندم أو جلد للذات.

في الشرفة الصغيرة، احتسى عمر قهوة الصباح، وانتظر نادية ريثما تفرغ من تجهيز نفسها. التقطت عينه هدى وهي في طريق عودتها إلى البيت، كانت تمشي برفقة صبي مراهق مثل عسكري تدريب يعرفه. تفحّص ساعته، إنها الثامنة تقريبًا، لا بد أنها قضت الليل بطوله في توليد إحداهن، أما الصبي فأغلب الظن أن عائلته أرسلته ليصحبها في طريق العودة إلى البيت. إنه مجرد تظاهر اجتماعي أجوف فليس من يجرؤ على رفع إصبع نحو هدى لقضائها الليل خارج بيتها، مهنتها منحتها مزية لا تتمتع بها النساء من دونها، الحصانة.

عبس عمر ووضع فنجانه فوق الصينية. مزاج هدى سيكون سيئًا بالتأكيد، أسوأ مما هو عليه في العادة. كان يأمل في اصطحاب نادية والخروج من البيت دون مصادفة هدى لينقذ نادية من إلحاحها المتواصل بشأن الالتحاق بمعهد التمريض.

أعلنت خطوات هدى الواثقة عن وصولها، فاستجمع عمر رباطة جأشه كي

يتحمل ما ستمطر به نادية من تقريع وتوبيخ لحظة عبورها إلى غرفتهم. لكن، ولدهشته، انضمت هدى إليه في الشرفة عوض ذلك.

- لا بد لنا من الحديث.

جلست على الكرسي المقابل ومدت عنقها صوب غلاية القهوة فوق الصينية.

صبّ عمر لها فنجانًا:

- صباح الخير لك أنت أيضًا.

حاول أن يبتسم، لكنه قرر ألا يفعل. ربما شجعها ذلك على البقاء وهو ليس في حالة ذهنية تمكنه من تلقّف ما تريد رميه في وجهه.

- الأمر مهم، مهم للغاية.

- يجب تأجيل الحديث عنه، إنني في طريقي للخروج.

- متى ترجع؟

نهض من كرسيه:

- ربما، عصرًا. سآخذ نادية إلى الجامعة.

حدّق في هدى وتحداها لتبدي اعتراضًا:

- كي تبدأ في عملية التسجيل.

وضعت فنجانها في الصينية:

- جيد، يجب أن تسجل. نادية يجب أن تسعى وراء تحقيق أحلامها.

فاجأته هدى للمرة الثانية في هذا الصباح فضيّق عينيه:

- كنت أظن أنك ضدّ هذا.

هزّت هدى رأسها وفي عينيها نظرة صعبة على الفهم:

- أريدها أن تنال شهادة جامعية، وتحصل على وظيفة جيدة لتصبح مستقلة بذاتها.

حوّلت بصرها إلى الشارع في الأسفل:

- هذا العالم قاس للغاية.

نهضت وشدّت على ذراعه برفق:

- اذهب، خذها. سنتحدث بعد عودتك.

تردد عمر وتعالى طنين أجراس إنذار في رأسه، ما الذي دها هدى صاحبة الشكيمة القويّة التي لا تحفل بمشاعر الآخرين؟ أجل، لقد تغيرت تصرفاتها نحوه خلال السنتين الماضيتين بعد أن خضرمتها دورة الحياة، وجعلتها أكثر نضجًا، لكنها مع ذلك ظلت لا تحفل بمشاعر الآخرين. ما الذي يقلقها الآن؟

نادته نادية من الداخل فنحّى أمر هدى من ذهنه، واصطحب نادية إلى دائرة التسجيل في جامعة دمشق.

أثناء الطريق، تكلمت نادية بلا انقطاع عن قرارها بدراسة الأدب الإنجليزي مشددة على رغبتها في أن تصبح معلمة. لم تسنح لعمر فرصة طرح ما يعتمل في ذهنه، فسعادة نادية البالغة بتحقيق ما تريد رغمًا عن اعتراضات هدى دفعها إلى القفز من موضوع لآخر ومقاطعته كلما سنحت له فرصة قول أيّ شيء. كان فرحها الشديد معديًا وأدهشته قدرتها على تعديل مزاجه. قبل أن يتوجه إلى البيت، أخذها وسلك طريقه المعهود حول الحي.

بالاقتراب من المقعد الخشبي في الساحة المفتوحة، اضطربت خطوات نادية وقالت:

- لا تقل لي إنك ستذهب وتتركنا ثانية، هل هذا ما يدور في خلدك؟

- لم ظننت ذلك؟

- لأنك عندما جئت بي في السابق إلى هنا، قلت لي إنك على وشك أن تفارقنا للالتحاق بالكلية العسكرية.

ابتسم عمر مرغمًا.

- سأعود دومًا، بإمكانك الركون إلى ذلك.

سعل ثم تنحنح:

- لكن ليس هذا ما أود الحديث معك عنه.

لمست ذراعه ثم رفعت يدها بسرعة البرق:

- قل ما تريد إذًا.

أكدت حركتها الغريبة ظنونه، تغيّرت تصرفات نادية نحوه. لو أنه يستطيع فقط استنباط سبب هذا التغير. قال وقد خفض صوته:

- هل أنت غاضبة مني لسبب ما؟

- ماذا؟

طارت أناملها صوب قبّة فستانها الأزرق لكن قبّتها البحريّة كانت بلا أزرار. قالت:

- حققت لي اليوم ما أحلم به.

دسّت طرف إصبعها السبَّابة تحت القماش وراحت تحركه من جنب إلى جنب:

- ألا تستطيع استشعار عظم سعادتي؟

لكزها ليستأنفا المشي:

- أردت التأكد فقط.

ستبلغ الثامنة عشرة في عيد ميلادها المقبل، عقد، بإمكانه أن يشتري لها

عقدًا لتلعب به أصابعها بدل القبات والأزرار.

سألته نادية:

- هل أنتَ؟

- هل أنا ماذا؟ غاضب؟

أومأت نادية وبؤبؤا عينيها الواسعان ينقبان في وجهه. خوفًا من تعثرها لعدم نظرها إلى موطئ قدمها، أمسكها من مرفقها. ورد عليها:

- ألا تستطيعين استشعار إن كنت كذلك أم لا؟

سحبت مرفقها من قبضته، ثم ألقت بنفسها فوق المقعد الخشبي ولفّت ساقًا فق ساق:

- وأنّى لي أن أعرف؟ تصرفاتك كانت غريبة جدًا خلال الأيام القليلة الفائتة. كنت في الماضي معتادة على التقاط، وفهم أمزجتك، أما الآن فلم أعد قادرة على ذلك.

انضم إليها فوق المقعد:

- هناك الكثير مما يشغل بالي.

- تكلم إذًا، ماذا تنتظر؟

تنهد عمر ورفع عينيه صوب السماء الغائمة، كان سرب من الطيور المحلقة يرسم دوائر في الأفق. تمتم قائلًا:

- لو بقيتِ صامتة لدقيقة فسأخبرك.

- كنا فيما مضى نتكلم بارتياح فيما بيننا لكن الحرب غيرتك.

لفّ رأسه بسرعة نحوها:

- وهل كنت تظنين عكس ذلك؟ هلاّ كبرت؟

بوغتت بما قاله، فطوت ذراعيها فوق صدرها:

- كبرت، ولكنك **أنت** الذي لم يلاحظ.

- ماذا تقصدين؟

أخذت نفسًا عميقًا وعضّت شفتها السفلى:

- ما زلت تنظر لي كبنت صغيرة بحاجة إلى الرعاية والحماية من كل شيء و...من كل شخص.

حوّل عمر بصره عنها وركزه في الطيور المحلقة:

- هذا ما أردت مناقشته معـ...

قاطعته:

- أتدري؟ إنني قادرة على تولي شؤوني بنفسي، لا أحتاجك ولا أحتاج هدى

لحلّ مشاكلي.

عدّل من جلوسه ليقابلها:

- ما الذي تتحدثين عنه؟

ألقت كفيها في حجرها وتفحّصت أصابعها:

- أخبرتك هدى، أليس كذلك؟

فتح فمه ليخبرها عن جهله المطلق بما تتكلم عنه ولكنها قاطعته ثانية.

- وعدتني ألا تفعل. لكن، كلا! لا بد من حماية نادية المسكينة الصغيرة! كأنني بلا عقل يمكنني من إخراس ألسنة الحمقى. أنا لست ضعيفة.

احمرّ وجهها وهي تلوح بيديها عشوائيًا:

- أعرف كيفية التعامل مع هذه القذارة، ولحظة معرفتي بمن هم وراء نشر تلك الأكاذيب الحقيرة سأقتلع عيونهم بيديّ هاتين. راقبني وسترى، **لسوف** أفعل ذلك.

قبض عمر على رسغيها:

- هيه، هيه. هدئي من روعك!

تفحص من حوله، ثم أنزل يديها إلى الفسحة ما بينهما. لم يولهما أي أحد من المارة انتباهًا، ليس بعد. أبقى يديها في يديه متفاجئًا برؤية هذا الجانب الشرس منها. حاول أن يظل هادئًا بالسيطرة على نبرة صوته قدر ما أمكنه:

- لا أعتقد أني على علم بتفاصيل هذا الموضوع، أي قذارة؟

ارتجفت شفة نادية السفلى:

- مثلما تعرف، ما تردده بعض النسوة من شائعات حول...

ابتلعت بقية جملتها وغصّت عيناها بالدموع.

ربت عمر على يديها قبل أن يطلقهما من يديه ثم فتش في جيبه عن منديله المقّلم وناولها إياه. انتظرها كي تتمخط، إذًا هناك نسوة أطلقن ألسنتهن بالنميمة عليها وعلى مروان؟ كان ينبغي له استشراف أمر كهذا. آخذًا نفسًا عميقًا، أطلق كلماته تنهيدًا:

- سينقضي الأمر قريبًا.

زمت نادية المنديل بيدها وأبقت عينيها في الأرض:

- ما لا استوعبه هو كيف خطر لأحدهم أن يفكر على ذلك النحو بحقي و...حقك.

أدار رأسه:

- ماذا قلتِ؟

رفعت أهدابًا مبللة بدموعها المنهمرة:

- الجميع يعرف أننا نعيش معًا كعائلة واحدة، وماذا لو لم تجمع بيننا صلة من الدم؟ هذا لا يعني أننا نفعل أي شيء خاطئ. لا أستوعب ما تغير فجأة، الناس أغبياء و... شريرون.

أجهشت نادية في بكاء شديد.

ترك عمر المقعد. كانت الطيور من فوق رأسه تزعق في أذنيه وتصيبه بالصمم، أم أن ذاك صوت فوران دمائه وتلاطمها في شرايينه؟ جفّ فمه مثل صحراء قاحلة، تشنجّ جسده بالكامل، وأصبح متأهبًا للقتال. بحث عن شيء يلكمه. موليًا ظهره لنادية، صارع نفسه كي يتماسك خوفًا من قيامه بما قد يلفت الأنظار. إن شخصًا ما يستغله لتشويه سمعة نادية بين الناس، لماذا؟ من هو؟ اللعنة على الحقيقة، مجرد إثارة الشبهات حول أمر كهذا من شأنه التسبب في أضرار بالغة.

لمست نادية كتفه.

استدار بسرعة، وطوّح يدها بعيدًا عنه وكأنها مسّته بقضيب من نار.

- كانت هدى تحاول معرفة من بدأ بنشر هذه الإشاعة، هل أخبرتك من يكون؟ ألهذا أحضرتني إلى هنا؟

- سنناقش الأمر في البيت.

أرغم صوته على أن يظل متزنًا لكنه تهدّج في صدره وخرج مخنوقًا:

- مجيئنا إلى هنا كان غلطة.

تركها تمشي أمامه وظل صامتًا طوال الطريق.

تردد صدى جلبة عالية في الدرج خارج باب الشقة الأمامي، فقفز عمر فوق الدرجتين المتبقيتين ودفع الباب، احتاج ثوان عدة لاستيعاب المشهد الذي قابله.

كانت ماما صبحية منحنية فوق سميرة في زاوية من غرفة الجلوس وقبضتان من شعر سميرة بين يديها، هدى تمسك بأمها من خصرها وتحاول جرها بعيدًا، والجميع يصرخون.

أغلقت نادية الباب خلف عمر، ووقفت بلا حراك.

وثب عمر كالزنبرك لتدبر الموقف، رفع ماما صبحية من فوق سميرة وجرّها إلى كرسي. حاولت هدى الإبقاء عليها فوقه بينما عمد إلى مساعدة سميرة على الوقوف على رجليها.

صرخت ماما صبحية بينما كان صدرها يعلو ويهبط:

- دعوني أمزقها إربا، هذه الكلبة المتواطئة.

- هدّئي من أعصابك يا ماما، ارحمي قلبك.

استدارت هدى نحو نادية المصعوقة:

- أحضري كوبًا من الماء البارد.

ركضت نادية إلى المطبخ، وعادت بكوب من الماء، ثم نثرت شيئًا منه فوق وجه ماما صبحية.

احتار عمر فيما يصنعه بسميرة، كانت تشهق بالبكاء وهي تتشبث بعنقه. خوفًا من انهيارها مثل الحبّار لحظة إبعادها عنه، تركها تستخدمه كدعامة. سأل النساء من حوله:

- لتقل لي إحداكن ما الذي يجري؟

سددت هدى نظرات شرسة إلى سميرة:

- إنها هي من كان وراء نشر تلك الأكاذيب بحقك وحق نادية.

سقط الكأس من يد نادية وتهشّم.

فكّ عمر يدي سميرة عن عنقه:

- هل هذا صحيح؟

لطمت ماما صبحية صدرها:

- من داخل بيتي! لا عجب إذًا إن أنصتت النساء لهذا الهراء.

حاولت دفع جسدها عن الكرسي لكن هدى أرجعتها إلى الوراء فواصلت القول:

- سمعنه من هذه الأفعى التي تعيش بيننا.

فحّت سميرة:

- قلت ما أعرفه.

دفعها عمر عنه وخطا خطوة إلى الوراء:

- وما الذي تعرفينه بحق الجحيم؟

مهدت سميرة شعرها بيديها ومسحت دموعًا تقطُر من ذقنها:

- أعرف الكثير.

أشارت صوب النسوة المتحلقات حول بعضهن:

- إنهن لم يتقبلن أبدًا وجودي في هذا البيت، يعتقدن أن ناديتهنّ الغالية أفضل مني واحتقرن شريف لزواجه مني.

اعتدلت وشدّت ظهرها إلى الوراء:

- لست حمقاء أو عمياء، إنني ألاحظ كيف تنظر إليها وأعرف ما تعنيه تلك النظرة.

ردّ عليها عمر وقلبه يخفق بسرعة جنونيّة:

- إنك لا تعرفين شيئًا.

- إنني أعرف أنكما قضيتما ليلة بمفردكما.

مدت سميرة ذقنها بتحد لعمر:

- الآن، هذا ليس بكذب، صحيح؟

جذبت نادية ذراع سميرة وطوّحتها يمينًا ويسارًا:

- هل جننت؟!

صرخت سميرة في نادية:

- أتحسبين نفسك أرفع من أن تطالك يد العيب؟ كل تصرفاتك لائقة وبريئة؟ حسنًا، انظري من التي أصبحت سمعتها الآن في الوحل.

صفعت نادية سميرة بكلّ قوتها فترنحت سميرة، وارتطمت بالحائط.

تقدمت هدى وكادت تلكمها بقبضتيها بينما تقهقرت نادية لتسدد صفعة أخرى لسميرة.

جذب عمر سميرة من مكانها، ودفعها خلفه ناصبًا نفسه حاجزًا فاصلًا بينها وبينهن. هبطت لكمات هدى فوق صدره، وخدشت أظافر نادية عنقه. أمسك هدى بيد ونادية بالأخرى محاولًا السيطرة عليهما ومتمنيًا في سره أن يفشل ويتركهما كي تقطّعا سميرة إربًا. صرخ قائلًا:

- ليهدأ الجميع، إنكما تزيدان من اضطراب أمكما.

أطلق سراحهما فذهبتا إلى جانب ماما صبحية.

صفعت ماما صبحية فخذيها مرة تلو الأخرى وهي تنتحب:

- قضي علينا، قضي علينا.

صرخت سميرة في نادية:

- ليلة مخاض فاطمة، اتصلتِ ببيت أهلي وطلبت منا البقاء هناك مع الصغيرتين رغم معرفتك مسبقًا بأن أمك وهدى ستقضيان الليل إلى جانب فاطمة.

انكمشت مرتعدة وراء عمر وتابعت القول:

- حبكتِ الأمر جيدًا كي تكوني لوحدك مع عمر.

استدار عمر بسرعة وخبط راحته بالحائط قرب رأس سميرة وصرخ فيها بأعلى صوته:

- اذهبي إلى غرفتك أيتها المرأة، أوصدي الباب بالمفتاح وانتظري مجيء زوجك.

تبخر تحدي سميرة السافر في غمضة عين، هرولت بعيدًا كما طلب منها وهي ترتطم بقطع الأثاث إلى أن وصلت غرفتها.

ترك عمر جسده يرتخي إلى أن هبط بجبينه فوق الحائط وأحشاؤه تنقبض

وتتلوى بلا رحمة. أغلق عينيه متوقعًا نوبة محتملة من التشنجات العضلية ومرحبًا بها من أعماقه في تلك اللحظة.

ولولت ماما صبحية من خلفه:

- لعنة الله على اليوم الذي دخلت فيه سميرة هذا البيت. إلهي، أرني فيها يومًا تنال فيه ما تستحقه من عقاب. وشريف، إنني ألعنـ...

قاطعتها نادية وهي مجهشة بالبكاء:

- ماما، أرجوك، لا تلعني ابنك.

رفع عمر رأسه ثم استدار ومال بظهره إلى الحائط محتاجًا إلى سند نفسه.

راحت ماما صبحية تميل إلى الأمام والخلف في كرسيها:

- ليس من عائلة محترمة ستفكر بك الآن يا نادية ولا بأيّ من أخواتك، قضي علينا.

ركعت هدى أمام أمها:

- كفي عن هذا الهراء يا ماما. لم تنتشر الإشاعة حسب ما خططت له هذه الكلبة، لقد بلغتني من امرأة قمت بتوليدها وتعرف أي صنف من الناس نكون. لم تصدق أي كلمة منها ومنعتها من الخروج من عتبة بيتها، ووافقت على مساعدتي على الكشف عن صاحبتها والمحرضة عليها، لم أتصور أبدًا أنها ستكون سميرة.

هبطت نادية جنب هدى:

- أتعنين أنه ليس هناك أيّ شخص آخر يعرف بهذا الافتراء؟

- لا أعتقد، قلت لكما إن النساء أطلقن ألسنتهن بالنميمة حتى تكونا أكثر حيطة ريثما أعثر على المصدر.

أمسكت ماما صبحية بيدي نادية وقالت:

- خرج الافتراء من هذا البيت، هناك من **سوف** يصدقها. وقع الضرر.

وقفت هدى ساحبة ماما صبحية معها:

- أنت بحاجة للراحة. نادية، ساعديني كي نأخذها إلى السرير.

رفعت حاجبيها صوب عمر:

- سنتدبر الأمر.

قبل أن تدع الفتاتين تأخذانها إلى السرير، صوّبت ماما صبحية عينين محمّلتين بخيبة الأمل نحو عمر:

- وعدت مصطفى برعاية بناته، انظر الآن ما جرى.

لم يكن بينه وبين الانهيار سوى شعرة، جرجر عمر قدميه إلى غرفته. ارتمى فوق أحد الكراسي قرب النافذة، ثم أسند مرفقيه إلى ركبتيه وحمل رأسه بين

كفيه، كيف ترك أمرًا كهذا ليحدث؟ كان عليه ألا يعود إلى البيت بعد ترك المستشفى. كان بإمكانه أن ينزل في بيت فاطمة، أو أن يستأجر غرفة في مكان قريب، فيبقي بذلك على مسافة بينه وبين نادية أمام أعين الناس. لمس في تصرفات الجميع يوم عودته للبيت بأن ثمة ما هو غير سليم، شعر بذلك لكنه تجاهل الأمر. سميرة كانت تترصده منذ البدء، تتحرك من حوله مثل ثعلب محتال، تراقب، تحسب وتحيك المؤامرات.

رفع رأسه وهو يشهق، أين ذهب الهواء؟ كانت النوافذ موصدة. لا بد أنه تدبير من هدى لمنع الجيران من سماع ما يدور في البيت. كيف يمكن إصلاح أمر كهذا؟ كيف يمكنه الوفاء بعهده للعم مصطفى؟ كيف يعتق نفسه من نظرات الاتهام في عينيّ ماما صبحية؟ نهض من كرسيه كي يعمر رئتيه بشيء من الهواء، إنه ليس أكثر من فريسة يطبق عليها فخّ محكم.

تناهى إليه شهيق نادية بالبكاء من غرفة البنات فحمل الكرسي وضربه بالحائط، لحق به مصباح السرير، ثم الخزانة التي كان فوقها. تناثرت محتويات درجه فوق أرضية الغرفة. حلّ الدور على السرير، قلبه ثم ركل أسفله مرة تلو الأخرى إلى أن سرى الخدر في رجله. كان كل ما في جسمه يؤلمه، لكنّ أشدّ ما يبرّحه هو كلمات ماما صبحية الاتهامية التي كانت بمثابة الضربة القاضية. راح يشهق بحثًا عن هواء كي لا يختنق، ورئتاه تحترقان مع كل نفس.

وقفت هدى على عتبة الباب:

- هل انتهيت؟

- أحتاج إلى الخروج من هنا.

باعدت بين قدميها ووضعت يديها فوق جنبي الباب:

- لا يمكنك أن تترك البيت الآن.

- ابتعدي.

- سيصل شريف عما قريب، كيف تتخيل ردة فعل أخي الأناني لحظة معرفته بهذا؟

دفعها جانبًا وأسرع صوب الباب الأمامي قائلًا:

- ليشرب ماء البحر.

- أخذًا بعين الاعتبار لمشاعر شريف تجاهك، من تحسبه يصدق؟ نادية أم زوجته؟

تجمدت يد عمر فوق مقبض الباب.

- هل ستترك نادية حقًا تواجهه بمفردها؟

ترك عمر مقبض الباب وكوّر قبضته.

- خبّأت عن ماما ونادية تفصيلة حرجة.

استدار عمر سريعًا ورجلاه لا تقويان على حمله:

- هنالك المزيد؟

-تزعم سميرة أنك نلت مشتهاك من نادية في تلك الليلة.

هدر أنين عميق من حلق عمر، وهو يضغط بقبضتيه على بطنه، كما لو أن هدى سددت له لكمة حقيقة.

- وهذا بالضبط ما ستقوله سميرة لشريف لحظة وصوله.

طوت هدى ذراعيها فوق صدرها:

- لا بد لنا من احتوائه. مثلما قالت ماما، لقد وقع الضرر، كانت الأفعى تخطط لهذا منذ زمن.

فكّت ذراعيها وأشارت صوب غرفة البنات:

- نادية هناك غارقة في البكاء، ماما على وشك الوقوع في حالة من الإغماء التخشبيّ، وأنت تريد تحطيم الأثاث وترك البيت؟

- اتصلي بوليد، سنحتاجه معنا.

جرّ رجليه صوب الكنبة في غرفة الجلوس، ورمى نفسه فوقها:

- قولي له أن يترك فاطمة في البيت.

- أخذت الصغيرتين في الصباح إلى بيت فاطمة كي أبعدهما من هنا، ستضطر إلى البقاء معهما في جميع الأحوال.

أومأ عمر:

- أرجوكِ، افتحي النافذة. لا أستطيع التنفس.

# 27

انهمك عمر في ترتيب وإصلاح غرفته فبلغ به الإجهاد كل مبلغ. كانت سَورةُ الغضب التي حملته على تحطيم الأثاث قد استنفدت كل قوته، وتركته مترنحًا عند القيام بأي حركة. تخبّط تفكيره في استعراض ما جرى بالقفز بين الماضي والحاضر دون تركيز أو ربط وتحليل. كان الاتهام المجحف الموجه إليه يتباين بحدة مع مشاعر الذنب التي انتابته جراء مشاعره تجاه نادية. كما أن شرفه المثخن بالطعنات طغى على أي فكرة أو إحساس آخر لديه. لم يحاول الاقتراب من نادية أو ماما صبحية ظنًّا منه بأنه لو فتح فمه، فسيضرّ بالوضع بدل تخفيفه.

رجعت هدى إلى غرفتها وبقيت فيها مع ماما صبحية ونادية. لم يصله أي صوت من هناك. ألقى الصمت المطبق على البيت بجوّ من الترقب المرعب، كان يشبه ما يخيّم عادة بعد عاصفة رعدية ويبشر بانتهاء الجو المشحون. لكنّ هذا لم يَجُد بأيّ من ذاك. جلس عمر فوق السرير الذي أعاد نصبه مقابلًا باب غرفته المفتوح ومنتظرًا دخول وليد أو شريف منه.

وصل وليد أولًا، أبصر كومة الأثاث المحطّم في الزاوية وحكّ رأسه:

- أصبت بنوبة أخرى؟ هل أنت بحاجة للطبيب؟

أشار عمر إلى كرسي:

- أنت بحاجة للجلوس بسبب ما سأقوله لك.

لم يضع الوقت أو يتعثر في الكلام، أوضح الوضع بأسلوب مباشر مسيطرًا على مشاعره المختلطة قدر ما استطاع.

أنصت وليد دون مقاطعة متنهدًا بين الفينة والأخرى ثم قال:

- إذًا ما قالته سميرة صحيح في جزء منه؟ كنتما وحيدين في تلك الليلة؟

وضع عمر يمناه على صدره وفزّ على قدميه:

- كان مغمى عليّ خلال نصف تلك المدّة، يشهد الله إنني لم أفعل قطّ أي شيء يسمح بمثل هذه الإشاعات.

- لا تقسم لي على أي شيء، لا أشك بشرفك أو شرف نادية، ولكني أريد التأكد فقط من الإلمام بكل الحقائق.

فرك وليد ذقنه:

- لم أتصور أبدًا أن سميرة تكره نادية إلى هذه الدرجة.

ألقى عمر بنفسه فوق السرير:

- إنني المتسبب في ذلك، أنا من حمل شريف على الزواج منها وجلبها إلى هذا البيت.

- إن كنت ستفكر بهذه الطريقة، فأنا أيضًا ملامٌ مثلك. علينا التفكير بما هو آت، العثور على حلّ.

- سأفعل أي شيء يتطلبه الوضع.

- أولًا، علينا أن نسيطر على شريف. يجب ألا ندعه يتحدث إلى زوجته قبل أن تسنح لنا فرصة إخباره بما حصل.

دخلت هدى وحيّت وليد بإيماءة من رأسها:

- ما الخطة؟

- لا تدعي سميرة تخرج من غرفتها.

رفع وليد إصبعه في الهواء:

- ليس قبل أن نتمكن أنا وعمر من إيضاح الأمور لشريف.

أدار عمر وجهه صوب هدى:

- كيف حال ماما صبحية؟

- أعطيتها حبة دواء كي تسترخي، إنها هادئة.

- ونادية؟

- أنا بخير.

انضمت نادية إليهم متجنبة النظر إليه مباشرة وكان صوتها مبحوحًا واهنًا وعيناها محمرّتين منتفختين.

صكّ على أسنانه داعيًا الله في سره ألا تكون قد أنحت باللائمة على نفسها. ليته يستطيع الحديث معها على انفراد ليؤكد لها على أن ما أقدمت عليه في تلك الليلة لم يكن هو السبب وراء كل هذا. كانت سميرة قطعًا ستبحث عن مبرر آخر لمهاجمتها. استدار وكلم وليد:

- أرجوك، عندما يصل شريف ابقَ بقربه وكن مستعدًا للإمساك به إن بلغ به الحمق حدّ مهاجمة النساء. لست قويًا بدرجة كافية.

قضوا الوقت بصمت. جلست هدى ونادية جنبًا إلى جنب فوق سرير عمر، ذرع وليد الغرفة جيئة وذهابًا وأسند عمر ظهره إلى الحائط. لم يزحزح بصره عن رأس نادية المطأطئ. عندما سمع مفتاح شريف يدور في ثقب الباب، هرع وقاده إلى الغرفة. راجعًا إلى مكانه عند الحائط، طوى ذراعيه فوق صدره وصكّ على

أسنانه.

سأل شريف وفمه مرتخ قليلًا كالعادة:

- ما الذي يجري؟

- علمنا بخبر مهين يمسّ بسمعة العائلة.

لمس وليد صدر شريف: سمعتك بالتحديد.

رفع شريف يديه وبسط راحتيه كمن يدافع عن نفسه:

- لم أفعل أي شيء.

- زوجتك فعلت.

- أين هي؟

استدار ليخرج:

- ما الذي فعلته هذه المرة؟

خطا وليد إلى جنب معترضًا طريق شريف:

- طلبنا منها أن تظل في غرفتها.

ألقى شريف طلبه بصورة هزلية دون أن يستشعر جدية الجوّ من حوله:

- ابتعد عن طريقي.

مبديّة نفاد صبرها وانزعاجها، هبّت هدى على قدميها:

- زوجتك أشاعت بين نساء الحيّ أن عمر ونادية متورطان.

استدار شريف نحوها:

- متورطان في ماذا؟

- سميرة نشرت إشاعات تقول إنهما على علاقة.

خطت هدى مقتربة:

- إنهما كانا وحدهما ليلة مخاض فاطمة. لقد أخذت الصغيرتين معك إلى بيت أنسبائك في تلك الليلة، أتذكر؟

تحوّل نظر شريف إلى عمر:

- أنا لا أفهم.

فرد عمر ذراعيه ووقف أمام نادية محاولًا حجبها عن عيني شريف:

- سميرة تشيع بين الناس أن نادية وأنا نمنا في سرير واحد تلك الليلة.

وثبت نادية على قدميها وصرخت:

- ماذا قالت؟

دفعت هدى أختها إلى السرير من جديد:

- لا يحتمل الموقف الآن إصابتك بالهستيريا.

جاءت ماما صبحية إلى الغرفة. متجاهلة ابنها، توجهت مباشرة نحو نادية

واحتضنتها.

تمنى عمر لو كان بوسعه أن يستدير لتهدئة نادية لكنه لم يجرؤ على رفع عينيه عن شريف الذي قصّر المسافة بينهما.

تمددت فتحتا أنف شريف الذي اقترب بوجهه من عمر وقوّس حاجبيه:

- من الحيوان الوضيع الآن؟

جذب وليد شريف وأداره نحوه:

- لا تكن أحمق، أنت تعرف أن هذا غير صحيح.

- سنرى.

نفض شريف ذراعيه وحررهما من قبضتي وليد ثم صرخ على زوجته.

جاءت سميرة وهي تمشي بصلف، كان ظهرها مستقيمًا وابتسامة متكلفة فوق وجهها.

قبض شريف على معصمها وجذبها بعنف إلى الأمام:

- هل رأيتهما معا؟

- كانا في غاية الحذر.

صرخت نادية فتصدّع صوتها من شهيقها بالبكاء:

- كذّابة.

تجرأت سميرة على رفع صوتها فور ما لمسته من شكّ واضح لدى زوجها:

- يمكن الحصول على الدليل.

لاحت في عينيها نظرة شريرة:

- فحص بسيط، أليس هذا جزءًا من مهنة هدى؟

ترنحت هدى بجنب عمر وعاينت سميرة من رأسها حتى أخمص قدمها بعينين طافحتين بالقرف:

- إلى أي درك من الانحطاط ستصلين؟

انتفضت ذراعا عمر، كان في داخله حيوان حقيقي على أهبة الإفلات من سيطرته المتداعية. تفصّد العرق من جبينه وهدر كالرعد في شريف:

- أخرج زوجتك من هنا قبل أن تصاب بأذى!

بدل أن يخرج سميرة، ترك شريف الغرفة. صرخت عليه زوجته بصوت يصمّ الآذان وقد جحظت عيناها ذعرًا.

تموضع وليد بين سميرة وعمر:

- هدّئ أعصابك وارجع إلى الوراء.

أدار عمر رأسه إلى جنب وهو يطبق على حنكه بقوة، لقد قصد إخراج الكلبة من الغرفة قبل أن تهجم عليها هدى ثانية. هل اعتقد وليد أنه سيرفع يده

على تلك المرأة؟ أليس من رجل في هذه العائلة يحسن الظن به؟

رجع شريف وفي يده صرّة، وضعها فوق حافة النافذة العريضة وفكّ قماشها المخمليّ الأخضر فانكشف المصحف الذي بداخلها. نظر في عيني عمر:

- اقسم بالقرآن على أنك لم تمسّ أختي.

خطت سميرة إلى الأمام:

- سيكذب.

بصق شريف جملته من فمه:

- اخرسي.

أشار إلى عمر:

- أعرف أنك لا تستهين بقسم كهذا. إن كنت بريئًا، فاقسم بالقرآن.

لفّت ماما صبحية من حول الجميع لتواجه ابنها:

- لم تفعل هذا؟

- ستعرفين الآن أيّ صنف من الرجال يتيمك الغالي أصبح بعد أن شبّ وترعرع.

- كيف يمكنك أن تظنّ هذا بأختك؟

- خلافًا لما تتصورينه يا أمي، ليس من وجود لكامل الأوصاف.

أشار شريف بذقنه إلى نادية:

- ولا حتى هي.

مصممًا على أن يحصر غضب شريف به بعيدًا عن النساء، خطا عمر بين الأم وابنها:

- نادي على الجيران ليشهدوا.

كانت نبرة صوته غريبة حتى على مسمعيه، هل يغيّر الغضب من تركيبة الإنسان البنيويّة؟ هل يعيد ترتيب حباله الصوتية؟

وضعت ماما صبحية يدها فوق كتفه:

- لا تفعل ذلك لتبرهن لي على أيّ شيء يا عمر، إنني أكتفي بكلمتك.

نقر شريف صدره بإبهامه:

- كلمته لا قيمة لها عندي **أنا**. وليد شاهد أقبل به.

حذّره وليد:

- إنك تتجاوز حدًّا خطيرًا، أنا أضمن لك كلمة عمر دون قسم.

تحرك عمر صوب حافة النافذة حيث المصحف:

- دعونا ننه هذا الأمر.

لكن وليد أشار له كي يقف:

- هل أنت على صلاة؟

قطّب عمر جبينه متشوشًا من السؤال.

قرّب وليد وجهه هامسًا:

- هل أنت طاهر؟

أومأ عمر محاولًا منع وجهه من الاحمرار بسبب سؤال وليد المحرج. ما الذي حمله على هذا السؤال؟ إن من يتحلون بالاستقامة من الرجال اغتسلوا قُبيل صلاة الفجر، وهو لا يختلف عنهم.

- بالطبع.

صكّ على أسنانه بالعًا إهانة أخرى تشكك في مدى التزامه بالأصول.

لكزه وليد قائلًا:

- اذهب وتوضأ كما لو كنت تتهيأ للصلاة، إنك ستضع يمناك فوق المصحف الشريف.

ذهب عمر إلى الحمام متعجلًا تسوية الأمر، ولكنه شعر هناك بشيء من الهدوء. بعد سنوات على أداء الوضوء خمس مرات في اليوم، كان يفترض أن يصبح عملية روتينية تكاد تكون آلية، لكنّ ما كان في انتظاره من مهمة ثقيلة حمله على التعلق بكل قطرة من الماء مسّت جلده وطهرت روحه من الداخل ولم تتركه إلا وقد حلّت السكينة في نفسه. حينها أدرك اجتهاد وليد، وقدّر له ما منحه إياه من فرصة كي تهدأ أعصابه. مطالبته بالقسم العظيم على القرآن تدلل على أن كلمته بمفردها لم تكن كافية، فبعد اعتداء سميرة على شرفه، يصرّ شريف على التقليل من قيمته كرجل. كل هذا لا يهمه فمصلحة نادية هي الأهم، إنه يقبل بفعل أي شيء لأجلها.

عاد عمر إلى الغرفة وهو يجذب أكمام قميصه إلى أسفل. قابلته، كان الجميع متحلقين في نصف دائرة حول طاولة صغيرة توسطها المصحف فوق قماشه المخمليّ. أبعد ما يكون عن شريف، كانت نادية تقف، رنا إليها عمر محاولًا منحها إماءة مطمئنة، لكن ما أبصره من جزع فوق وجهها فاق ما توقعه، فبدأ يغلي من جديد وتبدد ما حلّ به في الحمام من سكينة وهدوء. شدّ على يمينه كي لا ترتجف مما يفور في عروقه من غضب، قد يفسر شريف ارتجافها بأنه علامة على الخزيّ أو التردد.

رفع يده إلى صدره:

- أنا جاهز.

تململ شريف في مكانه وقال بنبرة فارقتها حدته السابقة وعكست جهله بكيفية المضيّ بالأمر:

- هيا نفّذ.

بسط عمر يمناه فوق المصحف ونظر إلى شريف:

- أقسم بالله العظيم، إنني بريء مما تتهمني به.

ألصقت سميرة شفتيها بأذن شريف وأسرّت له بشيء.

دسّ شريف يديه في جيبيّ بنطاله:

- ردد منطوق التهمة.

أخذ عمر نفسا عميقًا محاولا الحفاظ على تماسكه:

- أقسم بأنني لم أستغلّ أختك.

حنى شريف رأسه مشيحًا ببصره عن عيني عمر:

- هل عبثت بشرفها؟

تدخل وليد:

- هذا يكفي يا رجلّ! حصلت على ما تريده من يمين.

تحرك عمر بسرعة فحمل المصحف بيديه وضمّه إلى صدره:

- يشهد الله على ما أقول، إنني لم ألمس نادية بأي صورة غير لائقة.

دعا في سره ألا يطلب منه شريف القسم بخصوص أفكاره الليلية الأخيرة المتعلقة بنادية. رفع المصحف إلى شفتيه، قبله ومسّ به جبينه؛ كرر ما فعله مرتين قبل أن يضعه فوق الطاولة. فرد كتفيه عرضًا ونظر في عيني شريف:

- هل اكتفيت؟

ازدرد شريف ريقه مرتين فبرزت تفاحة آدم بوضوح فاضحة اضطرابه.

تركت نادية مكانها واقتربت من أخيها:

- انظر إليّ.

حال أن نظر إليها شريف، بصقت في وجهه. تقهقر وقد بوغت بما صنعت ثم رفع يده متأهبًا للطمها. قبض عمر على ذراعه وهي في منتصف الطريق ثم راح يدفعه بغلظة إلى الوراء حتى ارتطم بالحائط.

قالت ماما صبحية بصوت جاف بارد من خلف عمر:

- خذ زوجتك، واترك البيت.

تباغت عمر بلهجة ماما صبحية القاطعة فارتخت قبضته لا إراديًا.

أفلت شريف من قبضة عمر وواجه أمه.

- أتطردينا؟

- لا أريد رؤية وجهها هنا مرة أخرى.

- هذا بيتي.

طابقت نبرة ماما صبحية نظرتها القاسية:

- لا بد لك من العثور على بيت آخر.

- أنت تعرفين تمامًا أنني لا أستطيع استئجار بيت بمفردي. سأتخرج في نهاية الشهر، كيف سأعثر على وظيفة إن لم يكن لدي بيت أعيش فيه؟

- كان عليك أن تفكر في ذلك قبل اختيار تصديق أكاذيب زوجتك وإهانة أختك.

خللّ عمر يده في شعره:

- إن كان ينبغي لأحد أن يترك هذا البيت فيجب أن يكون أنا.

هزّت ماما صبحية رأسها:

- هذا سيؤكد على تلك الإشاعات القبيحة، يجب أن تبقى.

أشار شريف نحو عمر:

- إذًا فأنت تختارينه وتقدمينه عليّ؟

- أختار حماية ابنتي وهو أمر فشلت أنت فيه بصفتك شقيقها.

ملاحظًا الصمت المخيم على نادية وهدى، تساءل عمر إن كانتا موافقتين على قرار والدتهما. كانتا تحيطان بأمهما عن اليمين وعن الشمال، فبدت ماما صبحية بما امتزج فوق وجهها من شراسة، وقلق مثل لبؤة متأهبة لحماية صغارها. من أين أتتها كل هذه الصلابة الفجائية؟ حاول عمر تهدئتها:

- يمكننا إصلاح الأمور، ليس هناك ما يستدعي دفعها إلى هذا الحدّ.

أخذت ماما صبحية نفسًا عميقًا:

- سميرة يجب أن تترك هذا البيت.

نبح شريف في وجه زوجته:

- اذهبي واجمعي ثيابك.

- أين سأذهب؟

بصقت هدى كلماتها بقوة مهولة فتقافزت فوق الحيطان وتردد رجعها في الغرفة:

- إلى حفرة المجاري التي زحفت منها.

دفع شريف سميرة أمامه:

- امشي، سآخذك إلى بيت أهلك.

استدار على عقبيه:

- لكن ليكن في معلومك يا أمي، لن أعود ثانية.

- هذا خيارك يا بني.

مندفعًا مثل العاصفة خارج الغرفة، صرخ من فوق كتفه:

- لن تبصري وجهي ثانية.

جذبه وليد من ذراعه في الممر:

- اذهب إلى بيتي، فاطمة ستستضيفك حتى تهدأ الأوضاع. أمك غاضبة جدًا الآن، اصبر يومين.

- لا أريد صدقة منك.

دفع شريف وليد من طريقه:

- فاض بي الكيل من هذه العائلة، إنني أنفض يدي منها.

حاول وليد اللحاق به:

- هذا جنون! لا يمكنك قطع علاقتك بأمك!

أطلقت ماما صبحية أمرها قبل أن تنهار فوق السرير:

- دعه يذهب. لن أسمح له بالبقاء معنا دقيقة أخرى بعد إهانته لأخته. لن يمنعه شيء من تكرار فعلته ثانية، عندي سلمى وفرح وعليّ التفكير في مستقبلهما.

انصفق الباب الأمامي خلف شريف وسميرة. راح صدر ماما صبحية يعلو ويهبط، دلّكت لها هدى يديها وركضت نادية وعادت بزجاجة عطر، رشّت راحتيها ومسحت بهما وجه أمها. فتح عمر النوافذ ليدخل الهواء المنعش إلى الغرفة.

أشارت ماما صبحية إلى ابنتيها لتبعدا أيديهما عنها:

- علينا أن نتحرك سريعًا لوأد هذه الإشاعة في مهدها، يجب أن نطلق خبرًا بين النساء ونشغلهنّ به عن هذا الهراء.

أطلق عمر تنهيدة عميقة:

- سيتكلم الناس عن طردك لابنك من البيت، بسببي.

- شريف اختار طريقه ولن أسمع كلمة أخرى حول هذا الموضوع.

استندت ماما صبحية إلى يدي هدى، واعتدلت جالسة فوق الكنبة:

- كنت مضطرة إلى فعل ذلك، يجب أن يعرف الناس بأننا لا نتهاون مع أكاذيب سميرة اللعينة. والآن، فكروا في حل، أرجوكم.

قال وليد من فوق عتبة الباب:

- زوِّجيهما لبعض.

ازدرد عمر ريقه وهو غير متأكد من فهم اقتراح وليد:

- من؟

- أنت ونادية، وقّعا على عقد زواج ليعرف الناس بأنكما متزوجان قانونيًا

وبحسب الشرع، من شأن هذا أن يخرس ألسنة الجميع جملة وتفصيلًا.

انطلقت عينا عمر كالسهم صوب نادية، كانت تجلس بلا حراك ورأسها في الأرض. ليتها تسترق إليه نظرة خاطفة فتمكنه من التقاط علامة على ما تفكر به. لكنها لم ترفع رأسها، وهو لم يدر كيف يردّ على ذلك الاقتراح. كان قلبه قد قفز في حلقه.

وقفت هدى أمامه:

- هذا لن يحلّ المشكلة لأن البعض سيشتمون فيه احتمال وقوع شيء بينهما.

ركّزت بصرها فيه:

- ستنشغل النساء طويلًا في تكهن طبيعة علاقتك بنادية طيلة السنوات الماضية، وهذا سيصبّ الزيت على النار.

حاول جهده أن يبقي على وجهه جامدًا بلا أي تعبير، لماذا قالت له هدى ذلك؟ ما ردّ الفعل الذي توقعته منه؟ هل تعرف؟ كيف لهذه العانس الجلفة التي لم تبد أي اهتمّاما بالرجال أن تستشفّ هوسه بنادية؟ هل كان مكشوفًا إلى هذه الدرجة؟

ضمت ماما صبحية راحتي يديها، وشبكت أصابعها تحت ذقنها:

- كلام هدى صحيح، هذا لن يحل المشكلة. يجب أن نلقم النساء شيئًا يستحلين الحديث عنه أكثر كي نتمكن من محو كل الشكوك.

رفعت هدى كتفيها قائلة:

- ليس ما يستحلين النميمة عنه أكثر من ابنة من سيحلّ عليها الدور في الزواج بمن، هذا كل ما أسمعه ممن أتردد عليهنّ.

خطا وليد إلى الأمام:

- اسم لامع، نحن بحاجة إلى اسم عائلة نافذة تلقي وزنها خلف نادية. عندها ستنتشر الأقاويل بأنها مرغوبة من جانب عائلة محترمة ومعروفة.

استدار عمر نحو النافذة ليبعد وجهه عن نظرات هدى الثاقبة. اللعنة على مروان برادي، اسم عائلته المرموق سيخرس ألسنة الجميع، ومروان لا يحتاج إلا لإشارة منه. إن كان لديه من قبل ولو أمل صغير في رفض نادية لمروان، فإن ذلك الأمل تهشّم الآن إلى مليون قطعة. ستقبل نادية بمروان حرصًا على سمعتها، وسيضطر هو إلى مراقبة حصول ذلك تحت سمعه وبصره.

# 28

واقفًا قرب النافذة، أسند عمر مؤخرته إلى حافتها وراقب الآخرين بصمت وهم يناقشون مصير نادية. كانت تجلس فوق سريره وكأنها قدّت من صخر. تطايرت أسماء رجال من الحي ومن معارف وليد، وطرق مفاتحتهم بكياسة في الأمر. أثار اسمان منها القرف في نفسه، لما يعرفه من أمر أو أمرين عن معدن أصحابها. انتظر ممتنعًا عن البوح باسم مروان قبل أن تسنح له فرصة الحديث على انفراد مع نادية. هذا، على الأقل، ما ساقه من مبرر لنفسه كي يبقى صامتًا. كان يخشى أنه لو فتح فمه فسيصرخ ملء رئتيه بما يجيش في صدره. انتظرها لترفع رأسها، لتعترض أو تومئ، لتقل أي شيء، لكن نادية ظلت منزوية وصامتة.

كلما أوغلت ماما صبحية وهدى ووليد في مخططاتهم، ازداد ضيقه وتململه. حاول تخفيف ما اعترى رجله من خدر فنقل ارتكازه على الأخرى ثم أطلق زفرة مثقلة بالإحباط.

هبّت نادية على قدميها كما لو أن أحدهم ضغط زرًا في رأسها:

- هل أصبتم جميعًا بالجنون؟

توقفت ماما صبحية في منتصف جملة من حديثها:

- ماذا جرى؟

- أنتم جميعًا جننتم، هذا ما جرى.

رسمت نادية بيديها دائرة كبيرة في الهواء:

- هذا... هذا المخطط المجنون الذي تطبخونه لي. أنا هنا أمام أعينكم، لست كائنة خفيّة. يجب أن يكون لي رأي بهذا الخصوص، أليس كذلك؟

ضربت يديها فوق صدرها فخرج صوتها مهزوزًا:

- سجلت في الجامعة للتو، كيف تجرؤون على التفكير بأني سأتزوج الآن من أي شخص؟

فتحت هدى فمها لقول شيء لكن نادية تجاهلتها وأشارت إلى عمر:

- وماذا عنه؟ إن أحدًا منكم لم يوجه ولو كلمة طيبة واحدة لعمر بعد كلّ ما تعرّض له. شريف سحق كبرياءه، وداس على شرفه وأنتم جميعا تتوقعون منه ابتلاع كرامته، والبقاء في البيت لأجلي. رميتم بفكرة سخيفة في وجهه ثم أطلقتم

النار عليها لأنها لا تخدم مصلحتي. ماذا عن اسمه هو؟ ماذا عن سمعته هو؟

استدارت لتقابل عمر:

- لماذا أنت صامت هكذا؟ قل شيئًا.

متفاجئًا من قلقها حيال مشاعره، وصرفها للمشكلة التي تواجهها، تحرك عمر بسرعة وأمسك بمرفقها ليحثها على الذهاب معه:

- هيا لنتكلم.

رمى الآخرين بنظرة خاطفة قبل ترك الغرفة:

- امنحونا دقيقة لو سمحتم.

لم تتردد نادية واندفعت بنفس سرعته. كان يأمل في جلسة انفرادية بالكامل، ولكن بما أن التهمة ما زالت تحوم في الهواء، اختار الجلوس في المطبخ مبقيًا على الباب مفتوحًا. ترك مرفقها وخطا خطوة إلى الوراء، حاول أن تكون نبرة صوته متزنة:

- سأفعل كلّ ما يتطلبه الأمر كي أعيد وضعك إلى مساره الصحيح، كل ما هو مطلوب منك هو أن تقولي لي ماذا تريدين.

تردد لجزء من الثانية وأضاف:

- حتى وإن بدا لك أن الحل سخيف للغاية. مكتبة

- هل تصدّق؟

قلّبت عينيها:

- وأنا التي كنت أحسب وليد رجلًا عاقلًا! يأتي ويقترح أمرًا في منتهى... منتهى الفظاعة.

أخلى عمرحنجرته بكحة خفيفة:

- لم يقصد وليد سوى الخير، إنه يحاول المساعدة.

- أدري، أدري.

حنت كتفيها:

- ماذا سنفعل بشأن هذه الفوضى؟

- سأدعم أي قرار تتخذينه. لكن قبل أن تفعلي، يجب أن تعرفي كافة خياراتك المتاحة.

- ألم تكن منصتًا؟ من الواضح أنه لا خيار لي سوى سحب اسم من قبعتهم السحرية.

- مروان برادي خيار.

ما إن نطق عمر بكلماته حتى مَادت الأرض به، فارتمى فوق أقرب كرسي.

- لن تطلب من صديقك أن يدركني بشفقته، شكرًا جزيلًا لك.

- لست مضطرًا لذلك، مروان طلب الإذن مني كي يتقدم لك.

رفع يده وأشار بإصبعيه:

- مرتين.

أمسكت نادية بحافة الطاولة:

- لماذا أجد مشقة في تصديقك؟

- لأنني لم أكذب عليك قطّ ولن أبدأ الآن، خاصة بشأن أمر كهذا.

- متى طلب منك أول مرة؟

- يوم خروجي من المستشفى.

- مرّ على ذلك أكثر من شهر.

أبقى على عينيه في عينيها:

- صحيح.

- إذًا عندما كنا في المستشفى يوم ولادة فاطمة وسألتك عن مخططات مروان المستقبلية كان قد فاتحك في الأمر؟

نهض من كرسيه آملًا في أن تحمله رجلاه باتزان:

- أجل.

دون أن تتزحزح من مكانها، مالت برأسها إلى الخلف لتنظر في عينيه:

- وأنت خبأت الأمر عني؟

أبصر ألمًا في عينيها الواسعتين، فاستجمع قوته لمواجهة دموعها حال سقوطها:

- لم يكن الوقت مناسبًا حينها، غير مناسب لمروان. أخبرتك عن التزاماته العائلية.

- ولكنك لم تخبرني بأنه مهتم بي.

وضعت يديها فوق صدره ودفعته:

- لماذا؟

دفعتها بالكاد زحزحت جسده من مكانه. أبقاه وجع ساديّ في صدره واقفًا بثبات مطالبًا بالعقاب أو، وببساطة، بمزيد من اللمسات. كان يقف أمامها في تلك اللحظة وخبيئة نفسه قد أصبحت عارية، كما لو أن جرافة مرت فوقه، وجرّدت لحمه عن عظمه. راح ذهنه يعمل بسرعة الضوء ليعثر ولو على خاطر واحد متماسك في رأسه، لقد وفى بما قطعه من وعد لصديقه، أليس كذلك؟ أخبرها بنوايا مروان، فما الذي يمنعه من أن يبوح لها بمشاعره؟ هل ستصرّ بعد ذلك على أن اقتراح وليد كان فظيعًا؟

دفعته نادية ثانية بقوة أكبر هذه المرة،وعلت نبرة صوتها الآمرة:

- لماذا لم تخبرني؟

حملته قلة حيلته على الطيش، فقبض على معصميها وأبقاهما فوق صدره وحصرها بينه وبين الطاولة:

- لدي أسبابي.

حاولت الإفلات منه.

لم يتركها قائلًا:

- اسأليني.

- متى كانت المرة الثانية؟

- أول أمس.

أنزل رأسه إلى أسفل حتى شعر بأنفاسها تلفح وجهه:

- والآن اسأليني عن أسبابي التي دعتني لإيقافه في المرتين.

- أعرف لماذا فعلت ذلك، لأنك تعتقد بأنني ما زلت صغيرة جدًا.

قوّست ظهرها إلى الخلف كي تبعد وجهها عن وجه، ولكن حركتها تلك أدت إلى اندفاع وركيها إلى الأمام.

أطلقها على الفور لاعنًا في سره، فترنحت نادية بقرب الطاولة.

- ماذا دهاك؟

- اللعنة يا نادية، اسأليني.

- أسألك عن ماذا؟ كلامك ليس مفهومًا.

كان التشوش يمتزج بالغضب في صوتها وتعابير وجهها تتأرجح بين الذهول والخوف.

لم يكن التوقيت ولا المكان مناسبين، كما أن طريقة طرحه للموضوع لم تكن موفّقة، لكنه مع ذلك لم يستطع التوقف. كان ما قالته سميرة بشأن الطريقة الخاصة التي ينظر بها إلى نادية، وتعليقات هدى المبطنة يتردد في رأسه. حتى اقتراح وليد بتزويجهما لم يأت من فراغ، لا بد وأن حدسه التقط شيئًا ما. ما داموا جميعًا قد شعروا بشيء، فلماذا لم تشعر هي به أيضا؟ مثل الغريق الذي يتعلق بقشة، شق طريقه بارتباك قائلًا:

- كيف يمكن ألا تعرفي؟ الجميع هنا يبدو أنهم قد التقطوا الأمر.

- أنا... أنا تشككت في نوايا مروان، ولهذا سألتك عندما كنا في المستشفى.

خبط الطاولة بيده وقد تفجّر تماسكه رمادًا في الهواء:

- إنني لا أقصده!

رمت نادية يديها في الهواء:

- يا إلهي! لقد قلت للتو إنه خيار، أليس كذلك؟

أشارت صوب الباب من خلفه:

- هل كنت تكذب؟ ألهذا السبب لم تذكر لهم اسم مروان؟

- لم أقل هناك شيئًا لأنني لحظة النطق باسمه سيسيل لعاب أمك وأختك لما يقدمه من حل مثاليّ.

- إذًا؟

طوى ذراعيه فوق صدره شادًا بإحكام على ضلوعه خوفًا من تشظيه في أي لحظة إلى قطع صغيرة ورد عليها:

- أريد أن أعرف أولًا كيف تشعرين تجاهه.

- ما رأيك أنت؟

- لست منجمًا بالغيب، يجب أن تقولي لي رأيك.

طارت أناملها صوب قبّتها:

- مروان رجل طيب.

- لم اسألك عن هذا.

- إنني... معجبة به. دائمًا ما كنت.

انخفض صوتها حتى كاد يتلاشى.

رغم معرفته مسبقًا بردها، إلا أنه أصرّ وبدون ذرة من التعقّل على سماع ذلك الردّ القاتل. هل يشعر الإنسان عضويًا بتحطّم قلبه؟ لم لا يستطيع سحب نفس بالكامل؟

دسّ وليد رأسه من الباب:

- كيف تسير الأمور؟

تخطّت نادية عمر، ولكزت ذراعه بكتفها وهي في طريقها نحو وليد:

- لدينا حل. خمس دقائق أخرى، أرجوك.

لم يجرؤ عمر على الاستدارة ليترك وليد يلاحظ انهياره. كانت حبات من العرق البارد تبلل أسفل عنقه وراحتيه، فذهب إلى المغسلة ونثر الماء فوق وجهه.

ردّ وليد على نادية:

- لقد تأخرت. إنني بحاجة للذهاب سريعًا إلى البيت، فاطمة تنتظرني.

سمع وليد وهو يبتعد عن المطبخ، فدفن وجهه في منشفة.

- من الشخص الآخر يا عمر؟

- وهل هذا مهم؟

- إن كان الأمر كذلك، فليس بوسعي التفكير فيمن هو أفضل من مروان. هل يدري بـ... مشكلتنا؟

ألقى بالمنشفة جانبًا، وراقب دوران الماء في المغسلة، تلولبت آماله معه ، ونزلت من فتحة المصرف:

- كلا.

حينها داهمه الأمر، **هل** يعرف مروان؟ ربما من شقيقته؟ ألهذا أصبح لحوحًا ويطالب برد سريع، جاعلًا الأمر يبدو مستعجلًا؟ هل هي طريقة صديقه في تقديم حل له دون قذف التهمة في وجهه؟ اندفعت المرارة من جوفه إلى حلقه. ازدرد ريقه عدة مرات ثم واجه نادية:

- لا يمكن له أن يعرف. يستحيل أن تكون هدى قد أخبرت رحاب، أليس كذلك؟

- لكن الآن وبعدما ترك شريف البيت، لا بد أن مروان سيعرف. كما أنه ليس من الإنصاف إخفاء أمر كهذا عنه.

- أهل سميرة لن يسمحوا لها بفتح فمها، وشريف ليس أحمق إلى درجة إخبار الجميع عن سبب تركه البيت.

- تقصد طرده من البيت، لا يمكن التخمين بما قد يقوله شريف أو يفعله بعد ما فعله اليوم.

- سأوضح الأمر لمروان. على كل الأحوال، من الأفضل أن يسمعه مني.

انهمرت الدموع التي كان قد استجمع قوته لمواجهتها فوق وجنتيها. رمى بنظرة خاطفة إلى الباب ليتأكد من عدم وجود أحد ثم احتضن وجه نادية بين يديه:

- هل تثقين بي؟

همست:

- أنت تعرف بأني كذلك.

تمهل لتسحب وجهها لكنها لم تفعل فقال:

- سأعيد شريف إلى البيت، وسأحمله على القبول بعرض مروان رسميًا، هل هذا ما تريدينه؟

- مجرد خطوبة، لا أريد الزواج الآن.

احمرّت وجنتاها بين راحتيه:

- هل تعتقد أن مروان سيوافق على ذلك؟

أرخى يديه إلى جنبيه، وفرك أصابعه ببعضهما البعض متحسسًا ملمس بشرتها الناعمة:

- أنا متأكد من أنه سيوافق.

- كيف ستحمل شريف على العودة بعد كل ما فعله؟

- لديّ أساليبي الخاصة، لا تقلقي. مهمتك هي إقناع ماما صبحية بقبول عودته، على الأقل ريثما نتمكن من إتمام الأمر.

- وإن لم توافق ماما؟ هل يستطيع مروان أن يتقدم لك بدلًا من شريف؟

- لا أستطيع لعب هذا الدور يا نادية، شقيقك هو شريف.

ارتجفت شفتها السفلى:

- ولكنك ستتولى منعه من إفساد الأمر؟

- لن أكون حينها موجودًا هنا.

- لماذا؟

- لا أستطيع.

جذبت ذراعيه بيديها:

- ماذا تعني؟ إنني أحتاجك بقربي.

مطلقًا نفسًا مهلهلًا، أنزل يديها وأولاها ظهره. هذه البنت، المرأة، الكائن ليس لديها أدنى فكرة عما تفعله به. أن يكون هناك؟ أن يشهد بأمّ عينه موافقة شريف على طلب مروان ليدها؟ هل هي غافلة وقاسية إلى هذه الدرجة؟

- أنا مضطر للذهاب في نهاية الأسبوع، أسندت لي مهمة خاصة في الجيش.

توجه صوب الباب آملًا في أن يسهّل عليه الهرب منها أمر الكذب:

- سأرتب الأمور قبل ذهابي. لا تقلقي، شريف سيتصرف بالشكل المطلوب. لن يكون لديه خيار آخر.

بعد أن أودع بطاقة هويته الجديدة في جيبه، خرج عمر من البيت في وقت متأخر من العصر. تقمّص شخصيته الجديدة جيدًا ووظفها خلال كل تحركاته لترتيب خطوبة نادية. عمر بكري لم يعد موجودًا، لم يكن هو من ذهب إلى بيت أهل سميرة طالبًا الحديث على انفراد مع شريف ومريقًا ما تبقى من كرامته المهدورة. لم يكن هو من قدّم عرضًا لم يستطع شريف رفضه؛ رشوته بعقد تدريس مجزٍ في الكويت الغنية بالنفط حال تخرجه. ولم يكن هو من انتزع معروفًا من صديق قديم يعمل في وزارة التربية والتعليم لتأمين ذلك العقد. كلا، لم يكن هو على الإطلاق.

كان من فعل ذلك كله هو القائد الدعيّ الغامض الذي لا يمت لنادية أو لعائلتها بصلة.

لم يضطر إلى قول أي شيء لعمّ مروان، جلس مع الرجل العجوز في غرفة استقباله العريقة وأومأ برأسه عند سؤاله إن كان مروان يقول الحقّ بشأن التزامه نحو نادية. لم يطلب منه أحد جلب شهود أو القسم بشرفه أو وضع يده فوق المصحف. قطعًا، إنه لشعور جميل؛ أن يحظى بالثقة على ذلك النحو وأن

يعامل بما يليق بالرجل الذي كانَه ذات مرة.

عملًا بالتقاليد، حُدد موعد الخطوبة ليصادف عصر الخميس. يومين، بعد يومين، ستصبح نادية خطيبة مروان برادي.

إنه لأمر حسن أنه لم يعد عمر بكري بعد الآن.

ذابت النهارات وتحولت إلى ليالٍ ونادية لم تذق طعم النوم. لم تستطع تقبّل تلك الحياة التي كانت على وشك الهبوط عليها من فوق. إن عيد ميلادها الثامن عشر سيحلّ بعد عشرة أيام لكنها تشعر كما لو أنها كبرت فجأة عدة سنوات. بلغت شراسة كذبة سميرة حد تسريع الأرض حول محورها، وزجّ نادية في عالم تجهله، عالم لئيم وقاس. عمّا قريب، ستصبح خطيبة مروان، حلم طالما اشتهته قبل اختفاء العالم الذي كانت تعرفه من الوجود. كيف لها الآن أن تخطو خطوة كهذه وهي لا تعرف بعد تلك المرأة التي أصبحتها؟

رتبت ماما وهدى أمور المناسبة الكبيرة. ورغم اقتصارها تقليديًا على الرجال، إلا أنهما دعتا الجارات لمساعدتهن في المطبخ زعمًا بأن صحة ماما لم تكن كما يجب. كما أرسلتا الأختين الصغيرتين لنشر الخبر في أرجاء الحيّ. تولى وليد وعمر دعوة الرجال نيابة عن شريف الذي عاد إلى البيت مثل ملك منتصر. لقد ترك على الأقل سميرة عند أهلها، وجنبهم مواجهة لا تطاق مع تلك الأفعى. أصرت ماما على ذلك كي تقبل بعودته إلى البيت.

قضى عمر لياليه في بيت فاطمة، ولم يأت إلى البيت إلا لاستبدال ثيابه أو لإقحام أوراق في يد شريف. لم تعرف نادية إن كان عمر قد وضع مروان في صورة ما جرى حسبما وعدها، وعندما صادفته في المطبخ ذات صباح، ارتعبت لهول النظرة التي أبصرتها في عينيه فامتنعت عن سؤاله.

حاولت الابتعاد عن طريق الجميع كما لو أن المناسبة لا تخصها. قطعًا، ثمة خلل ما في سويتها النفسية، فهي عندما أبلغت صديقاتها الحميمات بأمر خطوبتها لم يحرك فرحهنّ شيئًا في نفسها. وحينما ألبستها فاطمة فستان الخطوبة لضبط مقاسه عليها رأت في المرآة شخصًا آخر، شخصًا مفككًا ومكسورًا، كأنه دمية تُحرَّك بحبال خفيّة. ما الشيء المفقود في هذه المسرحية؟

نادت ماما عليها لتأتي إلى الشرفة مساء الأربعاء، فجرجرت قدميها، ثم رمت نفسها فوق الكرسي. قالت لها ماما:

- اسمعي يا نادية، لا أريدك أن تفسدي كل ما بذلناه من جهود مضنية. قولي لي، هل من مشكلة؟

- هل تطرحين عليّ حقًا مثل هذا السؤال؟

- حسبتك معجبة بمروان؟

- ليست هذه هي المشكلة يا ماما.

- ما هي إذن؟ إنك تتصرفين كما لو أن نهاية العالم ستحلّ غدًا. أنت من جاء بهذا الحل، أتذكرين؟

وقفت لتستند على سور الشرفة قبالة السماء المشرعة على الأفق:

- لا أعرف ما الذي يفكر به مروان، لقد وعدني عمر بأنه سيخبره.

- يخبره بماذا؟

- أوه، ماما! أنت تعرفين ما أقصده.

نهضت ماما، ووضعت ذراعها حول كتفيّ نادية:

- لا بد وأنه فعل يا حبيبتي، عمر لن يخفي أمرًا كهذا عن صديقه.

- كيف لي أن أتأكد؟

- اسألي عمر عندما يأتي إلى البيت.

- تسألني عن ماذا؟

استدارت نادية بسرعة، فوجدت عمر واقفًا بالباب. كان وجهه متجهمًا كالحًا كما كان في الصباح.

- عذرًا، لم أقصد المقاطعة. لكني ظننتك تنادين عليّ عندما سمعت اسمي.

- إنني سعيدة بوجودك.

جذبت ماما له كرسيًا:

- اجلس وكلمها لتتعقّل قليلًا.

ناولها عمر كيسًا في يده:

- لوز محمص.

قبّل جبينها:

- العم مصطفى كان سيقبل بمروان، ألا تعتقدين ذلك؟

ضمّت ماما كيس اللوز بشدة إلى صدرها:

- بل إنني متأكدة من ذلك.

مسحت دمعتين بأناملها وتوجهت صوب الباب:

- سأجهز لك شيئًا تأكله.

نظر عمر إلى نادية:

- ما الأمر؟

رجعت إلى كرسيها:

- ماذا قال مروان عندما أخبرته عن... المشكلة؟

امتطى الكرسي الآخر:

- لم يعلق بكلمة فالتقليديون من أمثاله لا يخوضون في مسائل كهذه، لم

يتركني حتى لأكمل ما بدأت بقوله. رده يكون بالأفعال لا بالأقوال.

حنت رأسها:

- وماذا يعني ذلك؟

- إنه سيحضر في الغد قرابة مئة رجل من عائلة برادي ومعارفهم لطلب يدك، هل تعرفين مقدار ما يثيره هذا من الإعجاب؟

مرّرت ظاهر يدها تحت ذقنها لتمسح دموعًا غير متوقعة، لماذا لم تعد قادرة على التماسك؟ ولم لا تشعر بالإعجاب؟ ما هو الشيء المفقود؟

- أتبكين؟ ينبغي أن تكوني سعيدة. الناس تتباهى بعدد من يأتونهم بصحبة عريس لطلب يد بناتهم، ألا تعرفين ذلك؟

هزّت رأسها، إنها لا تعرف ولا تهتم لذلك.

- هذا يدلل على ما للخاطب من مقام وسط الناس، وعلى مبلغ ما يكنّه للخطيبة من تقدير. سيصبح لدى شريف الكثير مما يفاخر به أصدقائه.

رفعت رأسها ومسحت مزيدًا من الدموع التي هطلت فوق وجنتيها. حقًا، لماذا لا تشعر بالسعادة؟ بحثت في وجه عمر عن شيء يراوغها. كانت في حالة تشبه تلك المرّة التي خبّأت فيها ساعتها الثمينة في مكان مأمون ثم نسيته، أصيبت وقتها بهوس البحث والتذكّر. استحوذ القلق عليها فحملقت في عينيّ عمر الزرقاوين، عثرت على المكان الخفيّ لكنها تجهل ما خبأته فيه. ما زال ذلك الشيء ضائعًا مفقودًا، ما هو الشيء المفقود يا نادية؟ ما الشيء المفقود؟

- لا أريد الزواج قبل حصولي على شهادتي الجامعية، هل أخبرت مروان بهذا؟

رجع عمر بظهره إلى الوراء:

- فعلت، عليك أن تناقشي تفاصيل ذلك معه.

اجتاحها شعور طاغ من العجلة فقبضت على ركبة عمر:

- لكن هل تفهّم هذا الأمر؟

هبّ عمر على قدميه تاركًا الكرسي يرتطم بسور الشرفة:

- ما الذي تريدينه مني أكثر من ذلك؟

عادت ماما إلى الشرفة وهي تحمل صينية عليها طعام وإبريق شاي:

- كفّي عن القلق يا حبيبتي، كل شيء سيسير على ما يرام.

رفع عمر الكرسيّ وقدمه لماما.

دهنت ماما الخبز بالحمص قائلة:

- هل أنت مضطر للذهاب غدًا؟

- أجل، للأسف. يجب أن ألحق بباص الساعة الثالثة.

- وليس بإمكانك إعلامنا بوجهة هذه المهمة؟

- شمالًا، هذا كل ما أستطيع قوله.

ناولته ماما الشطيرة:

- متى سنراك ثانية؟

- آمل أن يجري نقلي إلى هنا بعد ثلاثة أشهر.

رفعت نادية الإبريق وصبت الشاي في الكؤوس، لم تتوقف في كل مرة إلا عند بلوغ الحافة، فثمة غشاوة تلفّ عينيها. حرّكت السكر بالملعقة وتتبعت أوراق الشاي وهي تدور كالدوامة.

عمر، عمر هو الشيء المفقود.

# 29

جرت التحضيرات لمناسبة يوم الخميس المهمة على قدم وساق. اكتظ المطبخ بنسوة من الحيّ، ورفعت ماما صبحية والفتيات قطع الإثاث من غرفة الجلوس كي يفسحن مكانًا لسيل الرجال القادمين. ساعد عمر قدر استطاعته بعد عجزه عن الإتيان بعذر مقبول يبقيه بعيدًا عن البيت. في الثانية ظهرًا، رمى حقيبته فوق كتفه، وودّع الجميع ثم طبع قبلة على جبين ماما صبحية وخرج.

لحقت به نادية إلى الدرج:

- كم كنت أتمنى لو أنك لست مضطرًا إلى الذهاب.

توقف فوق الدرجة العلويّة، وسحب من جيبه صندوقًا صغيرًا مغلفًا بورق جرائد:

- لديّ شيء لك.

- ما هذا؟

- شيء بسيط كي تجمّلي به فستانك، أعتذر عن الحضور.

ارتعش صوتها:

- لست مضطرًا لجلب هدية لي.

أخذ يدها، وأغلق أصابعها على الصندوق المغلّف:

- إنه لك ويجب أن تأخذيه، عيد ميلاد سعيدًا و... خطوبة مباركة.

مزّقت نادية ورق الجريدة، وفتحت غطاء الصندوق الصغير، ثم سحبت سلسلة فضيّة تتوسطها تعليقة. قالت بدهشة:

- جناحان؟ تهديني جناحين؟

ابتعد هابطًا درجتين:

- جناحا ملاك، كان لك دومًا مثلهما.

أشار صوب التعليقة المتدلية من يدها المرتجفة:

- كي يذكّرانك بأن مروان رجل محظوظ للغاية.

استدار وهرول أسفل الدرج رافضًا رؤية المزيد من دموع نادية المنسكبة فوق وجنتيها. غامت الدرجات تحت قدميه فمرّر يده فوق وجهه ومسح عينيه، اللعنة!

صادفه شريف عند مخرج البناية فقبض عمر على خناقه:

- إن أفسدت هذا الأمر على نادية، فسوف تتمنى لو أن أمك لم تلدك.

جحظت عينا شريف وشهق كي يتنفس.

تركه عمر وخرج شاقًّا طريقه عبر الأزقة الملتويّة. حين وصل إلى الشوارع الرئيسية، هرول بين العائدين بلهفة إلى بيوتهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. لما أشرف على مجمّع الباصات، ركض متناسيًا عدم اضطراره إلى تبليغ أي كان بوصوله، ومصدقًا كذبته التي اختلقها كي يغادر البيت. ركض إلى المحطة، ركض داخل المحطة، ركض متجاوزًا موقف الباص، ركض تاركًا المحطة وعلى طول الطريق المفضي إلى خارج وسط البلد. تطاير الحصى تحت قدميه، دفع بلا رحمة جسده الذي لم يتعاف بعد إلى ما وراء طاقته، احترقت رئتاه، سحقت التشنجات عضلات بطنه، ثم ترنح وهوى فوق التراب.

ممدّدًاعلى ظهره، راقب الأشجار وهي تلفّ حوله مثل الدراويش، وأبصر العالم يدور ويدور مثل ناعور ماء، ثم تتبع طيرًا محلقًا بعرض جناحيه في السماء، لاحقه ببصره إلى أن طواه الغياب.

اقترب بعض الفضوليين منه، تجاهل نظراتهم ونهض. احتضن حقيبته ورجع إلى شباك التذاكر. سيسافر إلى الأردن، سينضم إلى الفدائيين وسيبقى بعيدًا ما أمكنه البعاد.

داخل معسكر الفدائيين في الصحراء الأردنية، غمس عمر نفسه في التدريبات القتالية وما فيها من انضباط وصرامة ليتخلص مما يثقله من إحباط. أطلق لحيته كي يبدو بعمر شخصيته المنتحلة التي تكبره في العمر. وجد مكانه بين خليط من الرجال، شيبًا وشبانًا، مقاتلين غاضبين ومتحمسين على استرداد ما اغتصب منهم. انتزع احترام جميع من عُيّن منهم تحت إمرته على مهاراته التدريبية فتمكن من تشكيل قوة قتالية كانت مثار حسد جميع الفصائل في معسكر الكرامة.

وجد طمأنينة النفس بين عناد مقاتلي الحرية وحماسهم الذي لا حدود له. بحرصه على عزل نفسه، لم يرتبط بعلاقات مع الفرق العسكرية الأخرى في المخيم. وبرفضه استلام تعويضات نقدية من منظمة التحرير الفلسطينية، ظلّ مستقلًا وبعيدًا عن الانتماءات السياسية. وبحفاظه على سريّة هويته الحقيقية، لم يكسب أصدقاء وحقق لنفسه حضورًا مهيبًا بالبقاء لغزًا. لم يظهر الرجل الذي جنده في دمشق أبدًا في المعسكر، ولم يتمكن أحد من معرفة اسم الانجليزي الحقيقي. طمر عمر نفسه عميقًا في خنادق الغموض، ودفن حرمانه تحت طبقات من الصلابة التي يخبرها جيدًا.

في الواحد والعشرين من آذار، رغب بعض المقاتلين في أخذ إجازة للاحتفال بعيد الأم مع أسرهم. مكث عمر مع رجاله في المعسكر وظل متحفزًا يقظًا. كانت تقارير الجيش الأردني الاستخباراتية قد حذرتهم من تحريك قوات على الجانب الإسرائيلي من الحدود.

في الصباح الباكر، شنّ الجيش الإسرائيلي هجومًا على معسكرهم. لكن الإنجليزي ومن هم تحت إمرته من مقاتلين كانوا جاهزين. في هذه المرة، استيقظ العالم العربيّ على معادلة مغايرة للحرب. صدّ الفدائيون، بدعم من الجيش الأردني، الهجوم وهزموا الإسرائيليين. تمكنوا من الاستيلاء على مدرعات وإلحاق خسائر شديدة في صفوف العدو.

النصر، يا لمذاقه العذب!

الكرامة، يا لها من مغنم عظيم!

أصبح كسب معركة الكرامة ما يُعرّف به الإنجليزي، وصار يشار إليه بالبنان على أنه مفصل أساسي في آلة الحرب المعقدة. لقد حقق ما جاء من أجله وتمكن من دمغ بصمته، كان لوجوده أثر في تغيير في مجرى الأحداث.

بعد أن همد غبار المعركة، حزم عمر حقيبته. اندفع أحد القياديين مثل العاصفة إلى خيمته:

- لا أستوعب سرّ عزمك على الرحيل فالرجال ما زالوا بحاجة إليك. أنظر إلى ما فعلته خلال ثلاثة أشهر، فكّر فيما يمكنك إنجازه لو بقيت.

- لديّ التزامات.

- ينبغي أن تكون القضية الفلسطينية على رأس التزاماتك. نحن أقوى الآن، إنها فرصة تاريخية قد لا تتكرر ثانية.

- جئت لقتال الإسرائيليين، وتمكنت من إنجاز مهمتي.

- كلنا قدمنا تضحيات، وتركنا عوائلنا وأعمالنا لحمل السلاح، هذا هو المكان الذي ننتمي إليه.

طعن القائد صدر عمر بسبابته:

- هذا هو المكان الذي ينتمي إليه الإنجليزي.

تنحى من أمام القائد ومضى خارج الخيمة:

- قمت بما عليَّ من واجب وأنا ذاهب الآن إلى البيت.

كان لا بد له من العودة، فهو إن لم يتصل بالجيش السوريّ سيعتبر فارًا من الخدمة، وسيحكم عليه بالهرب مدى الحياة. كيف سيتمكن حينها من رؤية نادية؟ كانت هناك سلاسل تجره رغمًا عنه، سلاسل لها من القوة ما للقضايا الوطنية؛ سلاسل حب لم يتمكن من دفنه على عمق كاف، من طرده من قلبه

وعقله، ومن حرقه رمادًا أو تفجيره شظايا. نادية بكل وضوح وبساطة هي قضيته ولا يستطيع أحد أن يعيبه على ذلك. إنه ينتمي إلى عالمها، وسواء كانت مخطوبة إلى أعزّ أصدقائه أو متزوجة من ملك، فما كان ليأبه لذلك. فهو أيضًا الإنجليزي، البطل المنتصر العائد إلى البيت بهامة مرفوعة عاليًا هذه المرة. أتراها ستلاحظ ذلك؟

أغلقت نادية باب سيارة مروان وألقت كتبها فوق المقعد الخلفيّ:

- أين البنات؟

- فكّرت في المرور عليك أولًا لنمنح أنفسنا بضع دقائق على انفراد قبل التقاطهم من المدرسة.

- لماذا؟

- البنات دائمًا من حولنا، أخواتك وأخواتي. أشعر في كل مرة نكون فيها معا بأننا مثل مربيات يجالسن الصغار.

- لا بد لنا من مرافقين، أم نسيت إلى أي حد يمكن أن تبلغ قسوة الناس؟

- سأكون سعيدًا بمرافق بالغ يمنحنا قدرًا من المساحة الخاصة بين الفينة والأخرى.

رفع سبابته في الهواء:

- وأنا لا أقصد هدى، إنها تخيفني.

- حسًنا، أعتذر منك لأن أخي تخلّى عني ولأن عمر غير موجود، ليس لدي مرافقون مقبولون سوى أخواتي البنات.

أطلق مروان نفسًا طويلًا:

- لن يتكلم أحد من الناس عليك بعد الآن.

حمل يدها ورفعها إلى شفتيه:

- انتهى ذلك الأمر.

اختطفت يدها بعيدًا:

- لا يمكننا الجلوس بمفردنا في السيارة تحت أنظار الجميع.

- أنت تبالغين بالشك والارتياب حدّ الجنون.

- أرجوك، انطلق.

- حسنًا.

حرك السيارة بعنف.

- لديّ ثلاثة امتحانات لا بد لي من الاستعداد لها، وكذلك بحث يحين موعد تسليمه يوم الثلاثاء. يجب أن تعفيني في عطلة نهاية هذا الأسبوع.

- مفهوم.

- مفهوم؟

- فهمت ما تعنيه يا نادية، لا تريدينني أن أزورك اليوم. أتعلمين؟ بمقدورك أن تقولي هذا فحسب، قوليه ببساطة ووضوح.

غيّر بدّالة السرعة بنفس الحدّة التي كانت في صوته:

- لا تأتي عندنا أو لا أريد رؤيتك أو أفضل البقاء وحدي، كيفما أردت صوغ هذه الفكرة. فقط قوليها بشكل مباشر، هلا فعلت؟ لا تصطنعي الأعذار.

- لم أقصد سوى أن أخبرك بأنني لا أستطيع تضييع الوقت خلال عطلة نهاية الأسبوع.

خفض صوته:

- هكذا تنظرين إلى الأمر؟ تضييع وقت، عندما تكونين معي؟

مما أدركته نادية خلال الشهور الماضية، كانت تلك هي طريقة مروان في إظهار غضبه. يكبت ما في داخله إلى أن يعثر على طريقة لتهدئة الموقف. لكنها كانت تتمنى أحيانًا لو أنه يفجّر ما بداخله عوض ذلك.

أخذت نفسًا عميقًا وحاولت تهدئة خاطره:

- لا تؤوّل كلامي كثيرًا أرجوك، لقد وافقت على دعمي في الدراسة.

- وفعلت، ألا تعتقدين ذلك؟ لكني لم أتصور أنك تفضلين صحبة الكتب على أن تكوني معي.

- طبعًا، أنت لن تفهم مدى أهمية هذا الأمر بالنسبة لي.

- لماذا؟ ألأنني لمّ أتمّ تعليمي المدرسيّ؟ أهذا هو السبب؟ هل أنا جاهل إلى حد عدم **الاستيعاب**؟

- ليس هذا ما قصدته!

لم تستطع منع نفسها من الصراخ فانتابها الخجل من فقدان سيطرتها على أعصابها:

- أنت رجل وتاجر ناجح، لديك كل ما ترغب به ولست بحاجة إلى المزيد.

وضعت يدها على صدرها:

- أما أنا فأحتاج، **أحتاج** إلى ما توفره الشهادة الجامعية من أمان في المستقبل.

- أمان؟ ألا تشعرين أن مستقبلك معي في أمان؟

أسقطت يديها في حجرها:

- إنك تفهم الأمر برمته على نحو خاطئ.

ضغط بقوة عجلات السيارة للوقوف أمام مدرسة البنات وردّ عليها:

- هذا تأثير عمر فيكِ، أعرف ذلك. دعيني أقل لك شيئًا، أنا أفهم

أنك قطعت وعدًا لعمر بمتابعة تعليمك، لكنك قطعت وعدًا لي أيضًا. لست أنانيًا إلى درجة أن أطلب منك الاختيار بيني وبين شهادتك.

- ما الأمر إذًا؟

- أحبّ أن أشعر بأنني **أنا** مستقبلك لا مجرد عقبة في الطريق، أريد المزيد.

- مرّر سبّابته على طول حنكها:

- أفتقد الطريقة التي كنت تنظرين بها إليّ.

ركضت سلمى وفرح إلى السيارة، ولحقت أخوات مروان بهن. ممتنة من مقاطعتهن الحديث، حيّتهن نادية بحماس فوق العادة، ووجّهت لمروان ابتسامة اعتذارية مصطنعة. إنه على حق، إنها لم تعد تلك الفتاة الولهى التي كانتها من قبل؛ حالمة وساذجة. أصبحت الآن امرأة تحسب حساب الأشياء؛ امرأة حذرة. امرأة لا تتوفر على ملاذ آمن لأب أو شقيق عتيد تستند عليه. أما عمر فذهب، أرغم على الابتعاد بسبب افتراء شريف. هل سيعود عمر إلى سابق عهده معها عندما يرجع؟

لقد كان عمر محقًّا، إنها لم تكن جاهزة بعد لهذا. حاول أن يفتح لها عينيها قبل وقوع المشكلة، وحثّها على التفكير بمستقبل لا تعتمد فيه على رجل في حياتها. كان يدرك أنها بحاجة إلى أكثر مما يوفره لها مروان. تحسست الجناحين الفضيين فوق صدرها، متى سيعود عمر؟

بينما قاد مروان السيارة، انصرفت البنات إلى الغمغمة في الكرسي الخلفي، وشردت نادية إلى بعيد. لماذا عجز مروان عن التقاط ما رمت إليه بحديثها؟ لقد استبد بها الحنق لأنها اضطرت إلى شرح ما تعنيه كما لو كان أجنبيًا أو غريبًا. إنها، ورغم كل ما بذلته من جهد، لا تشعر بأن افتتانها الصبيانيّ المبكر بمروان نضج وتحول إلى رابطة عميقة مع هذا الرجل النبيل. تمكن من نيل احترامها وتقديرها دون شك، لكنها تتحول في حضوره إلى شخص بخيل عاطفيًا، تصد شيئًا ما في داخلها، شيئًا عزيزًا وخاصًا، فجًّا وصادقًا، شيئًا يحدد طبيعة المرأة التي تريد أن تكونها. كيف يمكنها أن تشرح ذلك له؟

استرقت نظرة نحو مروان، فوجدت وجهه مكفهرًا. بإمكانها لو شاءت أن تخضع لرغبته، وتدعه يأتي في عطلة نهاية الأسبوع، تسايره بقية اليوم ثم تسهر طيلة الليل للدراسة. هذا سيبدد غضبه، ولكن لماذا ينبغي عليها أن تفعل ذلك؟ إنها لن تكون هي، لن تكون هي بالمرة. ثم هل ستنتابه ولو ذرة من الشك؟ هل سيدرك تصنعها وتمثيلها عليه؟ عمر كان سيدرك وفي مثل لمح البصر.

عند وصوله إلى دمشق، راجع عمر مركز قيادته في الجيش فعلم بأن عليه الالتحاق خلال يومين بقاعدته الجديدة في حمص التي تبعد ثلاث ساعات

بالباص عن دمشق. لم يكن بمقدوره فعل أي شيء حيال ذلك، وكان عليه أن يقنع برؤية نادية والعائلة خلال عطلة نهاية الأسبوع مرة في الشهر. كانت محطته التالية محل مروان، أراد التأكد من أنه لم يخبر أحدًا بالمكان الذي كان فيه. كان في نيته أن يكون اللقاء سريعًا ؛ لأجل حبك قصة غيابه جيدًا قبل أن يرى الجميع وقبل أن يستسلم لما يشعر به من توق لأخبار نادية.

حال أن دخل المحل جذبه مروان واحتضنه:

- عدت بالسلامة.

دفع مروان نفسه إلى الوراء ثم تفحّصه بعينيه:

- أنت بخير؟ لا إصابات؟

بذل عمر مجهودًا صعبًا للسيطرة على مشاعره، إذ لم يتوقع مثل هذا الاستقبال الحار، والقلق الشديد من صديقه، ولم يعرف أيضًا لماذا تصور أن يكون استقبال صديقه الحميم أقل حرارة.

- أنا بخير.

أغلق مروان المحل، وقاد عمر إلى البقعة التي يحتلها مكتبه.

- لقد فعلتها! استعدت كرامتنا، أنت والفدائيون والأردنيون.

- ضربه على كتفه، وتعالت ضحكة مروان بلا تحفظ في أرجاء المحل:

- يا إلهي، فعلتموها بحق!

هزّ عمر رأسه:

- لم أفعل أي شيء، لم أكن هناك.

- بالتأكيد، ولكن من تتحدث معه هو أنا. التفاصيل؟

- إنني متأكد أنك سمعت تقارير الأنباء وهي كافيه. بصراحة، كنت أنتظر خروجي من هناك بفارغ الصبر.

فرك عنقه:

- آلت الأمور إلى حالة من الفوضى بسبب التوتر بين عرفات والملك حسين.

- ألم أقل لك؟ لن يقبل الأردنيون بنمو جيش فلسطيني فوق أراضيهم.

خبط عمر قبضته فوق المكتب:

- لم أدرب الفدائيين في ذلك المعسكر ليحولوا بنادقهم صوب إخوانهم الأردنيين. إنهم رجال طيبون، مقاتلون حقيقيون، لكنهم عالقون وسط صراع بغيض على السلطة بين الزعماء.

- الرئيس عبد الناصر يحاول بذل ما في وسعه لحل الخلاف بين الملك حسين وعرفات. أما وزير دفاعنا فليس مستعدا لزجّ السوريين في هذا الصراع المشين.

أخرج مروان صحفًا من درج المكتب، ونشرها فوق سطحه:

- الأسد على خلاف مع الشخصيات السياسية منذ هزيمة حرب الأيام الستة. إنهم يحاولون محاسبته، لكنه تصدى لهم، وأوقفهم على مسافة آمنة منه حتى الآن.

رفع مروان رأسه بسرعة:

- هل راجعت الجيش؟ أرجوك، قل لي إنك لن تتورط في هذه الفوضى.

- لست ضمن الوحدات القتالية، عيّنت للإشراف على التدريب العسكري في حمص.

- حاول أن تطلب الانتقال إلى دمشق بأسرع وقت ممكن.

ناوله مروان كوبًا من الماء:

- يا لها من أخبار سارة! أنت رجعت إلى هنا معافى وبصحة جيدة ولديك عمل.

أشرق وجه مروان بابتسامة عريضة وهو يتابع القول:

- وأنا ونادية سنتزوج.

# 30

بعد سنة، 1969

عند وصوله إلى حمص، بحث عمر عن غرفة للإيجار كي يسكن خارج معسكر التدريب. كان مكلفًا بالإشراف على التدريب الأساسي ويحق له ترك المعسكر عند سماح مناوباته بذلك، كما أن الحياة الطبيعية في المدينة راقت له. عثر على ضالته في الغرفة المفروشة فوق بيت أم جورج، فمدخلها المنفصل يوفّر له ما يكفي من الخصوصية، والإيجار يناسب ميزانيته الصغيرة. كان جلّ راتبه يذهب إلى ماما صبحية فشريف لم يرسل لها أبدًا أي نقود من الكويت. ورغم أن عمر كان لا يبقى في جيبه سوى النزر اليسير لتدبر أمر معيشته، إلا أنه لم يكن بحاجة إلى الكثير.

كانت غرفته مثل قطعة إسفنج عائمة فوق سطل من الماء، تمتص الضجيج المنبعث من أسفل الدرج وتفرض عليه حيوات لم تكن لديه رغبة في أن يكون جزءًا منها؛ تناهت إلى أسماعه الأحاديث الخاصة بين أم جورج وأولادها الستة فاكتشف أسرارًا أسوأ من أسراره. كانت صاحبة البيت تعد وليمة لأبنائها وعائلاتهم كل أحد، ودائمًا ما تلحّ عليه كي ينضم إليهم. خضع لرغبتها مرتين احترامًا، لكنه لم يرغب بالتطفل على العائلة، ولهذا كان يفضل البقاء في المعسكر في كل أيام الأحد التي تسنح له.

خلال تلك السنة، امتنع عن أخذ إجازاته الشهرية محاولًا الابتعاد عن نادية كي يصرفها عن تفكيره. لكن محاولاته تلك لم تنجز شيئا أكثر من إغضاب فاطمة فاضطر مع مرور الوقت إلى الذهاب إلى دمشق في إجازاته.

في زيارته الأولى، وصل عمر إلى بيت فاطمة دون أن يعلمها بمجيئه. تعلّقت أخته بعنقه مدة وكأنها الدهر، ثم جرّته إلى الداخل وهي تبكي وتضحك في آن واحد. جلس عمر ونطنط ابن أخته فوق ركبتيه:

- سامحيني، ولكن يجب أن تراقبي أكلك. إنك تكبرين... ولكن بالعرض.

انحنت فاطمة لتضع أمامه صينية فاكهة ثم اعتدلت بصعوبة وقالت موضحة:

- هذا لأنني حامل في الشهر الخامس.

هبّ على قدميه ممسكًا ابن أخته بإحكام بين ذراعيه:

- ليس من جديد؟

- الناس في العادة يقولون مبارك يا عمر.

أمسك يدها، وأجلسها برفق فوق الكنبة:

- آسف، أنا قلق عليك. أليس هذا مبكرًا جدًا؟

- سنتان فرق جيد في العمر بين الأطفال، الوقت ملائم للغاية. اجلس ولا تقلق، كل شيء سيسير على ما يرام.

رجع عمر إلى مقعده، لا تقلق؟ هل نسيت عذاب حملها الأول؟ أمصرّة هي على إقلاقه؟

قشّرت فاطمة برتقالًا:

- سافر شريف إلى الكويت فور تخرّجه.

- هذا ما كان مخططًا له.

لم تكن لديه أي رغبة في الحديث عن شريف أو معرفة مكانه. كان ابن أخته يجد ساعته مذهلة فتركه يلهو بها بأصابعه السمينة.

- هذا صحيح، لكنه لم يأخذ سميرة معه.

- استخراج تأشيرة لها يستغرق بعض الوقت، لا بد وأن شريف يعمل على ذلك.

- أخشى أن هذا لن يحدث.

أخذت فاطمة ابنها من حضنه وناولته برتقالة مقشورة:

- لقد طلّقها شريف.

غصّ بقطعة من البرتقال فسالت قطرات العصير من ذقنه:

- متى؟

- مباشرة قبل سفره، فيما يبدو. استلمت سميرة ورقة الطلاق من المحكمة بعد أسبوعين على رحيله.

حملت فاطمة ابنها وتوجهت إلى ملعبه المسورفي زاوية من الغرفة لتضعه فيه وهي تقول:

- حاول إخوانها مراجعة وليد في الأمر، ظنًا منهم بأن له كلمة مسموعة لدى شريف. يريدون من شريف أن يردّ سميرة قبل أن يصبح الطلاق نهائيًا.

- ماذا قال شريف؟

- قال لوليد ألا يتصل به مرة أخرى.

رجعت فاطمة إلى مقعدها:

- شريف لم يسدد مهر سميرة المؤجّل.

منع عمر نفسه من السباب:

- إذا لجأ أهلها إلى القضاء، سيعتقل لحظة رجوعه.

- طلب وليد من إخوتها منحنا بعض الوقت كي نتدبر الأمر، لا أدري ما الذي يدور في خلده.

- سأتكلم معه.

اللعنة على شريف، دعه ليقبض عليه ويتعفّن في السجن. لم يتحدثان عنه؟ نادية، ما أخبار نادية؟ لم يستطع حمل نفسه على السؤال عنها.

- إنني غير قادرة على منع نفسي من الشعور بالأسف تجاه سميرة. إنها قطعًا تستحق العقاب على محاولتها تدمير حياة نادية، لكن ما فعله شريف ليس صائبًا.

- لقد جلبته على نفسها، والطلاق جائز شرعًا.

- بلى، ولكنه مع ذلك لم يكن صائبًا. يجب أن يكون للمرأة رأي في الأمر، لا أن تنبذ هكذا دون علم منها.

- ما الذي يحملك على الاعتقاد بأنها لم تكن على علم بالأمر؟

هزّت فاطمة كتفيها:

- شريف أنانيّ للغاية، أعتقد أنه لا يرغب في إزعاج نفسه بزوجة في حياته الجديدة في الكويت. أشك في أنه فعلها ثأرًا لشرف نادية.

اختار عمر تفاحة من الصينية وحاول أن يبدو سؤاله عابرًا:

- على ذكر نادية، كيف حالها؟

- إنني قلقة عليها، مروان صديقك الحميم ولكن أرجو أن تنصت لي بعقل مفتوح.

أصبح الاختباء خلف هيئة غير مبالية عسيرًا عليه للغاية، تفحّص التفاحة في يده متفاديًا النظر في عيني أخته كي لا تلاحظ ما في عينيه من شغف:

- ما الذي يجري؟

- سأدعها تخبرك بنفسها، ولكني لا أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام. أتعلم أن مروان تقليدي للغاية.

- وهذا مشكلة؟

- الأمور الصغيرة مهمة يا عمر.

- مثل ماذا؟

- مروان يصرّ يوميًا على أخذ نادية بالسيارة إلى محاضراتها ذهابًا وإيابًا، كأنها تلميذة مدرسة لا طالبة جامعية. كما يريد أيضًا معرفة أين تكون وفي جميع الأوقات.

فرطت فاطمة حفنة من حبّات العنب، ووضعتها في صحنه:

- نحن لم نضطر أبدًا في حياة العم مصطفى إلى طلب إذنه للذهاب مثلًا إلى السوق أو للخروج برفقة صديقاتنا. أتدري؟ ليس على ذلك النحو، من الصعب على نادية تقبّل أساليب مروان التحكميّة.

مالت واقتربت منه وقد خفضت صوتها:

- لا ينبغي لي أن أخبرك بهذا ولكني لا أعتقد أن نادية ستقول لك شيئًا عنه.

رمت بنظرة خاطفة صوب طفلها، وكأنها تتأكد من عدم سماعه ما ستقوله:

- نادية تحاول جاهدة ألا تكون مع مروان بمفردها، أتعرف ما يعنيه هذا؟

اعتُصرت أحشاؤه مثل قميص مغسول على وشك النشر فوق حبل غسيل، هزّ رأسه:

- إنني أعرف صديقي جيدًا، مروان لن يحاول أبدًا فعل أي شيء غير محترم.

أرجعت فاطمة ظهرها إلى الوراء وابتسامة منتشية فوق وجهها:

- بالضبط.

- لم نعد على موجة واحدة، لا أفهم.

- أكاد لا أصدق بأن عليّ شرح ذلك لك. اسمع، إن كانت المرأة تشعر بانجذاب حقيقي نحو خطيبها، فستمنحه فرصة محاولة شيء معها، هل تفهم ما أعنيه؟

هبّ على قدميه وقد لفحته حرارة الغضب:

- إنهما مخطوبان وحسب، هل تشجعينها على فعل ما يجلب العار؟

- كلا، لا شيء من هذا القبيل. آه، يا لكم من مساكين! لا فكرة لديكم عن طبيعة النساء.

نظرت إليه فاطمة بدفء أم حنون:

- الأمور الصغيرة مهمة، تذكر هذا. تحب المرأة أن تعرف كم هي مرغوبة.

أمسكت يده وسحبته إلى مقعده:

- كيف يمكن لمروان قول أو فعل أي شيء للتعبير عن مشاعره إن كانا محاطين بالصغار طيلة الوقت؟ تجرجر نادية البنات معها كلما خرجا معًا، وهي تصرّ عليه كي يجلب أخواته معه في كلّ مرّة يأتي لزيارتها. وذاك الصبيّ، ابن ابن عمه؟ إنه لا يتزحزح من حضن مروان.

- ألسنة الناس طويلة ونادية تتصرف بحذر.

- بحذر مفرط، لقد سألتها. إنها لا تسمح له بمسك يدها، بمدّ ذراعه فوق كتفيها، أو حتى الاقتراب منها إلى حد الهمس في أذنها أو... أو إلى أي شيء من هذا القبيل.

مالت فاطمة برأسها إلى جنب وضيّقت عينيها:

- تلك الأشياء الصغيرة التي تحاولون أنتم الرجال استراقها، لا تقل لي إنك لا تعرف ما الذي أتحدث عنه؟

حملق عمر في أخته وهو لا يصدق أنه يناقش أمورًا كهذه معها:

- أنا لا أعـ...

- لن أقول المزيد، إنني متأكدة أنك تفهم ما أعنيه.

كح كحة خفيفة لاخلاء حنجرته :

- نادية تعرف ما الذي تفعله.

- طلبت من مروان ألا يزورها إلا مساء كل خميس فقط متعذرة بالدراسة خلال الأسبوع. لا أعتقد أنها تتلهف على زياراته.

هزّت فاطمة رأسها:

- لا تشعر بالانجذاب إليه، هذا ما أظنه. ليس على نحو انجذاب المرأة لمن سيصبح زوجها عما قريب، ثمة خلل ما بينهما. ربّتت فاطمة على ركبته:

- هذه الخطوبة لن تستمر، تذكر قولي هذا.

- من الأفضل أن نبقى بعيدين عن هذا الأمر، يستحسن بي الذهاب.

- عمر بكري، لن تذهب قبل وصول وليد.

كما لو أن كلمات فاطمة نطقها علاء الدين مستدعيًا جنيه، دخل وليد عليهم، وكان تفاجؤه وغبطته برؤية عمر أصيلًا ونابعًا من القلب.

أطفأت نادية تسع عشرة شمعة تتربع فوق كعكة عيد ميلادها محاولة مداراة خجلها لتهليل من هم حولها في ذلك المطعم الراقي. خرج مروان عن طوره لترتيب هذا الاحتفال فطلب الإذن من ماما كي يصحبها إلى هذا المكان دون مرافقة الصغار. ماما أرسلت هدى بدلًا منهم.

ما تشعر به نادية من توتر منعها من الاستمتاع بالكباب الكفتة، ولحم العجل الطري كالزبدة المشويّ فوق نار هادئة. لاحظ مروان فتورها فعكف على إطعامها لقمًا ملفوفة بالخبز وغارقة بعصير الطماطم. رغمًا عنها، كانت تنكمش في كل مرة يمدّ لها يده بالطعام فركلتها هدى من تحت الطاولة لتحثها على الاستجابة لمحاولات مروان في إثارة حماسها.

سعيدة بما كان يعنيه تقديم الحلوى من انتهاء تلك الوليمة الفخمة، استرخت معدة نادية إلى حد يسمح لها بالاستمتاع بالكعكة التي يزينها شريط كبير من الشكولاتة يتربع فوقها.

تركت هدى مقعدها:

- سأذهب إلى دورة المياه.

زفر مروان مبتسمًا:

- كنت أعرف أنها لن تتركنا بمفردنا أبدًا، فواظبت على ملء كوبها بالماء آملًا بامتلاء مثانتها عن قريب.

- إنك فظيع.

كانت نادية تعبث بمنديل ورقيّ، وشعرت على نحو ما بظُرف ما فعله. لكنّ حمله على اللجوء إلى ذلك التصرف لأجل جذب انتباهها بدد الابتسامة من وجهها. إنها هي الفظيعة وليس هو.

- ما الذي يزعجك يا نادية؟

هزّت رأسها:

- لا شيء.

لم تكذب، لا شيء يزعجها على وجه التحديد ولكنها **منزعجة**. لم تدرِ لماذا فمروان لم يترك أي مجال للانتقاد فيما تولى تدبيره بعناية. فكّر في كل تفصيلة صغيرة، وبدا وسيمًا جدًا في قميصه الأبيض وبنطاله الرماديّ. ما الذي يُعتِمُ ما يحيط بها في وضح هذا النهار ويمنعها من الاستمتاع بجهوده؟

وضع مروان أمامها صندوقًا ملفوفًا بورق أبيض ومربوطًا بشريط من الساتان الأحمر:

- عيد ميلاد سعيدًا.

تحسست الشريط بأصابعها:

- آه، لم أتوقع هذا! أعطيتني كثيرًا من الهدايا في البيت.

- تلك كانت لنيل رضا والدتك، أما هذه فآمل أن تنال أعجابك الشخصي.

قطب حاجبيه، واختطف نظرة صوب دورة المياه:

- ألا تفتحينها قبل عودة هدى؟

سحبت نادية الشريط، وفتحت الصندوق فرأت قلبًا ذهبيًا مرصعًا بماسات صغيرة يتربع فوق وسادة مخملية حمراء. رفعت التعليقة بأصابع يشوبها الخدر فتدلت سلسلة ذهبية فوق الطاولة:

- هذا كثير جدًا.

- إنه مجرد بديل بسيط لتلك الأجنحة الفضية التي تلبسينها طوال الوقت، ألا تعتقدين ذلك؟

طارت يدها الأخرى صوب عنقها:

- هذه من عمر.

- يجب أن تزين امرأة في مثل جمالك بالذهب.

أخذ مروان السلسلة من يدها، ثم نهض ووقف خلفها:

- أتسمحين لي؟

تشبّثت بجناحيها وتجمّدت في مكانها. اكتسحتها موجة من المشاعر المختلطة: الإحراج، الاستنكار، العجز وأخيرًا الغضب. كيف يجرؤ على إزالة الصلة التي تربطها بعمر؟

- إحم!

تنحنحت هدى، فلفّت نادية رأسها بسرعة لترى أختها تقبض على يد مروان:

- إننا وسط الناس يا مروان، أمر شخصيّ كهذا لا ينبغي القيام به هنا.

احمرّ وجهه، وغمغم موافقًا ثم عاد إلى مقعده.

وضعت هدى التعليقة في صندوقها:

- إنها قطعة أخّاذة، ذوقك رفيع.

نهضت نادية بتصلّب وبلا لياقة:

- سأغسل يديّ.

ابتعدت عن الطاولة قبل أن يتمكن مروان من قول أي شيء. يجب أن تشكر هدى على تدخلها، سواء كان ما استخدمته من عذر في إيقاف مروان حقيقيًا أو مصطنعًا. أنقذتها أختها من التسبب في فضيحة وسط ذلك المكان المزدحم. أوشكت على التعثر من فرط عجلتها فكادت تركض لتختبئ في دورة المياه. أصبح ذلك الشيء المجهول الذي كان يُعتِم ما يحيط بها أثناء الطعام ماثلًا نصب عينيها كشعلة متوهجة. إنها متعلّقة بجناحيّ عمر الفضيين أكثر بكثير من قلب مروان الذهبيّ المطعّم بالألماس.

# 31

بعد سنة، 1970

رمى عمر بنفسه فوق السرير، هبط بوجهه فوق الوسادة، وترك الإرهاق يستولي على أطرافه بالكامل. لكن ضجيج الطابق السفلي الذي ينفد من حيطان غرفته الرقيقة منعه من الانزلاق في النوم.

انقلب على جنبه راكلًا حذاءه العسكريّ، وتفحّص الرزنامة فوق الحائط قرب سريره. أربعة أيام أخرى على موعد إجازته، أربعة أيام أخرى على رؤية نادية من جديد. أربعة أيام أخرى، ثلاث ساعات في باص مزدحم، وليلة طويلة مؤرقة قبل أن يتمكن من قضاء ساعتين بحضورها.

كان عمرعند أخذ إجازاته يلحق بآخر الباصات المتجهة إلى دمشق في يوم خميس، ثم يصل بيت فاطمة في وقت متأخر ويخرّ صريعًا فوق سرير في غرفة ابنها. أما الساعات القليلة التي تتاح له فيها رؤية نادية في اليوم التالي، وقبل ركوب الباص الذي يخضّه خضًّا خلال رحلة العودة، فلم تكن غير محض عذاب حتى الآن. محاطاً بجميع أفراد العائلة حول غداء الجمعة في بيت ماما صبحية، كان بالكاد يسترق كلمة أو كلمتين مع نادية. أما مروان فكان يحوم فوق الطاولة، تصرفاته رقيقة ومهذبة لكنّ عينيه شرستان وتمتلئان بكبرياء التملّك. فعلت رؤيته إلى جنب نادية الأفاعيل بعقله، شوّهت ما كان يعتزّ به من صداقة، وأرغمته على قضاء ذلك الوقت الثمين بالصكّ على أسنانه رفضًا لتقبّل وجود مروان.

انطبق جفناه واحتجزا خلفهما محيط غرفته المتواضع، فاطمة كانت مخطئة فالخطوبة استمرت لسنتين حتى الآن وما زال العدّ قائمًا. واضعًا نصب عينيه تحليلها لعلاقة الاثنين، خرج عن طوره ليظلّ على مسافة من نادية محاذرًا التلفّظ بكلمة أو الإتيان بحركة من شأنها أن تسبب احتكاكًا بين نادية ومروان. ولكنه كلما رأى نادية، لوقت قصير ودون انفراد، كانت تبدو كئيبة وتزداد كآبة.

علا زعيق طفل من الأسفل ففتح عينيه بفزع، ماذا لو كان تقييم فاطمة صحيحًا؟ وماذا لو كانت نادية تريد منه التدخل نيابة عنها ؛ لأنها تخشى اتخاذ قرار حرصًا على مشاعره؟ فمروان في نهاية المطاف صديقه الحميم.

اعتدل جالسًا فوق السرير، كان يغلب على نادية الانطواء والشرود في كل مرة يزورهم فيها. هل كانت تأمل في التقاطه ما وراء تصرفاتها المثبطة؟ هل كانت تعطيه إشارة؟ هل كان بتلك البلادة؟ لقد كانت نادية معتادة على الإفضاء له بما يعتمل في نفسها ولكنه لم يعطها أيّ فرصة. لم يرها وهي تغرق لأنه كان مستغرقًا في ذاته ومنغمسًا في الشفقة على نفسه.

قفز من فوق السرير وذرع الغرفة من الحائط إلى الحائط. يجب أن يعثر على طريقة تمكنه من الحديث معها على انفراد في زيارته المقبلة، عليه أن يتأكد إن كانت بخير. سحقًا! لقد فعل ما فعله لأجلها حتى تكون سعيدة لا لتكون بخير فقط.

اخترقت حيطان غرفته جلبة عالية وصراخ، جذب مسدسه دون تفكير وهبط الدرج راكضًا. أيا كان من أرعب عائلة أم جورج فإنه سيلقى على يديه ما يستحقه. اقتحم الباب الأمامي واندفع بوضعيّة قتالية تامة:

- أهو لصّ؟ أما زال في البيت؟

اعترض جورج طريقه:

- لا شيء من هذا القبيل. لكن، وبحق المسيح، الأمر أفظع من ذلك بكثير.

طرفت عينا عمر، خبأ مسدسه وراء ظهره وتملّى في المشهد من حوله. كان جميع من في الغرفة يبكون وأم جورج تنوح في الزاوية.

- ماذا جرى؟

- توفي جمال عبد الناصر.

مجرجرًا قدميه في وقت متأخر من ليلة الخميس، حاول عمر عدم التخبيط بكعب حذائه العسكري الثقيل خوفًا من إيقاظ صاحبة البيت. قبل أن يبلغ غرفته، فتح باب الطابق السفليّ.

- أيها الملازم؟

مال فوق الدربزين:

- آسف على إيقاظك يا أم جورج، سأحاول الانتباه أكثر في المرة المقبلة.

لوّحت بيديها:

- انزل، أرجوك. أريد أن أكلمك.

صكّ عمر أسنانه، كان ميتًا من التعب، ومن المفترض أن يكون الآن في الباص متجهًا إلى البيت في دمشق. لكن اللواء المسؤول عن وحدته قام بزيارة تفقدية مفاجئة صباح اليوم فاضطر عمر إلى إلغاء إجازته المقررة. كان ثمة ما يغلي داخل صفوف الرتب العالية، فقد وضع المعسكر في حالة التأهب القصوى وهيمن الإحباط والتوتر على كل مكان ذهب إليه. وفاة عبد الناصر صدمت الجميع

بقوة، حتى من لم يقبلوا بسياساته. أما عمر فشعر باليتم ثانية.

هبط الدرج مقرًّا بينه وبين نفسه بعقم محاولة توضيح ذلك للمرأة الكبيرة في السن:

- بماذا أستطيع مساعدتك؟

جذبت أم جورج ذراعه وسحبته قريبًا منها:

- أيها الملازم، عشت هنا وقتًا كافيًا لتعرف أي صنف من العائلات نكون.

رجعت إلى الوراء وضربت الأرض برجلها:

- لن أتهاون مع أي فعل مشين.

- ما الذي يضايقك يا أم جورج؟

- زوارك في هذه الساعة المتأخرة.

- أيّ زوار؟

أشار فوق رأسه:

- هل مرّ أحد لزيارتي؟

- لن أسمح بهذا، أقسم بمريم العذراء هذا بيت محترم.

- ما الذي تتكلمين عنه؟

خطت أم جورج إلى داخل بيتها وأشارت له بالدخول:

- ادخل، وفسّر لي صنيعك هذا.

عبر إلى البهو ثم تجمد في مكانه كالأموات.

كانت نادية تقف برعب وسط غرفة الجلوس وهي تعصر يديها ثم تقدمت نحوه ورمت نفسها بين ذراعيه:

- آه، عمر! الحمد الله. خفت أن أكون قد وصلت إلى البيت الخطأ.

متجمدًا من الخوف، اعتصرها في صدره:

- هل فاطمة بخير؟

صوت نادية كان مكتومًا مرتجفًا:

- إنها بخير.

- ماما صبحية؟ البنات؟

- الجميع بخير.

تنحنحت أم جورج.

أمسك بكتفي نادية، وأبعدها برقة عن صدره:

- ماذا جرى؟ كيف وصلت إلى هنا؟

- جئت بالباص.

ألقت نظرة خاطفة تجاه أم جورج:

- يجب أن أتكلم معك.

تركها تبتعد:

- هل تعرف ماما صبحية بوجودك هنا؟

هزّت نادية رأسها.

- هدى؟ مروان؟

ظلت تهزّ رأسها وتردّ بمزيد من الدموع.

- نادية، كيف تفعلين هذا؟ لا بد وأنهم جنّوا عليك من القلق.

- لا... لا أستطيع التفسير، فقط احتجت إلى رؤيتك.

طوت أم جورج ذراعيها فوق صدرها:

- أطالبك الآن بتفسير أيها الملازم. قلت لي إنك وحيد ليس لك سوى أخت أكبر منك وأنت غير متزوج أو خاطب، ما صلتك بهذه الفتاة؟

ردت عليها نادية:

- قلت لك إننا نشأنا وتربينا معًا.

دفع عمر نادية خلفه، وواجه صاحبة البيت:

- خلال السنتين اللتين عشت فيهما هنا، هل تسببت في إثارة أي مشاكل؟

- يتوجب عليّ القول أبدًا. طيلة تلك المدة، برهنت على حسن تربيتك، ولهذا أنا منزعجة أيها الملازم. لم أتوقع أمرًا كهذا منك، وأكره أن أكون مخطئة.

- لست مخطئة، أُمّ نادية ربّتني منذ ولادتي. إنني أعتبر ماما صبحية أمًّا لي كذلك.

كان عليه أن يصوغ كلامه بتلك الطريقة فهو لا يستطيع حمل نفسه على التلفظ بكلمة **أخت**. لاحظ أن نادية لم تقلها أيضًا.

- إن سمحتِ لي باستخدام هاتفك كي أتصل بالبيت، وأطمئنهم على نادية فسوف تسمعين هذا الكلام بنفسك من ماما صبحية.

ظلّت أم جورج واقفة بتحد لغمضة عين، ثم تبددت ملامحها المتشككة ورفعت يديها في الهواء:

- آه، على من أتحامق! إنني أعرف أنك لست من صنف هؤلاء الرجال أيها الملازم. ربيت ستة رجال بنفسي وأحب أن أعتقد بأني ماهرة في قراءة الناس جيدًا.

أمسكت يدي نادية، وسحبتها إلى كرسي:

- يجب أن ترتاحي يا عزيزتي، منظرك يوحي بأنك على وشك الإغماء، سأعدّ لك لقمة كي تأكليها.

قبل أن تتجه إلى المطبخ، أشارت بيدها لعمر:

- اتصل بمن تريد أيها الملازم لا تقلق بشأني.

اتصل عمر بالبيت ولأول مرة في حياته يرتاح لسماع صوت هدى. تركها تغلي وتزبد لدقيقة ثم اقترح عليها أن تبلّغ ماما صبحية بطريقتها الخاصة، وتخفف من وقع الخبر عليها. كانت مكالمته الثانية لمروان.

- إنني لا أستوعب، لماذا لم تخبرني نادية؟

كانت نبرة مروان هادئة، فشعر عمر بالامتنان من المجهود الأكيد الذي بذله في الحديث معه على ذلك النحو.

- لم تسنح لي بعد فرصة معرفة ما يجري، أردت إعلامك بأنها هنا وأنها بخير.

- لو قالت لي إنها تريد رؤيتك، لكنت أخذتها بسيارتي. عوض ذلك، استقلت الباص ليلًا وبمفردها؟ لماذا؟

حوّل عمر بصره صوب نادية:

- هل نشب عراك بينكما؟

- هذا تصرف أخرق، دعني أكلمها.

غطّى عمر السماعة بكفه ليحول دون التقاطها أي صوت بوضوح، وأشار بها صوب نادية فهزّت رأسها.

أعاد السماعة إلى أذنه:

- ربما ينبغي أن تنتظر يا مروان. الوقت متأخر، وأنا مضطر لمعرفة بعض الأمور. سأتصل بك في الغد.

- إن انطلقتُ الآن، فسأكون عندك قبل بزوغ الفجر.

- لا تفعل. آسف يا صاحبي، دعني أتدبر الأمر من هنا.

سمع مروان يتنفس عبر الهاتف بضع مرات، حتمًا كان يجاهد نفسه في الحفاظ على تماسكه.

- هذا لا يجوز يا عمر. إنه سيثير المتاعب، أنت تعرف ذلك.

- اكتم الأمر، أرجوك. هدى ستعمل على ذلك من طرفها. سأهاتفك في الغد.

قرص قصبة أنفه منهيًا المكالمة، وشتم في سرّه. لقد أبدى مروان قدرًا عظيمًا من ضبط النفس بقمع طبيعته التقليدية العميقة. إنه يستحق معاملة أفضل، لا بد وأن نادية قد دفعته إلى أقصى درجات التحمل بتصرفها الطائش. لكن لماذا أقدمت على ذلك؟

خاطبته نادية قائلة:

- إنّ ما فعلته كان غلطة، يجب أن أرجع.

- كيف؟ ليس من باصات في هذا الوقت المتأخر. ولا يمكن أيضًا أن أرسلك وحيدة في سيارة أجرة في منتصف الليل، فأنا لا أستطيع الذهاب معك لأنني يجب أن أكون على رأس عملي في الصباح. بمقدوري أن ألاحظ أيضًا أنك لا تتقبلين فكرة مجيء مروان إلى هنا.

فرك عينيه المتعبتين:

- فقط قولي لي ماذا تتوقعين مني أن أفعل؟

وضعت أم جورج صينية عليها أطباق من الجبن والخيار فوق طاولة الطعام:

- هيا تعالي وكلي شيئًا.

لم تتحرك نادية، بدت وكأنها ستنهار في أي لحظة. أمسكها عمر من مرفقها وقادها إلى أحد كراسي المائدة:

- سأقضي الليلة في المعسكر، بمقدورك أن تنامي في غرفتي. هل في هذا أي مشكلة يا أم جورج؟

- يمكنها أن تمكث معي هنا، لكن ينبغي أن تعرف بأنهم قد يستدعونني في أي لحظة لأجل زوجة جورج.

أقحمت أم جورج لقمة خبز وجبن في وجه نادية مرغمة إياها على فتح فمها والتقامها:

- إنها توشك على الوضع وإذا اتصل جورج فيجب أن أهرع إلى هناك.

- سأحاول الحصول على إذن مغادرة طارئ، ولكنني لا أعرف متى سيصدرونه أوإن كانوا سيوافقون عليه أصلًا. ليس صائبًا أن تكون نادية في بيتك وأنت لست فيه.

همست نادية:

- لا أحتاج إلى مربية أطفال.

- يفد زوار على أم جورج في جميع الأوقات، لا أريد لأحد منهم أن يأتي إلى هنا ثم يبدأ بطرح الأسئلة والقفز إلى استنتاجات لا لزوم لها.

- أنت محق، من الأفضل أن تأخذ غرفتك، لن يزعجها أحد هناك.

أقحمت أم جورج مزيدًا من الطعام في فمّ نادية:

- لا تقلقي يا عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام. مهما كانت المشكلة التي دفعتك إلى المجيء هنا، فإنها ستحلّ قطعًا في الصباح.

رفعت عينيها إلى عمر الذي كان ما يزال واقفًا بجانب نادية:

- صحيح أيها الملازم؟

كاد يوشك على التبسم فالمرأة لم تخاطبه أبدًا باسمه.

- أجل.

أشاحت نادية وجهها عن يد أم جورج الممدودة:

- أرجوك، لا طاقة لي على المزيد.

أم جورج اصطحبته ونادية إلى الباب:

- خذها إلى الغرفة وهيئ لها أمر المبيت. مرّ عليّ قبل خروجك، سأبقي الباب مفتوحًا.

أمسك عمر بذراع نادية وقادها لصعود الدرج. لفتهما تلك الليلة غير المقمرة بظلامها فازدادت كآبة الجوّ. هذه الفتاة القانطة إلى جنبه ليست بناديته، ناديته المرحة التي يتنطنط شعرها هنا وهناك مثل ذيل الفرس. فليسامحه الله إن اكتشف أن مروان هو المسؤول عن هذا التحول، صديق حميم أم لا، سيدقّ عنقه دقًّا.

كانت أكمامها القصيرة تنكشف عن نعومة بضّة فقاوم رغبة جارفة بتحسس دفء بشرتها. وكلما صعدا درجة، كان طرف فستانها يضرب ركبتيه فيخفق قلبه بنبض متسارع، وما يفوح منها من عبير الزهور يكتسح شطآنه ويغمرها بالنسيم العليل. حبس أنفاسه حتى أعلى الدرج، وهناك تركها وفتح الباب.

أصدرت نادية صوتًا ما بين تنهيدة وسعلة خفيفة.

- هل أنت مريضة؟ أتحتاجين طبيبًا؟

- أحتاج إلى النوم فقط.

تاركًا الباب مفتوحًا من وراءهما، قادها إلى داخل الغرفة وأشعل النور. كانت بعض قطع ثيابه مبعثرة فوق سريره، لمّها ورماها في سلة الغسيل ملتقطًا جوربين مرميين على الأرض.

- لا أملك أغطية إضافية للسرير، استخدمت هذه ليومين. أم جورج يمكنها أن تعيرنـ...

- لا بأس بها يا عمر، لا تتعب نفسك.

أخرج منشفة نظيفة من خزانته ووضعها فوق كرسيّ:

- هناك أقراص صابون جديدة أسفل المغسلة في الحمام وفراشي أسنان غير مستعملة في خزانة الأدوية، أبقيها حين آتي لزيارتكم، استعملي منها ما تشائين. هل تحتاجين أي شيء آخر؟

تسللت أصابع نادية إلى قبّتها:

- ما أرتديه للنوم؟ لم أجلب أي شيء معي.

متداريان تحت قبة فستانها، صار جناحاها الملائكيان مشرعين الآن أمام ناظريه، التقطا انتباهه مثل مغناطيس. تركت تعليقتها الفضية تهبط على صدرها فوق قماش فستانها الناعم فخفق الجناحان صعودًا وهبوطًا مع أنفاسها

المتلاحقة. تصدّعت أحشاؤه وكأن أحدهم لكمه في بطنه، ثم أقحم عينيه أرضًا خجلًا من النظرة التي مسح بها محيط تكورها بالكامل. استدار صوب الخزانة ثم سحب قميصًا نظيفًا ووضعه فوق السرير.

- يمكنك استخدام هذا، أم هل أطلب من أم جورج رداءا للنوم؟

- هذا القميص كاف.

توجه صوب الباب:

- أوصدي الباب بالمفتاح، سأعود غدًا حالما أستطيع. المفاتيح هنا فوق الطاولة.

# 32

أسندت نادية ظهرها إلى الباب وتركت التوتر يهبط من جسدها متشاغلة عنه بتملّي ما يحيط بها. بدت الغرفة صغيرة على رجل مثل عمر. تحت النافذة، كان سريره يحتل الحائط المواجه لها، خزانة ثياب وأخرى أصغر منها للكتب تغطي الحائط الأيسر، مغسلة، ثلاجة صغيرة وباب الحمام على طول الحائط الأيمن. وسط الغرفة مزدحم بطاولة صغيرة فوقها صحف وكرسي خشبي.

كرسي واحد؟ أين يجلس أصدقاؤه عند زيارته؟ لا بد أنه لا يستقبل أحدًا هنا، هل هو وحيد؟ إنها ورغم وجود عائلتها بالكامل من حولها، تشعر بالوحدة لأن عمر ليس بقربها. لو تمكنت من حمل نفسها على قول ذلك غدًا، هل سيفهم ذلك؟

ارتجفت رجلاها فأخذت نفسًا مهدئًا، ما الذي فعلته؟ إنها في غرفة عمر وتوشك على النوم في سريره. عندما تركت الحرم الجامعي، وركبت الباص لم تفكر فيما هو أبعد من ذلك. إنها لم تره قطّ يتصرف بهذا الجفاف والتحفظ. كلّ ما كانت تريده هو أن تسمعه يقول لها إن كل شيء سيكون على ما يرام.

لفتت انتباهها الرزنامة المعلقة على الحائط ، فتركت الباب ومضت نحوها. كانت عطلة نهاية أسبوع قد علّمت بكلمة: «**وطن**»، وفي خانة السادس من الشهر رقم سُجّل بحبر أحمر. قلّبت الأشهر الماضية وتفحّصتها، هناك أرقام تحتل خانات السادس من كل شهر وهي تشير إلى تصاعد في العدّ، ما الأمر المهم الخاص بالسادس من الشهر؟

أعادت تعليق الرزنامة وفتحت خزانته، مرّرت يدها فوق قمصانه المعلقة، قليلة لكنها في غاية الترتيب. التقط أنفها نفحة من العطر، خليطًا من الليمون و شجرالأرز. إنها لم تشمّ هذا عليه من قبل، منذ متى بدأ في استخدام هذا العطر؟ ومن يكوي له قمصانه؟

تقهقرت إلى الوراء، وألقت بنفسها فوق السرير، يجب أن تخجل من نفسها لتلصصها على حاجياته. اتجهت إلى الحمام وغسلت وجهها ويديها مقاومة رغبة التلصص على أشيائه الشخصيّة في خزانة الأدوية الصغيرة. استعدت للنوم، فردت فستانها فوق الكرسي، ارتدت قميص عمر ثم أسرعت واندسّت تحت البطانية.

تكثّف عبير الأرز وأثرُ شيء آخر غير الليمون، شيء جسديّ وحادّ، تحت الأغطية. دفنت وجهها في الوسادة واستنشقت بعمق، فثارت رعشة سرت في جسدها حتى أخمص القدم. نامي، كانت بحاجة إلى النوم لإخماد يقظة حواسها والاستعداد لمواجهته في الصباح لتفسّر له ما أقدمت على فعله. أطفأت مصباح السرير، تمددت على ظهرها ثم حثّت عضلاتها على الاسترخاء.

هزّها بعنف خاطر صادم؛ مروان جلب موكبه من الرجال لطلب يدها في السادس من الشهر. تحسست ما حولها بارتباك كي تشعل النور ثم تناولت الرزنامة من جديد. الأرقام المسجلة بالأحمر تحصي ما مرّ من أيام على خطوبتها.

كانت الشمس تختبئ خلف غيوم داكنة كما لو أنها، هي الأخرى، ترهب مواجهة عمر. شاغلت نادية نفسها بترتيب السرير وتنظيف الحمام، وعندما انتهت ولم تجد ما تفعله صرفت الوقت في تأمّل كتبه. علاوة على مجموعة أدبية رصينة، كان هناك العديد من الكتب المنهجية المستعارة من مكتبة الجامعة، عناوينها تشير إلى موضوعات متعلقة بالقانون. شاغل نظرها كتاب بالٍ أسفل مجموعة من الكتب المرصوصة عاموديًا، سحبته فتفككت صفحاته وسقط العديد منها في حجرها. سارعت بارتباك إلى جمع الصفحات وترتيبها فسقطت عيناها على صورة عمر بين الأوراق المتناثرة، إنها بطاقة هوية مدنية تعرّفه باسم مغاير!

بلغها صوت خطى تقترب من الباب فضمّت صفحات الكتاب على عجل وأعادته إلى مكانه. تعالت طرقات عمر المتلاحقة فمهّدت مقدمة فستانها وفتحت الباب.

كان يوليها ظهره ويداه معقودتان إلى الخلف.

- عمر؟

استدار قليلًا كاشفًا عن جانب من وجهه ومبقيًا عينيه في الأرض:

- آمل ألا أكون قد بكّرت كثيرًا في الحضور.

- إنني جاهزة منذ شروق الشمس.

- حاولت الاتصال بأم جورج كي أبلغك بأنني في الطريق لكن لم يردّ عليّ أحد.

- سمعتها تترك البيت قرابة الرابعة فجرًا، أتريد الدخول؟

هزّ رأسه:

- إن كنت جاهزة فمن الأفضل أن ننطلق، إنها السابعة تقريبًا.

- هل سنتوجه إلى الباص مباشرة؟

أكمل استدارته وقابلها وجها لوجه، لم تكن من ابتسامة على محيّاه.

- سنناقش الأمور أولًا خلال طعام الافطار.

اصطحبها عمر إلى سيارة أجرة وجلس في المقعد الأمامي. متحدثًا عن الطقس مع السائق، لم يمنحها فرصة قول أيّ شيء. وصلا إلى مطعم مزدحم، وما إن دلفا داخله حتى هرع عجوز لتحية عمر ماطًّا شفتيه بابتسامة عريضة. أفسح الرجل لهما الطريق باتجاه طاولة قرب النافورة الداخلية فاصلًا الزحام بجسده.

- انظر إلى طابور كل هؤلاء المنتظرين! لا بد أنك تأتي إلى هنا كثيرًا لتنال هذه المعاملة الخاصة.

- إنه الزيّ العسكري، لم آت إلى هنا من قبل، أحد أصدقائي اقترح هذا المكان. آمل أن تكوني جائعة.

على ضوء ما كان يعتري معدتها من تشنج، استبعدت القدرة على إبقاء أيّ شيء ينزل إليها. ورغم معرفتها الأكيدة بذلك، أومأت له. قد يتوقف عن العبوس في وجهها حال أن يأكل.

وصل الطعام إلى الطاولة: ثلاثة أصناف من فتة الحمص، العديد من الأطباق الممتلئة بشطائر الجبن، الزيتون، البيض المقلي مع قطع السجق الأرمني وأوراق النعناع الطازجة والبصل المنقوعة في ماء مثلج. ناولها عمر رغيف خبز طازجًا خرج للتو من «الطابون» وانتظرها لتبدأ، غمّست الطعام لتحثه على البدء. أبقى عمر الطعام محورًا للحديث وتجنب الخوض في صلب الموضوع. جارته محتارة، لكن أعصابها بدأت بالاسترخاء مع كل لقمة هبطت في جوفها. استمتعت بتناول الوجبة وبحثت عن مواضيع أخرى للحديث عنها.

- لماذا لديك كتب منهجية مستعارة من مكتبة الجامعة؟

- سجلت للدراسة بالانتساب.

- أتستطيع فعل ذلك من هنا؟ ماذا عن حضور المحاضرات؟

- الدراسة بالانتساب لا تتطلب الحضور. يرسل لي أحد أصدقائي ما يدونه من ملاحظات أثناء المحاضرات وأقوم بتقديم الامتحانات في نهاية السنة.

وضع ملعقته وبدا مترددًا في قول المزيد.

حثته ليتابع الحديث:

- إذًا أنت تسعى وراء نيل شهادة في الحقوق؟

- ستكون مفيدة بعد صرفي من الخدمة. لا أنوي البقاء في الجيش، ليس من فرصة لشخص مثلي بالتدرج صوب الرتب العليا.

- شخص مثلك؟ ماذا تعني؟

- ليس عضوًا في حزب البعث الحاكم، **ثم** إنني فلسطيني.

- هل سيسمحون لك بترك الجيش؟

أبعد صحنه، ومسح فمه بمنديل ورقي.

- أستطيع تقديم استقالتي متى أشاء فأنا لم أتجند إجباريًا، لكن قبول استقالتي مرهون طبعًا بالمناخ السياسي. على أي حال، من المبكر جدًا التفكير في هذا الأمر لأنني أريد الحصول أولًا على الشهادة.

- دائمًا ما اعتقدت بأنك يجب أن تكون معلمًا، أتذكر؟

ارتسم تعبير مبهم فوق وجهه مخففًا من عبوسه المرعب.

- أذكر.

ألقمت فمها حبّة زيتون لتمنع نفسها من سؤاله عن الوثيقة الغريبة التي عثرت عليها في غرفته. من الأفضل لها ألا تفسد مزاجه الذي بدأ بالتحسن، إنها بحاجة إلى بقائه هادئًا.

جمع نادل الأطباق وجلب صينية القهوة.

ران على عمر الصمت، وراح يعبث بفتات الخبز من أمامه.

- ألن تسألني عما أفعله هنا يا عمر؟

- أظنّ أنك ستخبرينني حال استعدادك لذلك.

الآن وقد فتحت الموضوع لم تعد تعرف كيف تمضي فيه، تناولت رشفة من قهوتها ثم أتبعتها بأخرى.

- نادية؟

تذبذب صوته في عظامها.

- بصرف النظر عن أي شيء، يجب أن تعرف أنني حققت ما جئت لأجله إلى هنا.

حدّق فيها لثوانٍ عديدة.

- وهل يكون ذلك دفع خطيبك إلى شفير الهاوية؟

لم تشح بصرها عنه فلا مجال الآن للتراجع. بدأ الارتياح يعتريها مع كل نفس تطلقه، إنه يفهم الأمر، عمر يفهم كل شيء، إنه يعرفها جيدًا.

- كنت مضطرة إلى فعل ذلك.

- تريدين أن يفسخ مروان الخطوبة، أستوعب ذلك. لكن لماذا بحق الله يجب أن تكوني... تكونـ...

- حمقاء؟ طائشة؟

- قاسية إلى هذه الدرجة. اللعنة! إن مروان يستحق معاملة أفضل من هذه، **أنا** أستحق معاملة أفضل من هذه.

- أجل، أدري.

أبعدت عينيها والدموع توشك على إحراجهما في ذلك المكان المزدحم:

- لكن مروان ما كان ليتراجع أبدًا عن الكلمة التي قطعها لك، ما كان ليجرحك على هذا النحو. لقد كنت عالقة، فمهما قلت أو فعلت كان يجد دومًا طريقة لتقبل ذلك. وأنا بدوري لم أستطع تشويه سمعته برفض الزواج منه لأن رزقه يعتمد على حسن سمعته بين الناس.

وضعت يديها فوق الطاولة واقتربت بوجهها منه:

- ما الذي سيظنه الناس به عندما أرفضه بعد سنتين من الخطوبة؟ لم أستطع فعل ذلك. ليس بعد وقوفه في وجه عائلته وإخراس ألسنة الجميع لأجلي.

هزّت رأسها:

- يجب أن يأتي الأمر منه.

- ولهذا لجأت إلى استغلالي في تسديد طعنة له؟

- مروان لن يظنّ بك السوء.

- إنه رجل، مثله مثل أي رجل آخر.

نبض عِرقٌ نافر في صُدغ عمر الأيمن بنبر كلماته:

- دعيني أطلعك على أمر. أنا أيضًا رجل وأؤكد لك أن عقل مروان ذهب تمامًا إلى حيث ينبغي أن يذهب في وضع كهذا.

ارتجفت شفتها السفلى، فعضّت عليها:

- كلا، إنه... يثق بك. أظن أن ما فعلته يتجاوز قدرته على التحمل، والتصرف ضد طبيعته التقليدية، الآن وقد عرف أنني يمكن أن أكون بهذا الطيش.

أومأت مرة واحدة برأسها:

- في قرارة نفسه، سيتركني لأذهب في حال سبيلي.

مال عمر نحوها:

- لماذا لم تخبريني برغبتك في إنهاء الخطوبة؟ كان بإمكاني الاهتداء إلى طريقة دون المخاطرة بسمعتك.

- لا أحد يعرف بقضائي الليلة هنا سوى مروان، هدى وماما. أليس هذا صحيحًا؟

ضرب ضربة خفيفة على صدره ورجع بحركة خاطفة إلى الوراء:

- **أنا** أعرف، كيف تظنين أن بإمكاني... الخروج من هذه الفوضى التي تسببت بها؟ أنت لم تفكري جيدًا في هذا الأمر يا نادية، لم تفكري فيه جيدًا أبدًا.

لم تعد قادرة على منع دموعها من الانحدار فانهمرت مع كل كلمة نطقتها:

- ربما لم أفعل. كنت مختنقة، ولم يكن لدي من شخص ألتجئ إليه سواك.

ناولها منديلًا:

- أرجوك، لا تبكي.

مسحت وجهها وطالعت الزحام من حولها لترى إن كانت قد لفتت انتباه أحد. حمدًا لله على الطعام الطيب، كان رواد المطعم أكثر اهتمامًا بما في صحونهم على ما يجري من حولهم. دفنت وجهها في المنديل وحاولت استجماع رباطة جأشها، سمعت عمر يأخذ أنفاسًا عميقة محاولًا تهدئة نفسه:

- كل شيء سيكون على ما يرام يا نادية، أريدك أن تكوني سعيدة.

غمرها بالدفء ما تدفق من حنان في صوته، كانت تنتظر سماع تلك الكلمات منه. وضعت المنديل فوق الطاولة وقابلته بابتسامة مترددة.

نهض من كرسيه:

- هيا، سنستأنف حديثنا في الطريق إلى محطة الباص.

ظلت جالسة:

- ألن تسألني؟

عدّ الأوراق النقدية التي أخرجها من محفظته:

- عن ماذا؟

- اسألني متى أدركت أن مروان ليس بالرجل المناسب لي.

تجمدت يده:

- متى؟

- يوم غادرت.

هبط في كرسيه.

تابعت:

- في السادس من الشهر، نحو سنتين من الآن.

لفظ اسمها بأنفاسه، شفتاه تحركتا لكنّ صوتا لم ينبعث منهما.

- إنني أعرف أنك تفكّر بي كأخت، لكن يجب أن أقول لك إنني لا أعتقـ...

دفع يده بسرعة وقبض على يدها من فوق الطاولة:

- توقفي، فقط توقفي.

انقبضت عضلات حنكه بتوتر واضح، ثم سحب يده وأكمل تسديد الحساب، ونهض من جديد:

- سأبحث عن سيارة أجرة، قابليني في الخارج.

حال خروجه من باب المطعم، شهق عمر من فرط حاجته للهواء وراح يلهث منتظرًا أن يكف قلبه عن دكّ ضلوعه. كانت نادية توشك على قول ما كان دائمًا يودّ سماعه، لكنه كان يتخيل هذه اللحظة بشكل مختلف. كان يتصورها أن تكون حميمية وغير ملطخة بمشاعر الذنب. كان لا بد له من إيقافها، ماذا كان

بوسعه أن يفعل خلاف ذلك؟ قطعًا، نادية كبرت وباتت تمارس ألاعيب النساء، لكنه مبتدئ وغير ملمٍ بكل أصول اللعب.

جذبه أحدهم من ذراعه:

- كنت أعرف أني سأجدك هنا لأنك سألتني عن هذا المحل.

سحب ذراعه:

- حضرة القائد؟ ما الذي تفعله هنا، سيدي؟

- كارثة!

حاول قائده أن يحثه على السير بوضع يده على ظهره:

- كارثة لعينة!

ثبّت قدميه في الأرض ملتفتًا من فوق كتفه كي يرى نادية عند خروجها من المطعم:

- لقد وقّعت لي على إذن إجازة طارئة.

- صدقني، إنك لن ترغب الآن بأن تكون خارج القاعدة أيها الملازم.

قرّب القائد وجهه وهمس:

- وزير الدفاع يضمر شيئًا، فصيل حافظ الأسد العسكري يستولي على السلطة، وسنصبح من المغضوب عليهم لأننا لسنا عضوين في الحزب الحاكم.

أمسك عن الكلام ريثما ابتعد أحد المارة:

- يبدو أن هناك انقلابًا عسكريًا.

تجمّد عمر في مكانه:

- أين سينتهي بنا الأمر في ظل ذلك؟

- فوق الخازوق! وإن لم تحرك مؤخرتك وتذهب فورًا إلى القاعدة، سيكون في انتظارك خازوق أفحش. سيحمل توقيت إجازتك على محمل الشكّ.

- إنني في إجازة، سيدي، وهذا موثّق على الورق.

- إنهم يقبضون على جميع الرؤوس القيادية ومن هم تحت إمرتهم، مزّقت إذن إجازتك حالما سمعت الخبر. يجب أن تكون على رأس عملك قبل أن يلاحظوا غيابك، لا تدعهم يشكوا بأنك حُذّرت من طرف ما.

تفحّص عمر ساعته:

- هل لديك سيارة، سيدي؟

أشار قائده صوب سيارة عسكرية مركونة إلى زاوية الشارع:

- يمكننا أن نصل إلى القاعدة في خمس دقائق، توعّدت الجندي الذي يحرس البوابة، لن يتكلم.

لمست نادية كتفه:

- أنا جاهزة يا عمر.

استدار بسرعة خاطفة وجذب مرفقها ثم جرّها نحو السيارة العسكرية:

- يجب أن نمرّ على محطة الباصات المركزية أولًا.

متسلقًا نحو مقعد القيادة، رفع القائد حاجبيه صوب نادية:

- قلت لسيادة اللواء إنك تعاني من حالة إسهال شديد، حاول التظاهر بالمرض.

- أجل، سيدي.

ارتجف صوت نادية:

- ما الذي يجري؟

- ليس لدي وقت كي أشرح لك.

أخرج نقودًا من محفظته:

- سينطلق الباص بعد نصف ساعة، حال أن تصلي دمشق خذي سيارة أجرة. ينبغي أن تصلي البيت مع أذان الظهر.

قبضت على ذراعه:

- ألن تأتي معي؟

- لا أستطيع، وقع أمر مهول ولا بد لي من العودة إلى المعسكر.

شدّت على قبضتيها، وترقرت الدموع في عينيها الواسعتين اللتين صرختا بخيبة الأمل والخوف. ارتجف كتفاها الرقيقان ونبض عِرْقٌ في عنقها بجنون.

قاوم رغبة عارمة بضمها إلى صدره كي يطمئنها ويهدّئ من روعها:

- سآتي حالما أستطيع.

فكّ أصابعها التي تطبق على ذراعه، ودسّ النقود في يدها:

- سأتصل بمروان، وأوضح الأمر له.

علا زعيق محرك السيارة العسكرية لدى وقوفها بحدة أمام المحطة. وهي على أهبة الخروج، لمست نادية يده وأوقفته:

- لا داعي لنزولك، أعرف طريقي.

خرجت وصفقت الباب:

- اذهب، لا تضع وقتك بمتابعة أمري.

ضغط قائده بدالة السرعة إلى أقصاها، فارتطم عمر هبوطًا فوق مقعده من جديد. محتاجًا إلى تفريغ ما بداخله قبل انفجار ضلوعه، لطم قبضته بالباب الجانبي وأطلق سيلًا من السباب.

- من صاحبة الحسن؟

- أهل.

- فهمت.

نبرة قائده المتشككة كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير. زحف عمر إلى الأمام وقال متوعّدا:

- إنني مدين لك بما فعلته اليوم لأجلي. لكن وحتى تكون على بينة، قل أي شيء بحقها وستتمنى لو أنك لم تفعل.

رجع إلى الوراء مبقيًا عينيه في عيني الرجل. لم يكن تهديد قائده بالعمل السديد، لكنه لم يأبه في تلك اللحظة بذلك.

- ذاك الصنف من الأهل إذًا؟

- أجل، سيدي.

- لا عليك، كما أنك لست مدينًا لي بأي شيء. يجب أن يؤازر الرجال من أمثالنا الآن بعضهم بعضا. لقد ساندتني وكنت غطاء لي طيلة مرض زوجتي. دعنا نأمل أن نصل هناك قبل أن تبدأ الفأس بالضرب يمينًا وشمالًا.

# 33

سمعت نادية طرقًا على باب غرفة البنات فرفعت وجهها عن الوسادة المبللة بالدموع. خرج صوتها مبحوحًا واهنًا بسبب بكائها المتواصل:

- اتركيني لوحدي يا ماما.

- أنا فاطمة، دعيني أدخل. أستطيع مساعدتك.

- أرجوكِ، اذهبي.

- اتصل بي عمر، لدي رسالة لك.

مهرولة من فوق سريرها، فتحت الباب الموصد بالمفتاح:

- اتصل بك! متى؟

دخلت فاطمة، وأغلقت الباب خلفها:

- قبل نحو ساعة، إنه قلق عليك للغاية.

مسحت نادية وجنتيها براحتيها محاولة إظهار التماسك، لكن مما اعترى وجه فاطمة من إشفاق واضح أدركت أنها أخفقت.

- ماذا قال؟

- طلب مني أن اقابلك في محطة الباص، وأن ارافقك إلى البيت وكان مهتاجًا للغاية. آسفة جدًا، لكني لم أستطع تجهيز أطفالي في الموعد المحدد.

مسحت نادية أنفها بكمها غير عابئة بنظافة أو لياقة، ما اعترى نبرة فاطمة من عطف مبالغ فيه زادها حنقًا، لا بد وأنها تبدو بمقدار البؤس الذي تشعر به:

- كما ترين، إنني قادرة على ركوب سيارة أجرة بمفردي.

ردّت بحدة ونزق. إن كان الجميع يصرون على معاملتها كطفلة، فإنها والله، ستتصرف كواحدة.

أمسكتها فاطمة من يدها وجرّتها إلى أحد الأسرّة:

- لم يقصد عمر سوى ألا تصلي إلى البيت وحدك فتضطرين إلى مواجهة هدى بمفردك.

- هدى ليست في البيت.

- ماما صبحية قلقة جدًا، قالت لي إنك حبستِ نفسك هنا حال رجوعك ورفضت أن تكلميها.

ألقت نادية نظرة خاطفة صوب الباب:

- لم أقصد مضايقة ماما، أنا فقط... أنا... أنا لا أدري كيف أتكلم معها عما جرى.

- لا تقلقي، جلبت الصغار معي، سوف يشغلونها، ويجعلونها في حال أحسن. أريد أن أفهم ما يجري قبل عودة هدى إلى البيت.

لفّت فاطمة ساقًا فوق ساق ومالت برأسها إلى جنب:

- هدى لن تكون صبورة مثلي.

وعيد فاطمة المبطن قذف بنادية في نوبة لا إرادية من النشيج. غطّت وجهها بيديها الاثنتين، لماذا لا تستطيع كبح جماح نفسها؟ إنها لم تتوقف عن البكاء منذ أن تركها عمر في محطة الباصات في حمص.

- أخبريني يا حبيبتي، لماذا ذهبت لرؤية عمر؟

أسقطت يديها في حجرها، وهزّت كتفيها:

- غير مهم.

- أوه، بل هو مهم، وللغاية. مروان سيصل إلى هنا في أي لحظة، وأعتقد أنه لا بد أن يكون لديك رد أفضل من هذا.

- هل اتصلت به؟

- عمر فعل وطلب مني ألا أتركك وحدك عند قدوم مروان.

خفضت فاطمة صوتها:

- ماذا حصل؟

مشت نادية إلى النافذة. كانت تتصور أن يكون عمر بجانبها عند مواجهة مروان، لكن عمر انشغل بأمور أهم حتى إنه لم يمنحها فرصة لتوضيح الأمر. لقد أوقفها وقاطعها قبل أن تزري بنفسها أكثر. لكنه، على الأقل، أرسل لها حليفًا.

- قلت لعمر إني لا أريد الزواج من مروان.

- كان بإمكانك أن تخبريه عبر الهاتف أو بكتابة رسالة له.

انضمت فاطمة إليها عند النافذة:

- أعتقد أني أفهم سبب تصرفك على هذا النحو، لكن هل تفهّم أخي ذلك؟

- غضب، قال إني استخدمته لطعن صديقه في الظهر.

- كان بإمكانك أن تلجئي لي. كنت سأتفهم الأمر لأني توقعت حصوله.

- حقًا؟

أومأت فاطمة:

- قلت لعمر يوم عودته من مهمته السرية: هذا الغطاء ليس لهذه الطنجرة. أنت ومروان غير مناسبين لبعضكما.

أمسكت فاطمة بيدي نادية، وقربت وجهها منها:

- أعتقد أن عمر تألم من معرفة ذلك، كان يريدك أن تكوني سعيدة.

- أعطاني عمر ما طلبته، لكنني لم أكن أعرف حينها ما أريده.

دفنت وجهها بين كتفي فاطمة وأغرقت فستانها بموجة جديدة من الدموع:

- لماذا وافقني عمر؟

فرقعت خطى واثقة فوق بلاط الغرفة فشعرت نادية بتصلب جسم فاطمة.

أزّ صوت هدى الحادّ في الهواء مثل ضربة سوط:

- عمر سيفعل أي شيء لأجلك يا غبية.

رفعت نادية رأسها بفزع من أحضان فاطمة.

- أمّا إن كنتِ تستحقين ذلك أم لا، فتلك مسألة أخرى.

صفقت هدى الباب.

تركت فاطمة نادية:

- لماذا أنت بهذه القسوة؟

قلبت هدى عينيها:

- أوه، أرجوك. على الأقل، أنا صادقة ولا أتلاعب بالناس مثلما تفعل نادية.

- بذلت أقصى ما بوسعي لمواجهة المصيبة التي رماني بها أخي الجبان وزوجته الشريرة، لم أتلاعب بأحد.

- ماذا تصفين ما فعلته إذًا؟ قبلت بمروان ثم تركته معلقًا لسنتين، والآن تريدين نبذه، ورمي مشكلتك على عاتق عمر. كلاهما يستحق ما هو أفضل.

تقدمت هدى بخطى سريعة، ورفعت إصبعها في وجه نادية:

- كلاهما يستحق من هو أفضل **منك**.

ألقت نادية بنفسها فوق أقرب سرير، ودفنت وجهها في غطائه وهي مستسلمة بالكامل لبؤسها:

- هذا ما قاله عمر.

قالت فاطمة بنبرة غاضبة وحازمة:

- هدى، أرجوك. إنك تعقدين الوضع، ألا ترين حالتها؟ مروان سيصل قريبًا ولا بدّ لنا من وضع خطة لتهدئة الوضع لا تصعيده.

- حسنًا إذًا، هيا لنفعل.

رفعت هدى كتفي نادية، وأرغمتها لتقلب على ظهرها:

- هل تريدين الزواج من مروان؟

- لا.

- إذن قولي له ذلك مباشرة وفي وجهه.

دفعت فاطمة هدى برفق وأبعدتها عن نادية:

- لا يمكنها أن تفعل ذلك، يجب أن يأتي الأمر منه. يجب أن يكون مروان هو الطرف الذي ينهي الخطوبة. على الأقل، يجب أن يبدو الأمر كذلك أمام الجميع، لأجله هو.

سحبت هدى نفسًا طويلًا:

- هذا إذًا سبب ذهابك إلى عمر؟

أخذ صوتها بالارتفاع وهي تُردف :

- الأمر أسوأ مما ظننت، أتستخدمين عمر لإيذاء مروان؟ أليس من حدود لغبائك؟

دفعت نادية نفسها عن السرير:

- توقفي عن نعتي بالغباء. حاولت وبكل ما أسعفني به التفكير أن أظهر لمروان بأننا غير مناسبين لبعض، لكن دون جدوى.

- عوض ذلك، قررت تدمير عمر!

رمت هدى يديها في الهواء:

- إنك محقة. أنت لست غبية، إنك أنانية

جذبت فاطمة هدى من ذراعها:

- ماذا تقصدين بأنها دمّرت عمر؟

- لا تقولي لي إنك تجهلين طبيعة مشاعر أخيك تجاهها.

- طبعًا أعرف، لا يمكن ألا أرى ذلك إلا إن كنت عمياء. لكن هي من ليست لديها فكرة، ولو لم تقتحمي علينا الغرفة مثل عاصفة رعدية لكنت فتحت لها عينيها برفق.

خطت بينهما نادية:

- ما الذي تتحدثان عنه؟

- كان الأمر واضحًا مثل الشمس في رابعة النهار.

نقرت هدى صدر نادية:

- يوم قلت إنك تريدين مروان، انتزعت روح عمر من جسده.

- ماذا تقصدين؟

- عمر يحبك يا غبية.

طنّت تلك الكلمات في أذنيها، وأحرقت هبّة لافحة وجنتيها، كما لو أن هدى قذفت وجهها بكوب شاي ساخن. انثنت ركبتاها وهوت فوق السرير ثانية. لمست يدٌ كتفها، تحركت شفتا فاطمة، لكنها لم تسمع شيئا. طرقعت هدى بإصبعيها أمام ناظريها فحاولت التركيز. سمعت صوتها يقول:

- هذا غير ممكن!

- لم تظنين أن عمر لم يُقدم، ولو لمرة واحدة، على طلب الانتقال إلى هنا خلال السنتين الماضيتين؟

مهدت فاطمة شعرها: لأنه لم يستطع تحمل رؤيتك مع مروان.

تحسست ما خلفها، وزحفت فوق السرير إلى أن لمست حافة النافذة برأسها، كانت بحاجة إلى فسحة للتنفس والاستيعاب، تمتمت:

- إنه... إنه لم يأت أبدًا على ذكر أي شيء من هذا القبيل.

جلست فاطمة بجانبها:

- وكيف له أن يفعل؟ مروان صديقه الحميم وأنت بحاجة لمروان لإخراس الألسن.

انحنت هدى، ووضعت يديها فوق ركبتي نادية:

- إنك لم تتركي أي خيار لعمر سوى التنحي جانبًا.

تصدعت ضلوع نادية، وكاد قلبها أن يقفز هاربًا من صدرها، بدأ تنفسها يختلّ ويتسارع بشدة. مسح ذهنها السنوات الماضية وأعاد لعب شريط ما جرى بينها وبين عمر من أحداث. أبصرت مواقف كان يمكن أن تراها بصورة مغايرة لو كانت تدري بمشاعره؛ ما أبداه من صبر تجاه شريف حين طالبه بالقسم، تصرفه الغريب في المطبخ يوم أخبرها بمقاصد مروان، الطريقة العاطفية التي ودّعها بها يوم خطوبتها ورزنامته التي تحصي ما مرّ من أيام على ذلك. انهالت الذكريات عليها حتى كاد قلبها أن يتوقف. تحسست سلسلتهاوهمست:

- لماذا لم يخبرني أحد؟

- ساورتني الشكوك منذ أمد بعيد لكني لست صاحبة الشأن لأتفوه بشيء.

وضعت فاطمة يدها برفق فوق يدي نادية:

- لم يُفض لي ولا لوليد بأي شيء.

طوت هدى ذراعيها فوق صدرها:

- لا أظنه أفضى بما يعتمل في نفسه لأي أحد.

- من الممكن أن تكونا مخطئتين إذًا.

لا بد وأنهما كذلك فالحياة ليست بهذا الكرم. بعد أن أدركت عمق مشاعرها تجاه عمر استبعدت احتمال أن يكون لديه المشاعر نفسها تجاهها، إذ لا يمكن أن تكون محظوظة بهذا القدر، لا هي ولا غيرها.

- كيف يمكنكما أن تكونا متأكدتين إلى هذا الحد؟

ردت هدى:

- أوه، إنني متأكدة. مهما حاول وبذل من جهد، لم يستطع كبح مشاعره من

التوهج في عينيه كلما نظر إليك.

هزّت رأسها:

- صدقًا، كانت رؤية ذلك أمرًا محزنًا للغاية.

استرجعت نادية كيف كان عمر مضطربًا ليلة الأمس وكيف قاطعها في المطعم، فقفزت على قدميها قائلة:

- هل تعتقدان أن مروان يعرف؟

- سنعلم عما قريب.

توجهت هدى صوب الباب:

- سأرى ما في بال ماما قبل وصول مروان.

تعثرت نادية من خلفها:

- هل تعرف ماما بشأن عمر أيضًا ؟

- لقد كانت أول من لاحظ.

زحفت عقارب الساعة ببطء، وتصاعد ذهول نادية وشكّها في ذاتها مع كل ثانية مرت خلالها. دفعها ترقّب زيارة مروان إلى حافة الجنون. بقيت وحيدة في الغرفة عجزًا عن مواجهة أمها، تأرجحت أفكارها مثل البندول بين ما تشعر به من امتلاء ومتعة عندما تكون بصحبة عمر، وما تمضيه من وقت سقيم مع مروان. لماذا لم تبصر ما أبصره الجميع؟

مستشرفة إمكانيات مستقبل لها مع عمر، عمّها الارتياح مثل موجة محمّلة بالأمل والوعد. لم تستطع الجلوس لما في رأسها من دوران، ذرعت الغرفة جيئة وذهابًا وهي تكتم ضحكات مرتبكة وتبقي ابتهاجها حبيس صدرها. مروان، يجب أن تفكر في أمر مروان. هل تخبره بمشاعرها قبل أن تسنح له فرصة قول أي شيء، أم تتركه لإفراغ ما في صدره أولا؟

دقّ جرس الباب، سمعته يسلّم على الجميع في غرفة الجلوس. خللت أصابعها في شعرها المسدل بلا رباط ثم أخذت نفسًا عميقًا وخرجت.

وقف مروان قبالتها بهيئة متحفظة ومؤدبة:

- هل أنت بخير؟

أومأت، خانتها الشجاعة وربطت لسانها. جلست في مقعد مقابل له، ورمت نظرة اعتذار خاطفة صوب أمها التي كانت تجلس وحفيداها في حجرها. تفاجأت نادية عندما افترّت شفتا ماما عن ابتسامة رقيقة فاشتدت عزيمتها.

كان مروان يجلس على حافة الكنبة وهو يسند مرفقيه إلى ركبتيه:

- احترمت رغبة عمر وانتظرت حتى هذه اللحظة كي أتحدث معك، هلّا أخبرتني بما يجري؟

- ألم يوضح لك الأمر؟

- لم يقل عمر الكثير، لديه ما يكفيه من الهموم وما كان ينبغي لك إثقاله بمشاكلنا.

سألته ماما:

- ما بال عمر؟

بدا مروان متعجلًا:

- ألم تسمعي الأخبار؟ أطاح انقلاب عسكري بالحكومة، حافظ الأسد الآن في سدة الحكم.

تلقفت فاطمة طفلها الأصغر قبل سقوطه من يدي ماما:

- هل عمر في خطر؟

- لا ينبغي أن يتأثر وضعه كثيرًا، سيستبدل قادته على الأرجح بآخرين. سيعين الأسد أعضاء حزب البعث الموالين له في مواقع السلطة.

قالت نادية باندهاش:

- لهذا السبب لم يتمكن عمر من المجيء معي!

كم كانت عمياء وأنانية! إنها لم تشعر باضطرابه عندما أوصلها إلى محطة الباص، كانت مستغرقة في ورطتها. هدى على حق، لقد **كانت** أنانية.

- لن يتمكن عمر من مغادرة حمص لبعض الوقت، لن يأتي قبل أن تهدأ الأوضاع.

استأنف مروان حديثه موجّهًا كلامه إلى ماما:

- هل تأذنين لي بكلمة على انفراد مع نادية؟

أشارت ماما بيدها لهدى وفاطمة:

- هيا، دعونا نفسح لهما المجال للحديث.

ترددت فاطمة في اللحاق بماما محاولة الوفاء بوعدها لعمر بعدم ترك نادية لوحدها مع مروان.

- فاطمة، الأطفال بحاجة إلى تغيير.

لم تترك نبرة ماما مجالًا للمناكفة فامتثلت فاطمة.

حال أن أغلق باب غرفة ماما، فتح مروان النار على نادية:

- كيف تفعلين ذلك؟

حاولت نادية تغليف صوتها بنبرة من اللامبالاة؛ إن كان مروان يبحث عن طريقة لتقبل ما فعلته، فإنها سترغمه على عدم فعل ذلك:

- فعلت ماذا؟

- هل تدركين أن موقفك الآن سيئ للغاية؟

- بالنسبة لمن؟

- بالنسبة لي، سحقًا!

ظل صوته هادئًا، لكن وجهه امتقع:

- حسبتك تولينني اعتبارًا أفضل من هذا. إن اسمك مرتبط باسمي وما فعلته يؤثر في عائلتي.

- لكن عائلتك لا تعرف.

وضع يده على صدره:

- **أنا** أعرف، ذهبت إلى عمر من وراء ظهري وقضيت الليلة... خارج بيتك. ولا تحاولي التذرع بكلام فارغ من قبيل أنه **بمثابة** أخ لك فأنا أذكى من ذلك.

حدّقت فيه. إذًا هو يعرف بمشاعر عمر، ومثل الجميع، لم يقل شيئًا. هل كانت آخر من يعلم؟ استعرّت غضبًا، فربما أفرطت في تقدير ثقة مروان بعمر. قالت:

- لست جادًا في اتهامي وعمر بالسوء.

- لا تلحقي بي مثل هذه الإهانة.

أقحم مروان وجهه في وجهها:

- إنني أعرف عمر مثل معرفتي بكفّ يدي. كنت أحسب أني أعرفك أنت أيضًا، لكنك فاجأتني.

- ربما ما كان ينبغي لي أن أتصرف على هذا النحو المندفع، سأسلم لك بهذا. ولكني لا أفهم سرّ انزعاجك من هذا الأمر وتهويله.

خبط يديه على جنبيه:

- إن كنت لا تشعرين بعظم ما فعلته، فأنا أمام مشكلة **أعوص**.

أمسك كتفيها وليّن من صوته:

- سنتان، سنتان مضتا ولم تكتشفي بعد ما هو أهم شيء في حياتي؟

- عائلتك، طفل ابن عمك اليتيم، التزامك تجاه عمك، صديقـ...

- **أنتِ**.

اهتزت ذراعاه واندلعت كلماته مثل الحمم الحارقة:

- أنت أهم منهم جميعًا.

تشوّشت من سفور عواطفه وتركته يسحبها نحوه. في لحظة القرب تلك، تخلّقت ملامح وجهه من جديد؛ انفرجت زوايا حنكه القويّ وأخفت بشرته الحليقة حدّة ذكورته. ما الذي فعلته بهذا الرجل العتيد؟ رغم أنها حبيسة قبضته القوية، إلا أنها شعرت بقوة لم تعهدها من قبل. كانت سطوة الأنوثة تضعها في مقدمة أي شيء آخر في حياته. ازدردت ريقها بتلعثم.

ألصق جبينه بجبينها:

- دعينا نتزوج ونضع حدًّا لهذا الجنون.

اصطلى جلدها بسخونة جبين مروان ولفحت وجنتيها لظى أنفاسه الحارّة. تقبّضت معدتها مثلما يحدث معها كلما قَلَت ماما صبحية السمك في البيت. كانت دائمًا ما تستبد بها رغبة قاهرة بالهرب إلى الشارع، تملكتها الآن ذات الرغبة بالفرار. لم تتوقع هذا المنعطف، الأمور تسير في الاتجاه المعاكس لما تريده. لقد أخطأت في تقدير عمق مشاعر مروان تجاهها، وهذا بحدّ ذاته سبب أدعى لتركه، فهو يستحق من هي أفضل منها، يستحق امرأة أخرى تبادله القدر نفسه من الحبّ، إن لم يكن أكثر. امرأة نقية مخلصة له، أما هي فتلوثها شبهات ولّدتها بعض تصرفاتها، كما أن قدرًا هائلًا من روحها متعلق بعمر. وضعت يديها على صدر مروان ودفعت، دفعة رعديد جبان.

انقبضت أصابعه بشدة فوق كتفيها:

- تزوجيني.

همس بصوت أخفق في إخفاء ما بقلبه من وله:

- سأبذل كل ما في وسعي لإسعادك.

نضحت كلماته بالعاطفة والملاطفة فغمرتها أحاسيس لم تألفها من قبل، لماذا جعلها الآن تشعر بهذا؟

دفعته بشدة وفكت التحام جسديهما:

- هل تختبرني؟

- ماذا؟

- تريد جسّ نبضي إن كنت سأسمح لك بفعل أحمق؟ الآن وأنت تظن بأنه يمكنني التصرف على نحو طائش؟

- نادية، كلا!

تعثر في ارتداده إلى الخلف، صبغت الإهانة وجهه بالقرمزيّ، وكثّف السخط من لون عينيه الداكنتين:

- كيف يمكنك أن تظني بي أمرًا كهذا؟ لا قدرة لي على تحمّل مشاعري تجاهك. أريد الزواج بك رغمـ...

- رغم ما فعلته؟ لست بحاجة إلى صدقة منك.

- رغم أنك لا تحبينني بالطريقة نفسها.

خرجت كلماته صراخًا فطارت عيناه صوب باب غرفة ماما الذي بقي موصدًا. استأنف حديثه:

- إن كان ذلك يجعلني أحمق، فأنا لا أبالي.

- وماذا يجعلني أنا؟

- زوجتي.

بنبرة مهزومة، خرجت جملته مفككة:

- لماذا تتصرفين هكذا؟ لقد فعلت كل ما طلبته مني. ورغم ما أرزح تحته من ضغط، بذلت ما بوسعي لتحقيق جميع رغباتك.

حاول الاقتراب ثانية فابتعدت.

- أرجوك قولي لي ماذا تريدين. لا رغبة لديك في رعاية طفل ابن عمي؟ هذا يمكن تدبيره. تودين الحصول على شهادتك الجامعية؟ سأضمن لك ذلك. تريدين الحصول على وظيفة؟ موافق وراض.

نزّ اليأس من صوته وأصاب عينيه الجميلتين بالحزن، دفنهما أكثر تحت أهدابه الطويلة. مزّق قلبها وتحول غضبها إلى شفقة، إحساس لم تتوقع أبدًا أن تشعر به تجاه مروان القويّ المهيب. يجب أن تضع حدًّا لتداعيه المتواصل، لكن ما عساها تقول؟ ألقت ظهرها فوق مسند الكنبة وقالت:

- لا أستطيع الزواج منك.

- لماذا؟

انفجر:

- بحق جميع الملائكة، فقط قولي لي لماذا؟

انهمرت دموعها مثل صنبور مفتوح، هل هذا كل ما تستطيع صنعه؟ انكمشت تحت نظراته الحادة وانعقد لسانها بألف عقدة.

- هل هناك شخص آخر؟

مرت عدة ثوان وهي صامتة، حرّكت خاتم الخطوبة حول إصبعها مترددة في خلعه تحت بصر مروان المسلط عليها.

رمى بنفسه جنبها فكادت ركبتاه أن تلامسا ركبتيها:

- أهذا سبب ذهابك إلى عمر؟

غامرت باستراق نظرة خاطفة صوب مروان وردت:

- إنه كان... كان غاضبًا جدًا. ظنّ بأنني كنت... قاسية لأنني استخدمته في إيذائك.

أطلق نفسا متعثرًا:

- عمر محق.

- أرجوك، لا تلمه أبدًا. عمر يحبك ويقدّرك.

اصطكت عضلات حنكه بضع مرات:

- وأنت... تحبينه **هو**؟

أهناك حالة أعمق من الحبّ؟ عمر جزء لا يتجزأ من كينونتها. إنها تصبح في حضرته مثل من يستفيق من غيبوبته. ليس من طريقة تمكنها الآن من الاعتراف علنًا بمشاعرها، وأن تعبّر عنها للمرة الأولى بألفاظ عادية. ولمن؟ لخطيبها؟ إنها بالكاد تستطيع التنفس.

- لقد رفضتِ خلع سلسلته وطوّقت بها عنقك جنبًا إلى جنب مع تلك التي أهديتك إياها. ليس من امرأة تجمع بين سلسلة من الفضة وأخرى من الذهب في عنقها. رحاب قالت لي ذلك لكنني لم أحمل الأمر على محمل الجد.

وضع يده فوق أصابعها التي تهتز بعصبية محاولا تهدئة روعهم:

- كان ينبغي لي أن أعرف حينها.

- فرك إبهامه بظاهر كفها:

- هل يدري عمر؟

- لا أعتقد، لا أريد إفساد ما يربطك به من صداقة.

- إنك لا تولينني ما أستحقه من قدر، أنت لا تعرفينني على الإطلاق.

ركع أمامها ثم خلع خاتمه ووضعه بين يديها:

- بغض النظر عما تظننيه بي، أريدك أن تكوني سعيدة.

سحب يديها إلى شفتيه وطبع فوقهما قبلة حارة.

راقبته وهو يخرج من الباب الأمامي، وقد اعترى بصرها الغبش.

فُتح باب غرفة ماما:

- لماذا تبكين؟

كانت نبرة ماما غاضبة وأقل تسامحًا مما كانت نادية تأمل به.

- هل كنت تتوقعين نتيجة أخرى بعد الذي فعلته؟ أليس هذا ما كنت تريدينه؟

دسّت فاطمة منديلين في يد نادية:

- من الأحسن أن يحدث هذا الآن، أفضل من عودتها إليك بعد سنتين وهي مطلّقة وبين ذراعيها طفل.

جلست ماما على كرسي:

- ماذا سنفعل الآن؟ لقد أفسدتِ كلّ شيء.

أخرج ثوران ماما نادية من غشاوتها.

- الناس ستتساءل عن سبب فسخ مروان الخطوبة.

لطمت فخذيها بكفيها:

- ماذا جنيت لأستحق كل هذا؟

لطمة أخرى.

- لماذا توفّى الله مصطفى، وتركني أتصدى لأمر هذه الابنة بمفردي؟

لطمة.

- ستصبح في بيتي الآن ابنتان غير متزوجتين.

لطمة.

- أين ابني ليخفف الحمل عني؟

تدخلت هدى:

- ماما، توقفي عن الندب مثل العجائز. لو كان شريف هنا للخبط الأمور أكثر مما هي عليه، لهذا لا تتظاهري بأنه العصا السحرية لمشاكلك. ثم من قال لك إنني أريد أصلًا أن أكون تحت رحمة رجل؟

أزاحت فاطمة هدى، وسحبت نادية الصامتة من الكنبة:

- لا تدفعي الوضع نحو مزيد من التفاقم. هيا يا حبيبتي، قبّلي يد أمك. اطلبي منها العفو والسماح، سنتدبر تسوية الأمر.

جذبت نادية يديّ ماما ثم قبلتهما ورفعتهما إلى جبينها ثلاث مرات. لكن ماما ظلت صامتة، ولم تنطق بعبارات المسامحة المعهودة. جثت نادية بإحباط فوق ركبتيها وحاولت تقبيل قدميّ أمها، فوضعت ماما يدها فوق رأس نادية وقالت:

- قومي.

رنّ جرس الهاتف فأفزع الجميع. التقطت هدى السماعة، وأحكمت بيدها سدّ الجزء المحاذي لفمها، ثم حرّكت شفتيها دونما صوت: «رحاب، شقيقة مروان.»

أشارت ماما بيدها طالبة الحديث إلى رحاب، لكن هدى هزّت رأسها وقبضت على السماعة بكلتا يديها. سلّمت على رحاب، ثم غرقت في الصمت. مضت دقائق عديدة.

أنهت هدى المكالمة:

- بالطبع، شكرًا لك.

عصرت ماما يديها وقالت:

- إذًا؟ ماذا قالت؟

- رحاب اعتذرت نيابة عن أخيها.

رفعت هدى إصبعها في الهواء:

- اعتذرت، هل أنت معي؟

رفعت ماما حاجبيها:

- اعتذرت؟

- أخبرها مروان بأنه اضطر إلى فسخ خطوبته بنادية بسبب ضغط عمه عليه للزواج من أرملة ابنه. أعربت عن أملها في أن نتفهم وضع مروان، وهي تودّ زيارتنا في القريب العاجل لترى نادية وتتمنى لها كل الخير.

ضمت ماما راحتيها معا ووضعتهما أسفل ذقنها ثم رفعت عيناها إلى أعلى:

- الحمد للهّ!

- كما قالت رحاب إن مروان يتمنى أن يكون مرحبًا به هنا حال عودة عمر.

هزّت هدى كتفيها:

- وافقت بالطبع، لقد أثبت هذا الرجل النبيل أن معدنه نفيس.

عادت للنظر في نادية:

- وهذا ما يحملني على إعادة النظر في رأيي بالرجال.

سحبت قوة خفية عظام نادية من جسدها فلم تعد قادرة على الوقوف، سقطت على عقبيها فانحنت فاطمة فوقها وأحاطتها بذراعيها ثم جرّتها نحو السرير. غمغمت في أذنها بكلمات مهدئة لتمتص ما اكتنف روحها من شعور بالذنب.

# 34

- نفّذت ما أرادته نادية. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟

احتل مروان الكرسي الوحيد في غرفة عمر:

- لم يكن لديّ من خيار آخر، ولا علاقة لهذا لأمر أبدًا بما... بما فعلته.

أبقى عمر عينيه فوق غلّاية القهوة مراقبًا فقاقيع الماء الساخن وهي تطفو إلى السطح. احتار في كيفية الردّ على صديقه الذي وصل فجأة إلى غرفته دونما إنذار. حصل الكثير في بحر يوم واحد. عندما عاد مع قائده إلى المعسكر، غرق في دوامة التغيير الفوري لقيادات الجيش إثر الانقلاب العسكري، وظلّ ذهنه يشطح في التفكير بنادية وزيارتها، فيما كانت توشك أن تعترف به، وفي عجزه عن فعل أي شيء لعين بسبب الوضع المحبط الذي يحيط به. كان العالم يتهاوى من حوله؛ وفاة عبد الناصر قبل شهر فقط ثم هذا الانقلاب المزلزل. قُبض على قائده الذي أنقذ مؤخرته في ذلك الصباح، ولم تكن لديه أدنى فكرة عما هو متهم به. قام بزيارة قصيرة لزوجة الرجل حال أن سمح له بترك المعسكر، طمأنها بأنه سيعمل على تحريك الدفاع عن زوجها. كان لديه أصدقاء تخرجوا قبله ويعملون في النيابة العامة في كافة أرجاء البلاد، بما فيها المحاكم العسكرية.

تفاقم ما يشعر به من بؤس عندما عاد ميتًا من التعب إلى غرفته في وقت متأخر من الليل. أشعل ما تركته نادية خلفها حريقًا في حواسه. كان القميص الذي نامت فيه مطويًّا فوق سريره والمنشفة التي استخدمتها معلقة خلف باب الحمام، ولو أنه أغلق عينيه لالتقط أنفه أثر عطرها الزكيّ. اضطر إلى فتح النافذة كي يسترد جسده شيئًا من القدرة على الحياة من جديد، وحمد الله أنه فعل قبل مجيء مروان.

حرّك ملعقة كبيرة من القهوة وخفّف النار مستغلًا تلك المهمة المنزلية كعذر لإيلاء ظهره لمروان.

غمغم مروان:

- بعد مضي كل هذه المدة، لم تطلب أي شيء مني سوى أن أتركها. لماذا لم تصارحني وتكشف لي عما بداخلها عوض أن تتصرف بتلك الطريقة؟

أطفأ عمر النار:

- لم ترغب في إحراجك أمام عائلتك.

- إنها لا ترغب في الزواج مني، لا أعتقد أنها كانت تريد ذلك أبدًا.

اهتزت الغلّاية في يد عمر، وخرجت نبرة صوته مثل صبيّ شقيّ على وشك الإمساك به متلبسًا:

- هل ذكرت السبب؟

زفر مروان عميقًا، وعندما استغرق وقتًا طويلًا في الردّ، استدار عمر ليواجه نظراته الحادة. إنه ليس بجبان، حان وقت مواجهة العاصفة.

التوت شفتا مروان وهو يمرر لسانه فوق أسنانه، من الواضح أنه يزن في عقله ما سينطق به لسانه:

- لم تكن مضطرة إلى ذلك.

ملأ عمر فنجانًا حتى أعلى حافته فأراق القهوة في الصحن.

غمغم مروان:

- أتدري؟ لقد تغيرت. لم تعد تلك الفتاة الساذجة.

- كبرت.

أحجم عمر عن تقديم القهوة فيداه المرتجفتان ستريق المزيد منها قبل وصوله إلى الطاولة. هل يسمع مروان دويّ قلبه داخل الغرفة الصغيرة؟

- سأقول ما سأقوله ولكن الكلام على عاتقي، إنني مقتنع بأن ثمة شخص آخر في قلبها.

حبس عمر أنفاسه:

- من؟

- جنبتني إهانة قول ذلك في وجهي صراحة، ويجب أن يسجّل لها ذلك.

تنفس عمر الصعداء وحمل صينية القهوة إلى الطاولة.

مدّ مروان يده، وحمل فنجانه متجاهلًا ما ينقط من أسفله ثم تناول رشفات سريعة:

- إن كان من شخص قادر على معرفة حقيقة الأمر فلن يكون إلا أنت.

- ما الذي الذي يحملك على هذا الاعتقاد؟

- أنتما قريبان من بعضكما إلى حدّ كاف، إنها... تفتقدك.

فتّش مروان في الكيس الورقي الذي جلبه معه ثم أخرج كتابًا ووضعه فوق الطاولة:

- أعتقد أن هذا يخصّك.

أدار عمر الكتاب كي يرى عنوانه فظهرت من حافته أطراف شريط أزرق

موشى بالأبيض. رفع يده عن الكتاب وتفحّص صديقه.

دفع مروان الكتاب بعيدًا عنه نحو عمر قائلًا:

- أتدري؟ لقد أسدت لي معروفًا. فوسط ما يحاصرني به عمي من ضغط شديد، أعتقد أن هذا قد يكون خيرًا لي. أصبحت مغرمًا جدًا بابن الأرملة، إنه بمثابة ابن لي.

حاول عمر استكناه ما تبطنه كلمات مروان. إن كبرياء الرجل مهشم وهو بحاجة ماسة إلى تمثيلية ضغط عمه عليه حفاظًا على ماء وجهه. لن يحرمه عمر من ذلك القناع، ولهذا أومأ برأسه مجاملًا علامة على قبول المشاركة في تلك التمثيلية:

- لعلك محق.

نهض مرون:

- نحن على وئام إذًا بشأن هذا الأمر؟ أنا وأنت؟

كان في ابتهاج عمر السري بهذا التطور خيانة لصديقه حملته على الشعور بالخجل والذنب. بسط يده مصافحًا وهو يقول:

- أنت بمثابة أخ لي، لا أريد لهذا الأمر أن يفرّق بيننا.

صافحه مروان ثم تقدم وعانقه عناقًا لا مراء فيه:

- هذا لن يحدث بالطبع.

بعد شهرين على الانقلاب، تمكن عمر وللمرة الأولى من أخذ إجازة والذهاب إلى دمشق. لم يخبر أحدًا بمجيئه، وحال نزوله من الباص توجه إلى محل أدوات كهربائية. رغب في دخول البيت وهو يحمل هدية في يده، وكان في باله شيء مناسب للجميع عكف على توفير ثمنه طيلة شهور.

حاملًا الصندوق الضخم بين ذراعيه، صعد درج البيت واستخدم طرف حذائه في قرع الباب. لم تكن لديه أي فكرة عمن فتحه، فما يحمله بين يديه يحجب عنه الرؤية.

- ما هذا؟

سألته هدى.

رد على عجل ووزن ما يحمله يتضاعف بمرور كل ثانية:

- ارفعي ما فوق الطاولة، لو سمحت.

وضع الصندوق واعتدل فركضت الصغيرتان وطوّقتا وسطه بأذرعهما:

- أنت هنا! أنت في البيت!

بادلهما العناق، وامتص دفئهما وحبهما البريء، لشدّ ما افتقد هذا.

- هل ماما صبحية في البيت؟

- ذهبت كي ترافق نادية في طريق العودة من الجامعة.

بدأت هدى بإزالة ما يغلّف الصندوق من ورق فتركته الصغيرتان للمشاركة في حفلة التمزيق.

صرخت سلمى وهي تتنطنط من الفرح:

- تلفاز؟

حاول التركيز على فرح الصغيرتين:

- ترافق نادية؟ ماذا تقصدين؟

رفعت هدى حاجبيها؛ أبقى قدرًا محسوبًا بدقة من الاهتمام عينيها على الصندوق:

- أنت لا تعرف؟

- أعرف ماذا؟

- ماما لا تترك نادية تذهب إلى أي مكان دون مرافقتها، حتى أنها حاولت منعها من حضور محاضراتها، لكن وليد وفاطمة أقنعاها بالعدول عن ذلك.

زلّ لسانه بالسؤال، إنه يعرف الجواب وما كان ينبغي له أن يسأل:

- لماذا؟

جذبتاه الصغيرتان من ذراعه:

- شغّله كي نتابع الرسوم المتحركة مثل الجيران.

حاول حمل التلفاز وإخراجه من صندوقه الكرتونيّ لكنه فشل. مزّق الصندوق، فاشتعل حماس الصغيرتين أكثر. توجه إلى زاوية في غرفة الجلوس، وأنزل الجهاز الثقيل أرضًا متوجعًا من ظهره ورجليه. عندما اعتدل واقفًا، قبضت هدى على ذراعه وهمست:

- لم تعد ماما تثق بنادية. لقد أطلت الغياب، ويستحسن بك الآن إعادة المياه إلى مجاريها.

قضى عمر نحو ساعة من الوقت محاولًا التقاط إشارة ضعيفة عبر الهوائي الطويل وإجراء التعديلات اللازمة. خلال ذلك، غافلته الصغيرتان بلفّ المفاتيح الدائرية كلما سنحت لهما الفرصة.

دخلت ماما صبحية ونادية. كان صوت التلفاز يلعلع على أعلى درجة، فلم يكمل عمر ما كان قد بدأ بقوله، وصرخ على الصغيرتين كي تتوقفا عن شقاوتهما. سارعت ماما صبحية إلى أخذه في أحضانها، وعندما تركته، قبّل يدها ولمس بها جبينه مأخوذًا بما أمسك بخناقه من عواطف جيّاشة؛ لم يتوقع منها ذلك الترحيب النابع من القلب. أما نادية فمدت يدها مثل الغرباء وتجنبت النظر في عينيه،

فاشتدت قبضة ما يمسك بخناقه. تظاهر على الفور بفحص شيء خلف الجهاز مخفيًا خيبة أمله. عندما أطل من الشاشة وجه مذيع بالأبيض والأسود، عصفت بالغرفة موجة عارمة من الشهيق والضحك.

- كيف تمكنت من شرائه؟

اصطبغ صوت ماما صبحية بالذعر:

- أرجوك، لا تقل لي إنك اقترضت ثمنه.

- لا تقلقي، لقد وفرت ثمنه.

- كيف؟ وأنت لا يتبقى لك سوى النزر اليسير بعد إرسال راتبك لنا.

طالعته ماما صبحية من رأسه إلى أخمص قدمه مرتين:

- فقدت شيئًا من وزنك، أنت لا تعتني بنفسك.

قبّل يدها وحاول طمأنتها:

- أنا بخير.

- غرفته صغيرة جدًا.

عضّت نادية على شفتها السفلى فور أن فتحت فمها ندمًا على اندفاعها في الحديث.

شدّت ماما صبحية كتفيها وجذبت نفسًا طويلًا علامة على نفاد صبرها. رأى عمر حركتها تلك من قبل، كانت تفعل ذلك عندما تتصدى لحماقات شريف. ارتبك محتارًا فيما يمكن قوله أو فعله.

دفعت هدى الصغيرتين أمامها وجرّتهما إلى المطبخ:

- ساعداني على تجهيز الطعام.

جذبت ماما صبحية يده، وسحبته ليجلس بقربها على الكنبة:

- حان وقت وضع النقاط فوق الحروف.

أشارت لنادية كي تجلس في المقعد المقابل.

أرخى عمر عضلات وجهه ليخفي قلقه المتصاعد، أتريد الآن فعل ذلك؟ في غياب من يؤازره؟ أينبغي له أن يسأل عن فاطمة ووليد؟ اختطف نظرة صوب نادية، لكنها كانت تلصق عينيها في الأرض وفوق وجهها تعبير استغلق عليه فهمه. خلعت نادية سترتها فانكشفت قبة فستانها المربعة، إنها منخفضة وتكشف عن بشرة بضة أسفل عظام الرقبة، الكثير من البشرة. قطعًا، لو انحنت إلى الأمام، ستندلق قُبّتا صدرها، هل ذهبت إلى الجامعة في هذا الفستان؟

سألته ماما صبحية:

- هل علمت شيئًا من مروان؟

- زارني يوم...بعد أن أنهى الأمر هنا. ما فهمته هو أن التزاماته العائلية

زادت وضغطت عليه كثيرًا.

ازدرد ريقه آملًا في التقاط ماما صبحية محاولته في حفظ ماء وجه نادية أمامه. كان لعب تلك اللعبة مرهقًا له.

ضيّقت ماما صبحية عينيها، ثم أومأت:

- هذا ما فهمناه نحن أيضًا، إننا... نتمنى له كل خير. لقد ترك في منتهى الأدب وحسب الأصول، يجب أن تعرف ذلك.

- مروان رجل محترم.

تنحنح محاولًا تغيير دفة الحديث:

- أردت المجيء منذ زمن ولكني لم أستطع.

ربتت ماما صبحية على ركبته:

- أعرف، هل تغير وضعك كثيرًا بعد الانقلاب؟

- قد ينتهي بي الحال إلى الانتقال قريبًا إلى دمشق.

رفعت نادية بصرها وضربت عينيه بنظرة خاطفة ولكنها كانت كافية لشحنه بالأمل، إنها إذًا ليست بذلك القدر الذي يبدو عليها من السلبية.

- هذا خبر عظيم، أحتاجك إلى جانبي هنا.

وضعت ماما صبحية يدها فوق صدرها:

- لم تعد صحتي تحتمل المزيد من المتاعب. منذ سفر شريف لم يصلني أي خبر منه، والفتيات يكبرن ويتطلبن مزيدًا من الاهتمام، ونادية...

أغلقت عينيها وهزّت رأسها بحركة درامية تعبيرًا عن إحباطها:

- نادية لا تجعل الأمر سهلًا، أخذًا للظروف بعين الاعتبار.

- لا تقلقي على شريف، لديّ عنوان المدرسة التي يعمل فيها في الكويت وأعرف كيفية الوصول إليه.

غاص صوتها في حلقها فاضحًا كذبتها:

- لست قلقة عليه.

فليكن الله في عونه، إنه يوشك على دفع ماما صبحية إلى البكاء، إنها قلقة بالطبع على ابنها. حمل يدها وربت عليها:

- لقد كان شريف بحاجة إلى ما مرّ من وقت لإعادة تقييم الأمور. إنه دائمًا هكذا، يأخذ وقته قبل أن يبادر إلى التصرف. أعتقد أنه ينوي الزيارة خلال إجازة الربيع.

أشرقت عينا ماما صبحية:

- ليس في وسعه أن ينسى أمرنا، صحيح؟

بحث عن طريقة لتخفيف قلقها دون بهرجة كذبه أكثر:

- بالطبع لا، سأتصل به.

- أريده أن يتحمل المسؤولية.

لم يستطع منع السخط من أن ينزّ من صوته:

- هل قصّرت في تولي أمورك وأمور البنات؟

احمرّ وجه ماما صبحية:

- إنك بحاجة إلى البدء في التخطيط لعائلة لك.

- أنتم عائلتي، أم تغير الوضع؟

- طبعًا لا يا **حبيبي**، أعني أنك يجب أن تتزوج وتنجب.

- عندما يحين الوقت المناسب.

وثبت نادية على قدميها:

- ماما، أريد أن أتكلم مع عمر.

أمسكت بيده:

- على انفراد، أرجوك.

فزّ واقفًا رغمًا عنه. فلو بقي جالسًا، لظلت نادية على انحنائها ولظل ما يندلق من قبة فستانها أمام ناظريه. اللعنة!

أشارت ماما صبحية برأسها إلى الباب الأمامي:

- لم أعد أعرف كيفية التصرف معها، اذهبا إلى بيت فاطمة وناقشا الأمور وساعدني يا عمر في هذا الشأن.

اختطف سترة نادية ولحق بها إلى الخارج. حسنًا، سيناقش الأمور معها، وبكل تأكيد. لكن الأهم فالمهم، يجب أن يقنعها بألا ترتدي هذا الفستان ثانية.

مشت نادية مع عمر جنبًا إلى جنب صوب شقة فاطمة. أحكمت شدّ سترتها فوق صدرها وفكرت في مئة طريقة لقطع حبل الصمت لكنها انتهت إلى الإبقاء على فمها مسدودًا. إنه لم يوجه لها ولا كلمة واحدة منذ وصوله واكتفى بالحديث مع ماما وكأنها غير موجودة. أما الآن، وقد لحق بها ومشى وفق خطوها السريع، فلا يبدو عليه الاستعداد لفتح حديث معها. إن لم يكن مكترثًا بمعرفة أحوالها طيلة غيابه، فبوسعها هي الأخرى أن تبقي على لسانها في حلقها. إنه يستنكف حتى عن مجرد النظر إليها، يمشي بقربها مكتفيًا بوضع يديه في جيبي جاكيته.

فتحت فاطمة الباب قبل وصولهما ورمت ذراعيها حول عنق عمر:

- اتصلت بي ماما صبحية، لا أصدق أنك عدت إلى البيت ولم تتصل بي.

ضحك عمر ضحكة عالية ومن صميم القلب، لكنها بدت لنادية ضحكة عصبية؛ لم يكن لها ما يستدعيها واستغرقت ردحًا طويلًا قبل انتهائها. إذًا، هو

ليس بذاك الهدوء والتحفظ اللذين يبدوان عليه.

- تفضل، تفضل.

سحبت فاطمة يد نادية ومشت معهما إلى غرفة الجلوس:

- إنني مشغولة بإطعام الصغيرين، سأنضم إليكما حال انتهائي من ذلك.

أخذت سترة نادية وجاكيت عمر ثم تركت الغرفة وأوصدت الباب خلفها.

تخيّلت نادية فاطمة على الجانب الآخر من الباب وهي تضع أذنها فوقه مسترقة السمع. على الأرجح، ستملّ فاطمة من الانتظار، فبحسب سير الأمور حتى الآن، لا يبدو عمر متحمسًا للحديث. جلس في مقعد شابكًا يديه تحت ذقنه، مهّدت فستانها واختارت الجلوس في كنبة إلى يمينه ثم لفت ساقًا فوق ساق منتظرة أن يبدأ الحديث.

علا ضجيج الشارع المزدحم داخل الغرفة وقطع الصمت؛ زعق بوق سيارة بضع مرات، هتف بائع متجول بنداءات تحثّ السامعين على التزود بالوقود للشتاء، صرخ رجلان يتشاجران بسيل من الشتائم. وفوق ذلك كله، كانت تجلس تحت وطأة نظرات عمر الصامتة.

بدا صوته وكأنه خرج من صدره لا من شفتيه:

- يعجبني فستانك.

- خاطته فاطمة لي، إنه مثل فستان لبسته سعاد حسني في فلم الحب المفقود. هل شاهدت هذا الفلم؟

قوّس عمر حاجبيه واعترت وجهه نظرة متشككة:

- لم تسنح لي الفرصة.

لماذا سألته عن هذا؟ لا بد وأنه سيظن الآن بأنها سخيفة وغير ناضجة. كيف سيحضر هذا الفلم وهو عالق في المعسكر؟ عدّلت ثنايات فستانها وهي مصممة على مواصلة الحديث:

- لم أشاهده أنا أيضًا، لكن فاطمة عندما ذهبت مع وليد لحضوره قمت أنا برعاية الصغيرين فشكرتني بهذه الطريقة.

- أتمنى ألا تلبسي هذا الفستان ثانية.

- عفوًا؟

- لا إلى الجامعة، لا إلى الشارع ولا في حضور أي رجل.

تدلّى حنكها دهشة واستهجانًا. لو كانت تشبه تلك الممثلة من قريب أو بعيد، لردت عليه بضحكة مثيرة، أو لرمشت له بأهداب طويلة أو صنعت شيئًا من هذا القبيل. لكنها عوض ذلك، طوت ذراعيها فوق صدرها استياء من تدخله فيما ترتديه. غلطة كبيرة؛ تكوم نهداها فوق ذراعيها المطويين ومسّت يد الهواء

البارد مطرحًا على جلدها لم تمسه من قبل. كان ذلك كافيا لقذف عمر مثل الصاروخ من مكانه ولفّ ظهره لها والغمغمة بمسبة نابية.

مرتبكة حتى النخاع، جذبت قبة فستانها إلى أعلى ما تستطيع وقالت بنبرة لا تخلو من تقريع:

- هل هذا كل ما تودّ قوله لي يا عمر؟ إن فستاني غير لائق؟

حنى كتفيه مطلقًا زفرة عميقة وعالية الصوت كما لو أنها رجمته بحجر:

- أعرف أن مواجهة مروان لا بد وأنها كانت صعبة عليك للغاية، وكذلك تصديك في الوقت نفسه لهدى وماما صبحية، وأتمنى لو كنت موجودًا للوقوف إلى جانبك.

- إنك هنا الآن.

- قلتِ لماما صبحية إنك تريدين أن تتكلمي معي.

استدار ليحدق فيها:

- تكلمي.

دون أن ترفع عينيها من عينيه، تحسست ما حولها وجذبت إحدى وسائد الكنبة ثم ضمّتها إلى صدرها:

- هل ما زلت على صداقة مع مروان؟

- بالطبع.

- وهل هو...بخير ويتقبل ما آلت إليه الأمور الآن؟

- ليس من رجل يكون **بخير** عندما يُرفض بتلك الطريقة.

- لم أقصد إيذاءه. أنا فقط... أنا توقعت... أنا أردت... أن... أن...

ليكن الله في عونها، لم تستطع العثور على الكلمات المناسبة.

مرر يده فوق شعره القصير:

- ماذا يا نادية؟ ما الذي تريدينه؟

- سأتخرج في السنة المقبلة.

- أعرف ذلك. أنت تريدينني أن أقنع ماما صبحية بأن تتركك لتذهبي إلى الجامعة بمفردك من جديد؟

فرك عنقه من الخلف:

- بحسب الوضع الراهن، فإن ما تقوم به ليس عمليًا في أقل تقدير.

راحت تنقر الوسادة بأصابعها، هل هذا ما فهمه من كلامها؟ إنها الآن حرة بعد أن تركها مروان وهي على وشك الانتهاء من الدراسة وجاهزة لاتخاذ الخطوة المقبلة. مرور شهرين قبل الارتباط ثانية ليس بالمدة القصيرة وفق المعايير الاجتماعية السائدة.

- هل صحيح أنك قد تنتقل إلى دمشق؟

- هكذا قيل لي.

كان بمقدورها أن ترى أنه ما زال محتدًا، فهو يقف أمامها مباعدًا ما بين رجليه وقدماه منغرستان في الأرض بينما تهتز إحدى رجليه بعصبية. ما الذي يمنعه؟ إن كان يحبها حقًا مثلما قالت هدى وفاطمة فلم لا يصارحها؟ كان مروان يتحدث عن مشاعره دون تلعثم، وإلى حد كان يزعجها أحيانًا. الوضع معكوس الآن، ليس في وسعها أن تطلع عمر على رغبتها في أن تكون له. هذه مهمة الرجل؛ أن يسعى خلف الفتاة المرغوبة لطلب يدها.

- متى ستنتقل؟

ألقى بنفسه فوق مقعده:

- لست أدري. عندما يقولون لي اذهب، فسأذهب في اليوم التالي. الأمر ليس في يدي، لماذا؟

كانت على وشك الصراخ من فرط الإحباط، لماذا لا يلتقط ما تحاول قوله؟ لا يمكن أن تكون صريحة أكثر من ذلك.

- تضع ماما قيودًا على حركتي عقابًا لي على التسلل خارج المدينة، لو انتقلت إلى دمشق لن أضطر إلى الخضوع لذلك.

ازدردت ريقها مستنفدة القدرة على التوضيح:

- حلّت المشكلة.

مرّت عدة ثوان، خفق قلبها بسرعة فاضطرت إلى إبعاد عينيها من عينيه، والتشاغل بالتقاط خيوط غير مرئية من الوسادة.

مال عمر إلى الأمام ثم أسند مرفقيه فوق ركبتيه، وشبك أصابعه ببعضهما البعض:

- إن جرى نقلي إلى هنا، فسأكون في الخدمة كمحام قيد الدراسة في المحكمة العسكرية إلى حين نيل شهادتي الجامعية. سأحصل على زيادة في الراتب، هل تعرفين ما يعنيه ذلك؟

- ماذا؟

- سأتمكن من استئجار مكان معقول، شقة.

حبست نادية أنفاسها متتبعة حبل أفكاره، ما الذي يحاول قوله؟ لمست ظاهر يده:

- أو بوسعك أن تعود إلى البيت.

فرك إبهامه فوق كفها:

- لن يكون لائقًا، ليس بعد كلّ ما جرى.

- ألا تبحث عن مكان قريب إذًا؟

- قريب من الجامعة.

فكّ أصابعه ليحمل يدها:

- مسافة قصيرة تمشينها على قدميك بين المحاضرات.

ما الذي يجري؟ إنه لا يعني أن تقوم بالتردد على شقته دون مرافق. سحبت يدها.

مال نحوها:

- ماما صبحية ربما لن تـ...

فُتح الباب وركض ابن فاطمة الأكبر قافزًا بين ذراعي عمر، ثم لحقت به أمه وهي تحمل الأصغر واستحوذت على اهتمام عمر بالكامل.

طرفت عينا نادية محاولة صرف ذلك الخاطر الذي جال في ذهنها. إن كان عمر يظن أن عودته إلى بيتها أمر غير لائق، فكيف له أن يتوقع منها الذهاب إليه في شقته؟ إنه لم يأت على ذكر زواج أو خطوبة. عندما رأته مسترخيًا مع أخته وطفليها اندهشت للغاية، هل يعتقد أنها موافقة على ترتيب كهذا؟ كلا، ليس عمر، إنه ليس على تلك الشاكلة من الرجال. لا بد وأن شيئًا ما فاتها التقاطه.

ظلّ بالها مشغولًا طيلة اليوم لعدم تمكنها من استيضاح عمر. جاءت عائلة فاطمة إلى بيتهم احتفاء بزيارة عمر، واحتفل الجميع بتناول الطعام ومتابعة التلفاز. وبعد السهرة، تركهم عمر للمبيت في بيت أخته ثم غادر في الصباح دون أن يمرّ بهم.

بقيت متململة متضايقة لشدة ما حلّ بها من تشوّش وخيبة أمل، لماذا ينبغي أن تكون الأمور معقدة إلى هذه الدرجة؟

أحكم عمر ربط قطعة القماش المخططة فوق وسطه ثم أنزل بنطاله وسرواله الداخلي. علّق ملابسه فوق أحد المشاجب ودسّ قدميه في قبقاب ثم طرقع ماشيًا فوق البلاط الزلق. دار حول نافورة كبيرة تتوسط ردهة الاستقبال ثم دسّ نفسه عبر مدخل منخفض يفضي إلى غرفة داخلية. وصل متأخرًا وتمنى ألا يكون قد فاته قدر كبير من الحفل. كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها حمامًا تركيًا، والمرة الأولى كذلك التي يحضر فيها حفل حمام عريس في يوم زفافه.

ناداه مروان لحظة دخوله ولم يعرف عمر كيف ميّزه صديقه عبر طبقات البخار الكثيفة. كان ضوء النهار يتسلل من زجاج النوافذ الملونة التي تحيط بقبة في السقف. لفحته الحرارة من كل حدب وصوب، كانت تنبعث من الأرضية

والحيطان الرخامية، وتردد صدى رشق الماء مع كل خطوة خطاها. قاوم حاجته إلى مدّ ذراعيه لتحسس طريقه وسط رجال متجردين من كل شيء عدا خرق مبللة لا تستر إلا ذكورتهم. التقط رائحة ورق الغار وزيت الزيتون الفوّاحة من رغوة الصابون التي تغطي أجسادهم. كانوا في كل مكان فوق الأرضية اللامعة، يتحلقون حول أحواض رخامية وهم يضحكون ويغنون أثناء الاستحمام.

أكان ينبغي لمروان أن يكون في الطرف القصي من الغرفة الدائرية الضخمة! لمّا بلغه عمر، كان نفسه قد انقطع وبدنه غارق في العرق:

- آسف على التأخير.

جلس بجنب مروان وتربع مثبّتًا أطراف خرقته بين ركبتيه المكشوفتين. ألقى التحية على صديقين آخرين بعد أن أصبح قادرًا على تمييز وجوه من هم حوله. كان وجه مروان ورقبته ممتقعين احمرارًا من شدة الحر.

قال مروان وهو يميل إلى الأمام والخلف تحت وطأة دعك ظهره على يد رجل يقف من خلفه:

- خفت ألا تأتي.

مسح عمر ما يبلل جبينه وشفته العليا بعد أن لسعت ملوحة العرق عينيه:

- وأفوّت على نفسي كل هذه المتعة؟

رفع المدلّك ذراع مروان وفركها بليفة من أعلاها إلى أسفلها بضع مرات وتساءل قائلًا:

- أول مرة؟

لو كان عمر قادراً على الرؤية بشكل أفضل، لأقسم أن الرجل كان يوشك على سلخ مروان حيًا بيديه العنيفتين. إلى أي درجة يمكن أن يكون جسم مروان وسخًا؟

قهقه مروان والتفت صوب الرجل:

- لا تعبأ به، إنه فلسطيني. ليس لديهم مثل هذه التقاليد.

أشار بيده لرجل متقدم في السن كي يقترب منهم. دنا العجوز مطرطشًا الماء من تحت قدميه ثم صافح عمر وقرفص خلفه. قبل أن يتمكن عمر من معرفة هويته، اندلق ماء ساخن فوق رأسه فأطلق لعنة وهو يبصق الماء من فمه.

قهقه مروان ثانية:

استرخِ قليلا، دعه يتولى أمرك.

انتزع عمر الليفة من يدي العجوز:

- إنني قادر على الاستحمام بنفسي، شكرًا لك سيدي. لست أنا من سيتزوج الليلة.

بدا العجوز وكأنه تعرض للإهانة فقال:

- جلسة تدليك إذًا؟

أدرك عمر أنه حرمه من فرصة كسب رزقه فردّ عليه:

- أجل، شكرًا لك.

عصر عمر الليفة وقال مستئنفًا كلامه:

- بعد أن أنتهي؟

أومأ العجوز:

- فقط ناديني، أنا أبو موسى.

اغتسل عمر فاصطلى جلده بسخونة الماء والبخار:

- عثرت على مكان.

كانت عينا مروان مغمضتين وأصابع من يتولى تحميمه مدفونة في شعره المغطّى بالفقاقيع.

- حقًّا؟ أين؟

- في ميدان عرنوس، شقة معقولة فيها غرفة نوم واحدة.

- أخيرًا سمحوا لك بالانتقال إلى دمشق؟ مضت ثلاثة أشهر منذ أن أبلغوك بموافقتهم.

- لا أعرف سبب التأخير، أعتقد أنهم كانوا يتفحصون وضعي على جميع الجبهات.

- لم أتصور أنك ما زلت في دائرة الخطر بعد مرور كل هذه المدة.

- لم أكن متأكدًا من أنهم لن يزجوا بي في الزنزانة نفسها مع قائدي السابق. لكني أصبحت الآن خارج دائرة الخطر، انتهى الأمر.

مستخدمًا طاسة نحاسية، قحف الماء من الحوض الرخامي إلى يمينه، وصبّه فوق وجهه وصدره. سمع تنهيدة مروان العالية، فمسح عينيه:

- ما الذي يشغل بالك؟

أشار مروان لمن يتولى أمر تحميمه بالانصراف فهرول الرجل إلى زبون مسكين آخر.

- إنني متوتر بعض الشيء.

- بخصوص الزواج؟ لو كان من رجل في الدنيا جاهزًا لمثل هذه الخطوة، فلن يكون إلا أنت يا صديقي.

غسل مروان قدميه وهو يبقي على صوته منخفضًا:

- بخصوص **الليلة**.

كحّ عمر في قبضته التي أطبق بها على فمه. آه، كلا! إنه ليس بالشخص المناسب كي يلتمس مروان النصح منه في شأن كهذا. ألا يجدر به استشارة رجل متزوج؟ عمه؟ أحد أصدقائه الأكبر والأكثر تجربة؟ زوج شقيقته؟ سحقًا، المدلّك الذي صرفه قبل قليل بمقدوره تقديم معلومات أفضل منه.

- ستبلي بلاء حسنًا.

- إنها أرملة يا عمر، وأنا... لست... أنت تدري.

- هذا أفضل، لن تكون في عماء تام مثل معظمنا.

استطلع مروان من حوله:

- أعتقد أننا آخر اثنين بقيا دوان زواج، سمعت من هؤلاء أشياء لا قدرة لي حتى على التلفظ بها.

- اسمع، زوجتك انتظرت أكثر من سنتين كي تظفر بك. كان بوسعها وهي الشابة الثرية أن تختار رجلًا ممن كانوا يتراكضون من حولها.

- وضع يده فوق كتف مروان:

- لكنها اختارتك أنت. ركّز على هذا الأمر وكل ما عداه سيأخذ مجراه الطبيعي.

أنزل يده وقد عاوده خاطر ملح ظل يؤرقه منذ أيام؛ لقد انتظر نادية طيلة عمره فكيف سيكون وصالهما، إن تحقق ذلك أصلًا؟ صبّ ماء باردًا فوق رأسه.

نهض مروان وبسط يده مصافحًا:

- ليس من الإنصاف أن أتركها تنتظر أكثر.

قبض عمر على يد مروان وتركه يسحبه من مكانه، لكن الخرقة التي يلفّها حول وسطه كانت منقوعة بالماء، فكادت أن تسقط أرضًا. قبض عمر عليها حول خاصرته وحاول سحب يده من قبضة مروان.

قبل أن يطلقها مروان، جذبه بسرعة قائلًا:

- حان أوان تقدمك. أقولها وبفم ملآن، نادية رفضت رجلًا لا مثيل له من أجلك.

حدّق عمر في مروان منذهلًا، وقبل أن يتمكن من الردّ، كان أصدقاء مروان قد التفوا حولهما، كما لو أن رؤية مروان واقفًا على قدميه هي الإشارة التي كانوا في انتظارها. هزجوا بأغان تقليدية تحيي العريس في ليلة دخلته فالتهبت وجنتا مروان واحمرّتا أكثر. لفّوه بالمناشف الجافة من رأسه حتى أخمص قدمه ثم وزّعوا على جميع من في الحلقة مناشف أخرى.

أحكم عمر تغطية صدره خوفًا من تيار الهواء البارد الذي انسرب إلى الداخل بعد فتح باب خشبي صغير. عَلِق وسط الحشد المبتهج الذي جره صوب

بهو فسيح ومنير. كان ذهنه، ومعدته، وروحه تنعقد في عقدة كبيرة واحدة؛ نادية تريده، ليس بصورة أخوية، وليس لقربها العاطفيّ البريء منه، وليس بسبب حاجتها للتخلص من خطيبها. اضطر مروان للإفصاح عن ذلك صراحة. إنها تريده، وهو، الغبي، متبلّد الذهن والإحساس، ترك غضبه من تصرفاتها يعترض سبيلهما. في ذلك اليوم في بيت فاطمة، كان شديدًا مع نادية قبل أن يبدأ في توضيح نواياه، وعندما دخلت أخته مع ابنيها وقاطعته تبددت جرأته. ترك نادية تنتظر.

غبّ نفسًا من الهواء الجاف ثم عبر بهو الاستراحة الذي كان ساطعًا بضوء يتدفق من نوافذه الضخمة المزينة بالزجاج الملون. تربعت في وسط أرضية البهو الرخامية نافورة مستديرة، وامتدت على طول محيطه مصطبة جلوس تعلوها البسط والوسائد المزركشة. اتخذ الجميع مكانًا لهم فوقها وانتهى الجلوس بعمر في نهايتها قرب الباب. هكذا أفضل، سيتمكن من الخروج حال انتهاء الحفل الذي لم يعد يطيق انتظار ختامه من شدة توقه إلى نادية.

حاول الاسترخاء مع بدء جسده في التأقلم تدريجيًا مع تغيّر درجة الحرارة. ثم دارت صوانٍ من الشاي الساخن، والبقلاوة على الجميع.

تمازح الرجال أثناء الضيافة وانشرح مروان من دعاباتهم البذيئة. فَقدَ وجهه شيئًا من لونه المضحك الذي كان عليه داخل الحمام، وبدأ الانتشاء يحوّم فوق رأسه المحنيّ خجلًا. بدا مروان، بشعره الرطب وشفتيه اللامعتين بقطر البقلاوة، متوهجًا بامتنان عميق مما هو على وشك الإقدام عليه.

أغلق عمر عينيه، متى سيحلّ الدور عليه؟

علا أذان المغرب فنهض الجميع من أماكنهم، وانقلب المرح إلى الجد. اتجه الرجال إلى قاعة ارتداء الثياب الأصغر حجمًا من البهو التي تصطف فيها محال شبه مستورة. ترك عمر بقشيشًا مضاعفًا لأبي موسى لعدم تمكنه من الالتزام بجلسة التدليك فور اضطراره إلى ترك غرفة الحمام مثل خروف يسير وسط قطيعه. ارتدى الجميع ثيابهم واصطحبوا مروان إلى بيته هاتفين ومعلنين للحيّ بأكمله أن العريس أصبح جاهزًا.

في البيت، صنع أقرباء مروان استعراضًا من إلباس عريسهم حلله الفاخرة وإغراقه بالعطوروالتأكد من أنه يبدو في أفضل هيئة ممكنة. اختفت النكات المكشوفة التي سمعها عمر في الحمام، وحلّت في مكانها نصائح جدية وملاحظات خاصة بواجبات مروان كرجل متزوج وصاحب عائلة.

انطلق الموكب إلى الشارع من جديد متجهًا إلى بيت العروس. كانت الموسيقى وأصوات النساء الصادحة بالأغاني التقليدية تلعلع في الطريق. قبل

السماح لمروان بالدخول وتفرّق شمل الرجال، شقّ عمر طريقه وسط الزحام. بلغ مروان وصافحه متمنيًا له كل الخير.

تمكّن مروان من رسم ابتسامة على وجه وقال:

- عسى أن يحلّ عليك الدور قريبًا يا صديقي.

# 35

لم يعرف عمر كيف وصل إلى شقته الجديدة، فقد قطع الطريق ورأسه في دوامة. وما إن دخل شقته الخاوية حتى تبدد ما بعثه فيه عرس مروان من تجدد ومزاج رائق فعانى من ليلة موحشة بنومه وحيدًا في بطانية على الأرض. لقد أنهى إجراءات الاستئجار حال صدور أمر التحاقه بموقعه الجديد في المحكمة العسكرية، لكنه لم يخبر أي أحد من العائلة عن هذا المكان. فهو لو فعل، لتسابقت أخته وماما صبحية في تأثيث الشقة التي لم يكن راغبًا في أن تكون لهما أي يد في ديكوراتها. نادية فقط هي من تملك هذا الحق.

عصر ذلك اليوم، أطلّ عمر من نافذة غرفة الجلوس في شقته وهو يتسلى بأكل حفنة من اللوز المحمّص. رنا إلى مباني الجامعة الرئيسية التي لا تبعد سوى شارعين عن شقته، سيكون بمقدور نادية بسهولة أن تمشي من هنا إلى محاضراتها، ويمكنها أن تعود خلال الدوام لتناول الغداء أو أخذ قيلولة. يمكنها أيضًا أن تستقبل أصدقاءها للدراسة والتحضير للامتحانات أو لإعداد الأبحاث. أما هو فسيحظى برؤيتها مسترخية، وهي تخفق هنا وهناك مثل فراشة فرحة هانئة كما كانت دومًا من قبل.

قضم لوزة مرّة فجفل مشمئزًا، ولما تأهب لبصقها تراجع. أغلق عينيه فتجلى فوق باطن جفنيه وجه عم مصطفى الشاحب، واصل المضغ، استجمع قوته وابتلع المرارة ثم وجّه تحية عسكرية للرجل الكبير.

تفحّص ساعته، محاضرة نادية الأخيرة على وشك الانتهاء وبعد قليل ستكون في طريقها إلى موقف الباص. عليه أن يسرع كي يلحق بها. في طريقه إلى الجامعة، حاول أن يتشاغل عن أعصابه المشدودة بمراقبة ما حوله من تباشير الربيع. أزرار الورد الجوريّ بدأت في الاستيقاظ من سباتها وهي تبشر بتفتح رائع وفيض آت من الجمال، لم لا يتفتح حبه ويزهر ليصبح هو الآخر جزءًا من هذه الدورة الموسمية؟ رأى نادية تخرج من بوابة الجامعة مع مجموعة من الطلبة فحثّ الخطى.

أطارت هبّة ريح طرف تنورتها، فدفعتها إلى أسفل بكتاب تحمله في يدها. تقدّمت صوبه حال أن رأته وقد اتسعت حدقتاها قلقًا:

- ما الأمر؟ هل مرضت ماما؟

- كل شيء على ما يرام، أخبرتها بأني أودّ مرافقتك اليوم إلى البيت.

عبس في شابين اقتربا نحوهما من خلف نادية.

أحاط الشابان بنادية عن الميمنة والميسرة ووقفا بقامتين منتصبتين وعضلات مشدودة:

- هل من خدمة؟

ازداد عمر عبوسًا:

- كلا.

شدّت نادية بيدها الأخرى على تنورتها مصارعة الريح لمنعها من رفعها. وسط ارتباكها الشديد، ارتسمت ابتسامة خجولة على وجهها:

- إنهما صديقان لي، رياض وكريم.

مدّ أطولهما قامة يده نحو عمر:

- وحضرتك من تكون؟

شدّ عمر على يده بقوّة تفوق مجرد المصافحة الحارّة:

- خطيب نادية.

شهقت نادية بصوت عال،ثم عضّت على شفتها السفلى محدّقة فيه بغضب.

رياض أو كريم، أيًّا كان الأطول منهما، منحه ابتسامة بلهاء:

- آسف، ظننا أنك ربما كنت تضايق نادیتنا.

شدّ عمر على حنكه، **نادیتنا؟** من يكون هذا الأحمق بحق الشيطان؟ تقدم خطوة ليصبح في مواجهته.

شبكت نادية ذراعها بذراع عمر:

- شكرًا يا كريم، يجب ألا نتأخر.

جذبت عمر من ذراعه إلى أن رضخ لإرادتها. تركها تجره بعيدًا وهو يبقي عينيه في عيون الشابين طيلة ما أمكنه ذلك.

حال أن انعطفا إلى شارع، سحبت نادية يدها وأسرعت الخطو:

- لا أصدق أنك فعلت ما فعلته للتو.

لم تكن تلك بداية طيبة لما كان ينوي مفاتحتها به، لحق بها:

- هل كنت تودين أن أقول لهما مثلًا إنني أخوك؟

- كلا بالطبع، لم تكن هناك ضرورة لقول أي شيء.

- كانا يجسان نبضي، إنني لست غبيًا.

- إنهما **صديقان** لي، وكل ما يهمها هو التأكد من أنني بخير.

ارتفع صوتها:

- هل تظن بأنك أول رجل وسيم يعترض طريقي؟

حلّ دوره ليرد عليها ويعبر عن غضبه لكنه تراجع، إنها تعتقد أنه وسيم؟ الآن، هذه بداية طيبة. تشبّث بذلك:

- أرجوك أن تبطئي في المشي قليلًا، أريد أن أحدثك بشيء مهم. دعينا نذهب إلى مقهى طليطلة.

توقفت نادية على نحو مفاجئ:

- حقًا؟ ذاك المقهى الرائع في شارع أبي رمانة؟

- حوالي خمس عشرة دقيقة مشيًا من هنا.

نظر إلى تنورتها العنيدة:

- أو بإمكاننا أن نوقف سيارة أجرة.

- إنني أتضور جوعًا، دعنا نذهب إلى كشك الفلافل في مدخل الحديقة العامة فالجو جميل للغاية.

أومأ عمر، كشك فلافل؟ ليس بالمكان الأنيق الذي كان في باله ولكنه سيجاريها فيما تريد. ليس من الحكمة أن يثير ضيقها أكثر.

زجّ نفسه وسط زحام المتجمهرين حول كشك الفلافل لشراء ما يريد مبقيًا عينيه على نادية التي انتظرته على مسافة. راقبها وقد لمّت أطراف تنورتها إلى جنب، وراحت تتفحّص الأزهار وتلاحق فراشتين هنا وهناك. كان قرار المجيء إلى هنا صائبًا، فها هي تسترخي وتعود إلى طبيعتها الأولى، إلى نادية التي كان يعرفها. حاملًا الشطائرالساخنة، مشّاها عبر الحديقة وأبقى دراستها محورًا للحديث إلى أن عثر على مقعد فارغ فأشار لها كي تجلس.

تلألأ وجهها انشراحًا بالحديث عن دراستها وأساتذتها. التهمت شطيرتها بلا تحفظ مغلقة عينيها بتلذذ من طعم اللقيمات الشهية.

مرّر أصابعه فوق ما يلفّ شطيرته من ورق وأخلى حنجرته :

- لماذا توقفت عن وضع سلسلة الأجنحة في رقبتك؟

من أين أتى هذا السؤال؟ لماذا لم يقفز مباشرة إلى ما كان يريد قوله؟

- لأنه يذكّرني بخطوبتي من مروان، إنه رجل متزوج الآن.

أشار عمر على مبعدة:

- استأجرت شقة في تلك البناية التي تطلّ من هناك.

تراقصت قطرة من الطحينية فوق شفتها العلويّة.

- قريبة إلى هذه الدرجة؟

- أخبرتك بأنني سأبحث عن مكان قرب الجامعة.

مصّت أصابعها.

- مفروشة؟

- ليس بعد.

- متى ستنتقل إليها؟

- انتقلت، سأبدأ العمل في المحكمة العسكرية بعد غد.

- هذه أخبار عظيمة.

اختلط صوتها برعشة خفيفة:

- هل ستبدأ الآن بحضور المحاضرات بعد نقلك إلى هنا؟ ألهذا السبب قررت السكن قرب الجامعة؟

هزّ رأسه مدركًا أنه يحدّق في فمها ويعجز عن سحب عينيه بعيدًا عن قطرة الطحينية المتراقصة:

- فعلت ذلك ليكون الأمر أسهل عليك.

توقفت عن المضغ، كان خدّها المنتفخ بما فيه من طعام يمطّ شفتيها المبللتين، ابتلعت لقمتها:

- لست متأكدة من فهم ما تقصده.

ناولها منديلًا ورقيًا.

- شريف سيصل غدًا.

انخطف وجهها بلمح البصر.

- لن أبقى في البيت لحظة إن كان هو فيه، لكني لن أستطيع المكوث في شقتك أيضًا. لا أصدق أنك تتوقع مني فعل أمر كهذا.

مشوشًا من طريقتها في التحليل والربط، كحّ في قبضته التي طوّق بها فمه:

- طبعًا لا، ما أحاول قوله هـ...

- كيف تحايلت على شريف كي يأتي ويطل علينا بوجهه؟

- قلت له إن ماما صبحية مريضة ويجب أن يأتي لرؤيتها، إنها الطريقة الوحيدة لإحضاره إلى هنا ثانية.

وضعت ما تبقى من شطيرتها جنب كتابها فوق المقعد ومسحت فمها:

- أكان عليك أن تكذب لتحمله على تذكّر أمه؟

- يجب أن يأخذ مكانه في العائلة.

عبست قائلة:

- نحن لا ينقصنا شيء ولسنا بحاجة له.

لمس عمر صدره:

- **أنا** أحتاجه هنا، هل تعرفين لماذا؟

- كي تفرح ماما، لقد وعدتها بإعادته إلى البيت.

وضع شطيرته المكشوفة بجانب شطيرتها:

- شريف هو أخوك، إنه الرجل الوحيد الذي تربطك به صلة من الدم. لا بد لي من التوجه إليه في حاجة لا يمكن لغيره أن يقضيها لي.

حمل يدها في يده:

- إن وافقتِ.

- لا أريد منه أي شيء بعد ما فعله بنا.

ارتجفت يدها بين أصابعه:

- لن أقبل باعتذاره إن كنت تظن أنك ستحمله على ذلك. ولا ينبغي لك التعويل على شريف في تحمل مسؤوليـ...

بسط عمر يده الأخرى فوق يدها:

- أتقبلين بي زوجًا لك؟

اختطفت يدها ونهضت مولية ظهرها له.

تمهل قليلًا وراقبها وهي تصارع تنورتها برأس مطأطئ ثم نهض ووقف خلفها. كان شعرها متربعًا فوق قمة رأسها، وما فوق عنقها من زغب رقيق يتمايل فوق بشرتها البضة. استحوذت عليه وحمة بلون الشوكولاتة وبحجم ممحاة قلم كانت مختفية تحت خطّ منبت شعرها. إنه لم يلاحظها أبدًا من قبل، ترى ماذا تخبئ من أسرار أخرى؟

محاولًا منع صوته من التهدّج، خفضه فصدر همسًا:

- لا أذكر أي وقت في حياتي لم أكن فيه أحبك، يجب أن تعرفي ذلك.

ظلّت صامتة وهي تواجه شجرة من أمامها.

- إن قبلت بي زوجًا لك، لا أريد الانتظار إلى حين تخرجك. بإمكانك إنهاء دراستك وأنت في بيتك الجديد ولهذا اخترته قريبًا جدًا من الجامعة.

ارتفع رأسها فجأة ولكنها لم تنطق بحرف.

- ليس لي من امرأة أخرى سواك يا نادية.

لمس كتفها بيده لكنه سحبها عندما جفلت:

- لا أعرف أي طريقة أخرى لتوضيح ذلك.

أصدرت صوتًا رقيقًا؛ أنينًا خافتًا. لو أنها تسمح له فقط برؤية ما في عينيها، لم هي صعبة هكذا؟

أطلق نفسًا مضطربًا:

- لست مضطرة إلى إعطائي جوابًا الآن. إنني أحيطك علمًا بنيتي على طلب يدك من شريف، الآن وقد تمكنت أخيرًا من سداد ديوني وأصبحت قادرًا على توفير حياة كريمة لك.

خطا إلى الوراء:

- بإمكانك أن تعطيني جوابك لاحقًا إن رغبت، وبعد أن يتسنى لك الوقت للتفكير.

استدارت بسرعة فتفاجأ من رؤية دموعها المنهمرة. ارتجفت شفتاها وقالت:

- ألا تعرف؟

احتبست أنفاسه في صدره:

- ماذا؟

- إنني ولدت كي أكون لك يا عمر.

كان عمر يقف بتوتر وقلق إلى جانب وليد وعيناه ترصدان القادمين من المسافرين. مقاومًا رغبة نقر الأرض بقدمه، استدار نحو وليد:

- أنت متأكد من ترتيب سائر الأمور؟

- استرخ يا رجل، أعددت كل شيء بشكل محكم. ستستقبلنا العائلة.

- هل أسقطوا حقهم؟ أيدركون أن هذا في مصلحة الجميع؟

أومأ وليد:

- تناولت معهم كل شيء بصراحة، إنهم يريدون إغلاق الموضوع ولا رغبة لديهم في السعي وراء المتاعب القضائية.

أبصر عمر شريف وهو يعرض ما في حقيبته على مسؤولي الجمارك، فلم يتحرك من مكانه منتظرًا خروجه. اصطحب ضابط أمن من حرس الحدود، أحد معارف عمر، شريف وقد شحب وجهه عبر زحام المسافرين. سلّم الضابط وبحركات مسرحية شريف إلى الملازم أول عمر بكري. أومأ عمر إلى صديقه مبقيًا على ملامح وجهه جامدة ورسميّة. إن الصلات مع من هم في المواقع المناسبة لها منافعها في حالات كهذه.

أمسك وليد بيد شريف مصافحًا:

- مرحبا بعودتك.

أسقط شريف حقيبته قرب قدميه:

- ماذا يجري؟ لماذا رافقني الضابط وكأني مجرم؟

رد وليد موضحًا:

- كنت ستجرجر إلى السجن لولا تدخل عمر.

انتاب عمر إعجاب شديد بوليد، فقد ألقى بكذبته دون أن يطرف له جفن. لم يتخيل عمر أبدًا أن وجه شريف الشاحب يمكن أن يصبح أكثر شحوبًا مما هو عليه الآن. أنجزت الخطوة الأولى في خطته بنجاح؛ شريف يكاد يموت من الخوف.

- سجن؟ ما الذي تتحدث عنه؟

مطّ عمر عملية الخداع إلى أبعد ما يكون:

- والد سميرة استصدر أمرًا قضائيًا بوضع اسمك على الحدود لأنك لم تدفع المهر المؤجل.

- لماذا لم تخبرني بذلك؟

أقحم شريف ذقنه في وجه عمر:

- تركتني آتي إلى هنا كي أعتقل؟

لم يجفل عمر:

- لكنك لم تعتقل، أليس كذلك؟ والآن ستأتي معنا إلى البيت لرؤية أمك.

- كيف... كيف حالها؟

- أحسن، هل أحضرت النقود لتسديد نفقات مكوثها في المستشفى حسبما اتفقنا على الهاتف؟

ربت شريف على جيب صدر جاكيته:

- المبلغ بتمامه وكماله.

استدار عمر مومئًا باتجاه المخرج:

- هيا لنذهب إذًا.

جالسًا في المقعد الأمامي للتاكسي، همس عمر إلى السائق بالعنوان. خلال الدقائق الثلاثين الأولى، سأل شريف عن حالة ماما صبحية موجهًا جميع أسئلته إلى وليد. وعند دخول المدينة سأل شريف عمر:

- إلى أين نذهب؟ هذه ليست طريق البيت، قلت إن أمي خرجت من المستشفى.

صكّ عمر على أسنانه بسبب تجنب شريف الواضح لوجوده:

- سنقوم أولًا بزيارة خاطفة.

دلف سائق سيارة الأجرة إلى شارع، فهبّ شريف إلى الأمام متشبثًا بمقعد عمر من الخلف:

- إنه الحيّ الذي تسكنه سميرة!

أشار عمر للسائق بالتوقف ورد على شريف:

- صحيح.

- مهلًا، ماذا نفعل هنا؟

دفع وليد شريف إلى خارج السيارة:

- نحن هنا حتى تقوم بواجبك تجاه أهل سميرة، ستدفع مهرها المؤجل وتكون رجلًا.

- يجب أن أسدد فاتورة المستشفى.

جذب عمر ذراع شريف وجرّه إلى الأمام:

- عليك أن تفعل هذا إن كنت لا تريد لأمك أن تزورك في السجن.

حاول شريف المقاومة وهو يتعثر ويلعن:

- لكن فواتير المستشفى...

- لا توجد فواتير، ماما صبحية لم تدخل المستشفى.

- خدعتني يا ابن الحرام؟

أحكم عمر قبضته على شريف:

- كنت مضطرًا.

قبض وليد على ذراع شريف الآخر:

- عمر أنقذ مؤخرتك وأنت مدين له بحريتك. ما عليك الآن سوى أن تماشي الأمر: ادخل عليهم، اطلب من والد سميرة السماح، ثم ناولهم النقود واخرج.

وصلوا الباب فترك عمر شريف، ودقّ جرس الباب:

- في المقابل، ستسترد حياتك وتوفر على أمك كثيرًا من تعب القلب.

فتح الباب فعبره عمر من خلف شريف؛ أنجزت الخطوة الثانية من الخطة.

بعد ساعة، دخل عمر بيت ماما صبحية تاركًا الباب الأمامي مفتوحًا، كان وليد وشريف من خلفه يصعدان الدرج. نادى عمر على ماما صبحية لتأتيه من المطبخ ثم أجلسها فوق الكنبة. ممسكًا بمعصميها، أخذ وقته في تقبيل جبينها ليتفحص نبض قلبها دون أن تلاحظ. مطمئنًا إلى استرخائها بشكل كاف، انسحب إلى الخلف قائلًا:

- لدي مفاجأة لك، أتى أحدهم لرؤيتك.

طارت يداها صوب شعرها وتحسست شعرها المتربع فوق قمة رأسها:

- من؟

دخل شريف، خطا خطوتين ثم توقف. تجمّدت يدا ماما صبحية فوق رأسها. لكز وليد شريف من الخلف. مطأطئًا ذقنه إلى صدره، جرجر شريف قدميه ووقف أمام أمه.

تابع عمر تقلّب التعابير فوق وجه ماما صبحية من عينين جحظتا تفاجئًا،

إلى حنك تدلّى دهشة، ثم إلى جبين تقطّب غضبًا، إلى أن استوى وجهها على تعبير دافئ، متوهج بالألم والتقريع والغفران معًا وفي آن واحد.

أشاح عمر بصره غيرة من تلك اللحظة الحميمة. ليس من أحد سوى الأم يقدر وفي لمح البصر على الإتيان بتلك النظرة الفطريّة الصافية. اتجه صوب الباب، تخطّى وليد وأومأ له بالرضى؛ أنجزت الخطوة الثالثة.

في وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، حمل عمر صينية كنافة من أحسن محلات الحلويات وتوجه إلى بيت ماما صبحية. كان عمر قد تجنب البيت طيلة النهار كي يلتئمّ شمل العائلة بابنها بعيًدا عن شبح خصومته مع شريف. ولهذا، لم يعرف عمر كيف كان لقاء نادية بأخيها.

آخذًا نفسًا عميقًا، حمل الصينية المغلفة بالورق فوق راحة يده وطرق الباب بالأخرى. ينبغي أن تكون فاطمة ووليد قد وصلا قبله، سيحظى على الأقل بمؤازرتهما.

فتحت هدى الباب، كان وجهها أعكر مما هو عليه في العادة، أخذت ما يحمله وتوجهت إلى المطبخ. كان الجميع في غرفة الجلوس، كلهم عدا نادية. نهض وليد وحيّاه بحرارة، ظل شريف جالسًا، هبط في مقعده أكثر وحدّق فيه بشدة.

قبّل عمر جبين ماما صبحية وجلس بجنبها. نظر في عيني فاطمة، فأشارت بذقنها صوب غرفة البنات. أخته تفهمه جيدًا، أخبرته بأن نادية مختبئة. أترى، خجلًا أم تجنبًا لشريف؟ مال برأسه نحو ماما صبحية رافعًا حاجبيه، فأومأت فاطمة مرتين. أعطته الإشارة بأنها أخبرت ماما صبحية بالغرض المحدد من زيارته في تلك الليلة. لم يرغب في إهدار دقيقة أخرى في المجاملات الزائفة، تنحنح قائلا:

- جئت الليلة كي أطلب يد نادية.

رفع شريف حاجبًا واحدًا.

نظر عمر مباشرة في عينيه:

- تكلمت أنا ونادية في الموضوع، وبعد موافقة ماما صبحية، نحن جاهزان للاستقرار.

قبل أن يتمكن شريف من النطق بحرف، وضعت ماما صبحية يدها فوق شفتها العلوية وقرعت طبول لسانها مطلقة زغرودة طويلة وملعلة. لحقت بها فاطمة على الفور، ثم هدى، كما لو أنهن في مباراة لإطلاق أعلى صيحات الفرح.

بوجه تزينه الحمرة والابتسامات، استقبلت نادية عناق النسوة وقبلاتهن. صدحت أختاها الصغيرتان بأنغام طفولية ساذجة. كان فستانها الأزرق مزنرًا بأشرطة من الساتان الأبيض حول القبة والأكمام، وسواد شعرها المنحدر فوق

كتفيها يتناغم مع لون الساتان. لم تبدُ جميلة ورقيقة فحسب، بل توهجت أيضًا بأنوثة ساحرة. اضطر عمر إلى تفحّص نبض قلبه.

ضربه وليد على كتفه: وأخيرًا.

وقف شريف على قدميه: إذًا طبختم طبختكم، ها؟ وماذا أكون أنا؟ رجل كرسيّ؟ أم قطعة زينة؟

مسحت ماما صبحية على صدره:

- مهمتك بانتظارك يا بني، ستقوم بالواجب تجاه أختك عندما يحين وقت منح عمر يدها.

- أتتوقعين مني أن أعطي أختي لرجل أصله مشكوك فيه؟

وثب عمر على قدميه وزأر:

- كيف تجرؤ على قول ذلك؟

ارتفع صوت شريف:

- قابلت أناسًا في الكويت، بعض اللاجئين من الفلسطينيين الذين كانوا يترددون على العيادة البريطانية في قريتنا.

دفع ذقنه إلى الإمام:

- قالوا لي أشياء مثيرة للاهتمام عن والدك، والدك الحقيقيّ.

جذب عمر شريف من قميصه:

- والدي توفي وهو يعمل في أرضه قبل أن أولد، ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟

حاول وليد سحب عمر إلى الوراء فلم يفلح، وقالت فاطمة شيئًا ولكنه لم يعقل ما نطقت به. هزّ شريف بعنف:

- تكلم، سحقًا لك!

- ألم تتساءل أبدًا عن سبب... إطلاق تلك العجوز في الحيّ لقب الإنجليزي عليك؟

هزّ صوت ماما صبحية البيت:

- كفى!

وضعت يدها فوق كتف عمر، وانتشلته من الهوة المظلمة التي دُفع للسقوط فيها:

- اتركه.

أطلق شريف متقهقرًا خطوتين إلى الوراء وعضلات ذراعيه توجعانه من شحنة الغضب التي لم تفرّغ. ظلّت قبضتاه متكورتين.

هجمت ماما صبحية على شريف:

- ليس في وسعك أن ترى أحدًا سعيدًا، أليس كذلك؟ لست أدري ما ارتكبته من خطأ في تربيتك يا بني، قلبي يتفطّر حزنًا عندما أراك تنحدر إلى هذا المستوى الوضيع.

أشار شريف بإصبعه نحو عمر:

- إنك لم توضحي لنا ولو لمرة واحدة سبب اختلاف شكله الكبير عن فاطمة. تركته يكبر بين أولادك، وأنت تعرفين طيلة الوقت من يكون، ما يكون.

هدر صوت عمر مثل دبّ مزمجر:

- ماذا أكون يا شريف؟

شدّ شريف كتفيه:

- ابن حرام للطبيب الإنجليزي.

وثب عمر نحو شريف، ليس ثمة ما يحركه سوى الغريزة الصافية، مفترسٌ ينقضّ على فريسة.

اعترضت ماما صبحية طريقه وصفعت شريف بشدة:

- اخرس!

علا صدرها وهبط، ترنحت يمينًا وشمالًا ثم انطرحت أرضًا.

تلقفها عمر من تحت إبطيها قبل ارتطامها بالأرض، وساعده وليد على حملها إلى الكنبة. انكمش شريف ذعرًا في الخلف بينما سارعت هدى ونادية إلى الاعتناء بها.

قرفص عمر بحذاء رأس ماما صبحية، تبددت طاقته وقدرته على التفكير بسرعة، وكأنه دمل معتصر ينزّ دمًا وصديدًا. كانت كلمات شريف تطنّ في أذنيه، ابن حرام؟ سعى بعينيه إلى أخته.

كانت فاطمة تتشبثّ بمسنديّ مقعدها ووجهها بلون الليمون، هزّت رأسها وحركت شفتيها: «ليس صحيحًا.»

تطرطرشت يداه عند نثر نادية وجه أمها بالماء، فنهض وأسند ظهره إلى الحائط مفسحًا لها مجالًا أكبر للقيام بمهمتها. هل رأت فاطمة شكًّا في عينيه؟ رغم ما بينه وبينها من اختلاف كبير في الشكل، إلا أنه لم يفكر أبدًا في حيثيات ميلاده. في الزاوية البعيدة من العقل، غالبًا ما كان يرى نفسه كدخيل على العائلة، ولكنه كان يبرر ذلك بكونه يتيمًا. لكن أن يكون ابنًا غير شرعي لطبيب إنجليزي؟ من أين أتى شريف بهذه المعلومة؟ ليس من دخان بلا نار. وتلك العجوز التي أطلقت عليه لقبه عندما كان صبيًا، لماذا لم يبحث أبدًا في السبب الذي دعاها إلى ذلك؟

جذب أحدهم يديه، كانت الصغيرتان تتشبثان به وهما تبكيان فأحاطهما

بذراعيه:

- لا تقلقا، أمكما ستكون بخير.

اخترقت كلماته الغشاوة التي تلفّ دماغ ماما صبحية فاستفاقت:

- أنا بخير، أنا بخير.

شدّت على يدي هدى وحاولت النهوض:

- ساعديني على الوصول إلى غرفتي لا أريد رؤية وجهه.

توجه شريف بصلف صوب الباب: سأذهب.

قفزت نادية مثل الزنبرك وسبقته إلى الباب، أوصدته بالمفتاح ثم أسندت ظهرها فوقه.

- لن تذهب إلى أي مكان.

حدّقت في وجه أخيها بغضب كاوٍ، كانت عيناها صافيتين حادتين وشعرها الداكن يحيط بوجهها الذي يعلوه التصميم:

- إنني لا أكترث بما يكونه عمر، أو بالاسم الذي يستخدمه، أو بمن هو والده. لا أبالي إن كان غوريلا أو مخلوقًا فضائيًا. أنا أحبه، بل أحببته حتى قبل أن أعرف معنى الحب.

دفعت نفسها عن الباب وتحركت لتقف خطوة قبالة شريف:

- لن تترك هذا البيت قبل أن أتزوج أنا وعمر.

طعنت صدره بإصبعها:

- وأنت من سيتولى إتمام هذا الأمر، الليلة.

أبعد شريف إصبعها عنه بضربة عنيفة:

- نجوم السماء أقرب لك يا نادية.

- إنني أحاول التعلق بآخر خيط يجمعنا فقط من أجل ماما.

رفعت ذقنها:

- لست بحاجة لك، إنني أبلغ ما يكفي من العمر كي أتزوج بدون إذنك.

قبض شريف على حفنة من شعرها:

- أتتحدين شقيقك؟

هجم عمر على شريف قبل أن يتمكن من جذب قبضته. ثبّت عنقه في الفجوة ما بين ساعده وعضده محكمًا الخناق عليه:

- اترك شعرها.

أطلق شريف شعر نادية وأرخى ذراعيه.

حاول وليد التدخل:

- لا يمكن حلّ أي شيء بهذه الطريقة.

صرخت نادية بأعلى صوتها:

- متى تصرفت ولو **مرة واحدة** كأخ لي يا شريف؟ إنك لم تقف إلى جانبي **أبدًا** أو إلى جانب أي أحد في هذه العائلة. لم تهتم أبدًا لأمر أحد سوى نفسك، ولأننا لا نقول أي شيء في وجهك لا يعني أننا عميان.

فركت فروة رأسها فتخربش شعرها المسرّح وأضاف مظهرًا أشعث لوقفتها الشرسة.

لم يرها عمر قط بهيئة أجمل من تلك. أطلق سراح شريف، ودفعه بغلظة ثم واجه ماما صبحية:

- هل هناك أي صدق فيما يقوله؟

أحاطت ماما صبحية وجهه براحتيها:

- إنني أعرف والديك جيدًا. والدة أبيك من جنين، هل تسمعني؟ كان شعرها أحمر وبشرتها بيضاء منقوشة بنمش أحمر. لم يكن لدينا متسع من الوقت لحمل صور العائلة من بيت أبيك عند هروبنا.

ازدرد عمر ريقه بصعوبة:

- إنك لم تأت على ذكر جدتي من قبل.

أنزلت يديها عن وجهه:

- لم أر داع لذلك، ظننت أننا نجحنا في إشعارك بأنك واحد منا.

قبّل يدها ورفعها إلى جبينه:

- بلى، نجحتِ.

- عندما عبرنا الحدود مع غيرنا من اللاجئين، رغبت في تسجيلك أنت وفاطمة باسم عائلتنا كأولاد لنا. لكن مصطفى رفض مصرًا على أنك الذكر الوحيد الذي نجا من عائلة بكري.

وضعت ماما صبحية يديها على كتفيه، وضغطت عليهما برفق:

- قال مصطفى إنه يقع على كاهلك حمل اسم عائلة أبيك، هل تعتقد أنه كان سيقول ذلك لو كان لديه ذرة شك في أصلك؟

باغتتهم نبرة هدى، كانت هادئة لطيفة:

- أتدرون ما يستغلق عليّ فهمه؟

استدار الجميع نحوها.

- أشرفت على توليد النساء في حيّنا منذ زمن طويل. وهنّ لاجئات مثلنا، وكثيرات بينهن ينحدرن من القرى المحيطة بقريتنا.

نظرت في أخيها وضيّقت عينيها:

- لكن أي واحدة منهن لم تأتِ على ذكر هذا الطبيب الإنجليزي الذي

تتحدث عنه. وأنت، بالذات، تعلم ولع النساء بالنميمة، كيف تفسر هذا الأمر؟

تململ شريف في وقفته:

- كيف لي أن أعرف؟ ربما... ربما مراعاة لمشاعرك، أمسكن عن قول هذا في وجهك.

ثم صوّب عينيه باتجاه أمه:

- أو لعلهنّ... لعلهنّ احترمن ماما كثيراً لأنها أخذته تحت جناحها وربته.

هزّ كتفيه:

- لا أدري.

تصّلب صوت هدى وأصبح أكثر حدة ورعبًا ومطابقًا لنظراتها القاتلة:

- لدي تفسير أفضل، لقد اختلقت هذا الأمر برمته.

سقط وجه شريف:

- كانت هناك عيادة بريطانية، أليس كذلك؟ أعني لمجرد أن النساء لم يـ...

ساطته هدى ثانية:

- توقف عن الكذب، لم تفعل هذا؟

- ماما فضّلت عمر دائمًا عليّ.

- كم عمرك؟ تسع سنوات؟ ماما لن تفضل أيًّا كان على ابنها أبدًا. هذا ضد الطبيعة البشرية، ألا تدرك ذلك؟

- طردتني من هذا البيت!

صرخ شريف فتطاير رذاذ من البصاق من فمه:

- لأجله!

جمّدت نبرة هدى الغرفة بما فيها:

- فعلت ذلك لأجل نادية لا عمر! يجب أن تقبّل قدمي أمك الآن لسماحها بعودتك بعد كل ما فعلته.

فقد صوته نبرته المتحديّة:

- تلك كانت غلطة سميرة، لقد غرّرت بي.

طوت هدى ذراعيها فوق صدرها:

- هل غرّرت بك سميرة عندما قطعت صلتك بنا؟ هل غرّرت بك عندما صرخت في وجه أمك؟ أتدري أن عمر بمفرده حمل عبء هذه العائلة على كاهله. وأمر آخر، **أيها الأخ**، عمر لم يرفع صوته أبدًا في حضور ماما ولا لمرة واحدة.

وجهت ماما صبحية كلامها إلى شريف وهي تنظر إليه بتلك النظرة

المختلطة التي شاهدها عمر في عينيها من قبل:

- كفّ عن هذا! ستقوم الآن بواجبك يا بني، وسنترك ما فات خلفنا ، ولن نتكلم فيه مرة أخرى.

فتح شريف فمه ليقول شيئًا ثم بدا وكأنه غيّر رأيه.

استدارت ماما صبحية لتكلم وليد:

- اذهب إلى الجامع واجلب الشيخ وشاهدين. سنعقد الليلة هذا الزواج تحت سمع الله وبصره، وسنسجله في الصباح. سيكون الزفاف في آخر خميس من هذا الشهر، بعد ثلاثة أسابيع.

# 36

رفعت نادية طرف ثوب زفافها وخطت برجلها اليمنى عتبة بيتها الجديد جلبًا لليمن والبركة. كانت لا تقوى على الوقوف ورجلاها تتمايلان مثل طبق من المهلبية. تسابقت على مر الأسابيع الثلاثة الماضية بجنون مع الزمن كي تجهز كل ما يلزم قبل موعد الزفاف، والآن تراكم عليها التعب كله. كانت قدماها تؤلمانها بشدة ففكّرت في خلع حذائها، لكن ألن يبدو ذلك تصرفًا لا وقار فيه؟

أوصد عمر الباب الأمامي من خلفه ثم حلّ ربطة عنقه وفكّ قبة قميصه الأبيض وقال متبرمًا:

- حسبت أن السهرة لن تنتهي أبدًا.

- أحسنت صنعًا باختيار تلك الفرقة، فقد استمتع الجميع بالغناء والموسيقى.

- عظيم، لكني، مع ذلك، تمنيت لو أنهم أنهوا الحفلة أبكر قليلًا.

أسدل سترته على مسند الكرسي الوحيد في غرفة الجلوس. بميزانية عمر الشحيحة ومساعدة فاطمة المتواضعة، تمكنا من شراء غرفة نوم معقولة، وما هو ضروري من مستلزمات المطبخ، أما بقية الشقة فبقيت فارغة تقريبًا.

توجهت نادية إلى غرفة النوم، كان محبسان من المحابس التي تثبّت طرحتها ينغرسان مثل مخلبين في فروة رأسها وظلت تقاوم طيلة الحفل رغبتها في سحبهما. لم تعد الآن قادرة على احتمال الألم فجذبت طرحتها لفكّ المحبسين. انزلقت خصل كثيفة من تسريحتها المعقدة لكن المحبسين العنيدين لم يتزحزحا، لماذا ترتجف أصابعها هكذا؟

اقترب عمر منها لفكّ محابس طرحتها قائلًا:

- تعالي، دعيني أساعدك.

هبّت أنفاسه الدافئة على وجهها وأثارت رائحة العطر العابقة بأريج الأرز طوفانًا من الذكريات، فعمّ الارتجاف سائر بدنها. ما الذي يجري لها؟

تاركًا الطرحة تسقط أرضًا، خلل عمر أصابعه في شعرها حتى انسدل كله فوق كتفيها. أصبح تنفسه عميقًا، وتلاشت ابتسامته ثم غشا وجهه تعبير غريب.

تبدد نبض الصداع من رأسها بتدفق الدم إلى البقعتين المؤلمتين، لا بدّ وأن

هذا ما سببّ بدء دوران الغرفة من حولها. يا الله، لا تدعها تكن تلك البنت السخيفة التي يغمى عليها ليلة زفافها. وضعت يديها فوق صدره قائلة:

- ضمني إليك.

طوّقها بتردد وارتخاء في البدء ثم انقبضت عضلاته وانبسطت راحتاه فوق ظهرها.

- يا إلهي، إنك ترتجفين مثل ورقة شجر! هل تشعرين بالبرد؟

دفنت وجهها أسفل ذقنه، كانت خفقات قلبه المتسارعة تنبض في العرق الملامس لوجنتها. حرّكت رأسها من جنب إلى جنب ردًّا على سؤاله فتمسحت ببشرته وتنعمت بروعة المزيد من دفء صدره.

انبعث من حلقه صوت عميق:

- هل تعرفين كم حلمت بهذه اللحظة؟ أنت في أحضاني؟

هزّت رأسها ثانية وغبّت عبقه الذكوريّ وهي عاجزة عن الكلام.

- منذ زمن طويل يا نادية، طويل جدًّا.

حنى رأسه ليمسّ أذنها بشفتيه:

- كم أتمنى لو كنت قادرًا على البوح لك بالكثير، ولكني لا أحسن التعبير عن أمور كهذه.

مرّغ أنفه في تلك البقعة الغضّة فوق عنقها:

- يا إلهي، رائحتك زكيّة للغاية!

انطلقت رجفة كالسهم صوب أصابع قدميها فصعقت قلبها مثل شحنة من الكهرباء. تحت أناملها، سرت رعشة في عضلات صدره، هل هذا ما تحدثه فيه من أثر؟ سحبت رأسها جانبًا وبسطت وجنتها فوق كتفه.

أطلق نفسًا مضطربًا وأنزل يديه إلى أسفل ظهرها:

- لا تخافي. الآن، أنا وأنت فقط.

أجل، لقد كانت في تلك اللحظة امرأة متزوجة بين ذراعي زوجها الحبيب، لكن المشكلة الوحيدة هي أن **عمر** هو من يكون زوجها. كانت تتصور أن يكون هذا أكثر أمر طبيعي في العالم، فلماذا تشعر الآن بكل هذا الارتباك؟ أطبقت عينيها وعصرتهما بشدة:

- هذه هي المشكلة.

تشنج:

- لا أفهم.

رفعت رأسها وأبقت عينيها في أسفل عنقه، ثم صدر صوتها مختنقًا وكأنها

طفل يوشك على البكاء:

- أعتقد... إنني بحاجة لمزيد من الوقت، كي أعتاد على فكرة... أنا وأنت.

سحب يديه وخطا إلى الوراء:

- بالطبع، خذي من الوقت قدر ما تشائين.

نفرت عضلات حنكه واحمرّ وجهه وعنقه. بدا متألمًا كما لو أنها أهانته، لماذا أنصتت إلى هدى عندما حدثتها بأمر هذه الليلة؟ لم يعد بمقدورها الآن ألاّ تبدو كفتاة حمقاء مرعوبة. جلست على حافة السرير:

- قدماي تؤلمانني.

عمّت وجهه موجة من التشوش قبل أن يرتكز على ركبة ويطوي الأخرى من تحته ثم يخلع لها كعبها العالي. دلّك قدميها مبقيًا رأسه إلى أسفل وجبينه يكاد يمسّ حجرها.

خللت أصابعها العشرة في شعره من مقدمة رأسه وحتى مؤخرته متلذذة بملمسه الخشن تحت يديها:

- أصبح شعرك كثيفًا جدًا الآن.

زفر بصوت مسموع ثم ألقى جبينه في حجرها. تسلقت يداه الدافئتان ببطء شديد ساقيها من تحت فستان الزفاف. كلا، يداه ليستا دافئتين، إنهما كاويتان وتصليان جلدها صليًا. واصل وسم ساقيها بنيرانه مطابقًا وتيرة صعوده البطيء بزحف أصابعها في شعره. تبدد جلدها وصار جسدها برمته مشبوكًا في عصب واحد مجدول يصل فخذيها ببقعة عميقة في بطنها. ما هذا الإحساس؟ كيف لها أن تضع مسمى لأمر لم تشعر به في حياتها من قبل؟ سامعة صوت لهاثها، أطلقت سراح شعره ووضعت راحتيها فوق ركبتيها لتعترض طريق يديه الزاحفتين إلى أعلى.

رفع رأسه وقذفها بنظرات نفّاذة لم تر مثلها من قبل أبدًا. اسوّدت زرقة عينيه وأصبحت بلون حبر قلمها السائل، وأطلّ من أعماقهما تعبير أعجميّ لا تفقهه. التقطت نفسًا حادًا.

سحب يديه ورجع بظهره إلى الوراء مرتكزًا على كعبيه:

- هل قدماك أحسن؟

كان صوته عميقًا، ورغم ما في سؤاله من اطمئنان عليها، إلا أن نبرته لم تخلُ من جلافة وحدّة.

ازدردت ريقها:

- أجل، شكرًا لك.

نهض ثم استدار وأولاها ظهره:

- أنا عطشان، أتريدين أن أجلب لك شيئًا من المطبخ؟

- نفد الوقت من بين أيدينا أنا وفاطمة، ولم تسنح لنا فرصة فكّ أغلفة أدوات المطبخ بعد.

مشى أثناء كلامها نحو الباب، لِمَ يتعجل الخروج؟ لا يمكن أن يكون عطشان إلى هذه الدرجة. لعله يريد منحها فرصة خلع فستانها الثقيل. انزلقت من فوق السرير قائلة:

- عمر، انتظر.

وضع يده على جانب الباب:

- نعم؟

ذابت الأحرف فوق لسانها ولم تشكل ما أرادت قوله من كلمات:

- لو سمحت... هل يمكنك...

قابلها من جديد.

- ماذا تريدين؟

سحبت شعرها إلى جنب رقبتها واستدارت:

- أرجوك، هل يمكنك... فكّ فستاني؟ لا أستطيع الوصول إلى السحاب.

مرّت بضع نبضات من قلبها دون أن تسمعه يحرك ساكنًا، وبعد أن أوشكت على اليأس، اقترب. اقترب كثيرًا جدًا، لو تنفس أعمق بقليل، لمسّ ظهرها بصدره. حنت رأسها، وتمنت تحت وطأة الانتظار المشوب بالتوتر لو أنها لم تطلب منه شيئًا.

لمست أصابعه عنقها، تباطأت فوق البقعة الوحيدة قرب منابت شعرها ثم تحركت لتنزل السحاب. ارتخى الفستان حول صدرها وخصرها، هل تشكره وتنتظره ريثما يخرج؟ لكنه لم يتحرك. كانت حرارة جسده تعبر تلك المسافة التي لا تكاد تلمس بينهما وتلفح ظهرها الذي بات مكشوفًا.

همس كما لو كان يكلم نفسه:

- إنه ليس عاري الكتفين.

- عفوًا؟

خرج صوته وكأنه صعد درجًا طويلًا شاهقًا:

- فستانك. سمعتك تقولين ذات مرة إنك تحبين أن يكون ثوب زفافك بلا أكمام.

استدارت وهي تشدّ بكلتا يديها مقدمة فستانها فوق صدرها لكن قماشه الرقيق انزلق عن كتفيها. أمسك الخجل بخناقها، وجعل صوتها يكاد يكون غير

مسموع:

- لم تسمح لي ماما.

غامرت باستراق نظرة إلى وجهه، فرأت عينيه مسلّطتين على فمها لا على كتفيها العاريين. يجب أن يتركها الآن كي تستبدل ملابسها بشيء من الكرامة، قالت:

- ألم تكن عطشان؟

ضربت عيناه عينيها لجزء من الثانية قبل أن يمدّ رأسه ويرطّب شفتيها بشفتيه. قطع وصالهما ومنحها ما يكفي لسحب نفس قصير، ومرتجف ثم عادت شفتاه لافتراس شفتيها.

تركته يقبّلها المرة تلو الأخرى. لعلها بادلته القبل، لم تكن متأكدة. وأنّى لها أن تعرف؟ تبخرت الأفكار من رأسها بسرعة انسكاب ماء من كأس مقلوب. تماهت شفتاها في شفتيه إلى أن اعتادتا على أوامرهما. لعلها تنهدت، أو ربما كان ذاك صوت تأوهاته العميقة التي سرت في أسماعها كالموسيقى.

غائبة عن الوجود في أحضانه، لم تدرك أن ظهرها أصبح عاريًا إلا حين داعبت أصابعه أوتار قوسه. بدأ فستانها بالانزلاق بينما كانت أصابعها تطبق على مقدمته ويداها حبيستا صدره. اعترتها موجة من الذعر، حررت فمها من أسر شفتيه وتمكنت من النطق باختناق:

- انتظر، انتظر.

تتبعت شفتاه جانب وجنتها وواصلتا كيّ كتفها بسعير قبلاته الحارة.

- عمر، انتظر.

أراح جبينه حيث وصلت شفتاه وأطلق زفرة طويلة ومعذبة:

- لا تفعلي هذا، أرجوك. لا تبتعدي عني.

- لكن فستاني... إنه ينزلق.

- اتركيه.

هبط بيديه إلى وركيها وجذبها إلى جسده بقوة.

لما شعرت بطعنته، شهقت.

- لا عليك يا نادية، هذا أنا.

خاطرت بتحرير يد من يديها ودفعت صدره عنها:

- كلا، هناك أمر غلط.

لاعنًا في سره، تركها تفلت من بين يديه وتتقهقر إلى الوراء.

جاذبة فستانها المنزلق إلى أعلى، هبطت فوق السرير وهي تحدّق به.

قبض على حافة التسريحة وهو يلهث:

- كنت مستعدًا لتركك في حالك كما طلبت لكنك ناديتني وطلبت مني أن أخلع لك ملابسك.

فرك عنقه:

- يجب أن تكوني واضحة معي، هل تريديننا أن نقضي هذه الليلة معا؟

أومأت رغم خجلها الشديد. كانت ترغب في أن يقبلها ثانية، إنها متأكدة من ذلك. البقية؟ ربما أمكنها تأجيلها إلى وقت آخر؟

جلس بقربها على السرير وأمسك بيدها الطليقة:

- أرجوك، قولي لي إنك تعرفين كيف يتمّ هذا الأمر. ألم تدرسيه في المدرسة أو تقرأي عنه؟ ألم يحدثك أحد بما يجري في مثل هذه الليلة؟

- أعرف الأساسيات، هدى شرحتها لي.

تأوّه:

- هدى؟ ألم تقل لك أمك شيئًا؟ فاطمة؟

- ماما حاولت، لكني كنت محرجة للغاية فقلت لها إني تكلمت مع هدى. وفاطمة؟ قالت إنك تعرف ما ينبغي فعله وإن عليّ ألا أقلق.

تفحّص أصابعهما المتعانقة في حجره. كان ما يطلّ من ياقته المفتوحة يلمع بالعرق، وصدره يعلو ويهبط مع كل نفس، ورجله تهتزّ بعصبية بجنب رجلها. أهو متعجل؟ متضايق من جهلها؟ أم أنه وببساطة متوتر فحسب؟ ربما كانت فاطمة مخطئة، لعله يتوقع الآن أن تقوم **هي** بشيء ما.

شدّت على يده:

- عمر؟

رافعًا بصره، غمرها بنظرة من بؤبؤي عينيه الداكنين. كانا فاتنين، فتّاكين وينطقان بلغة لا تفهمها. قبّل كتفها العاري وقال:

- ليس هناك ما يستدعي القلق.

- الأمر لا يسير كما ينبغي، ليس بحسب ما قالته هدى.

- وما الذي قالته هدى بحق السماء؟

جذبت فستانها الذي أصبح في حالة رثّة إلى أعلى:

- قالت إنه سيكون سريعًا، انظر لي.

عضت على شفتها السفلى وتابعت:

- أكاد أكون عارية وأنت لم تخلع ولو حذاءك بعد.

تنحنح ووقف أمامها. رافعًا قدميه من فردتيّ حذائه، خلع قميصه وجذب

حزامه من بنطاله ثم تململت أصابعه فوق سحابه:

- هل تريدينني أن أكمل؟

هزّت رأسها بالنفي، ولكنها لم تشح بصرها عنه. جريئة أم وقحة، لم تكترث لما قد تظنه بها هدى. جسده المشدود أجمل من ألا يبدي الناظر أعجابه به في العلن. كانت عضلاته تحت بريق بشرته المتعرقة تهدر مثل أمواج تتكسر فوق شاطئ.

- إنك ترتجف؟

- جسدي يتوق لك يا نادية.

طوى المسافة بينهما.

- أريدك أن تكوني لي.

صوته انسكب مثل الشوكولاتة الساخنة وتدفق كنهر من الشهد يكتسح كلّ ما في طريقه.

- قالت هدى إنه سيكون مؤلمًا، لم أعتقد أنه سيكون مؤلمًا لك أيضًا.

احتضن وجهها براحتيه وقرّب رأسه منها:

- لا أستطيع أن أعدك بأنه لن يكون مؤلمًا في البداية ولكن يمكنني أن أعدك بهذا.

أطبق على فمها وأبقاه أسير قبلة طويلة ثم قال:

- سأبذل كلّ ما في طاقتي كي لا أكون سريعاً.

هي لم تفهم ما قصده.

هو أخذ وقته في الشرح.

# شكر وامتنان

إنني مدينة ببالغ الشكر والعرفان لشخص واحد هو والدي الراحل حسن طه. لقد كتبت سطور هذه الحكاية وفق إرشاداته وبتشجيع منه، غمسته معي يوميا في عملية الكتابة إلى أقصى حد ممكن، امتصصت أفكاره، ذكرياته، وما خبره من مشاعر حقيقية إبّان العصر الذي شهده وجرت خلاله أحداث هذا الكتاب. كنت آمل أن يرى كيف استوت هذه الحكاية على سوقها، لكنه توفي قبل شهرين من توقيعي على عقد النشر. كان والدي وراء سيري في هذا الدرب وسيظلّ القوة الملهمة التي تشحن أجنحتي دوما بالطاقة والانطلاق. لا آمل في أكثر من إشعاره بالفخر.

لطالما اعتمدت على الحب والدعم غير المشروطين من جانب والدتي الحنون، نوال أبو قوارة. إنني لن أفيها ما حييت حقها من الشكر على ما أكونه الآن أو لما سأكنه أبد الدهر. وقوفها إلى جانبي وإيمانها الدؤوب بقدرتي على إنجاز هذا الكتاب لم يصبه الوهن أبدا. حملتني على الإيمان بقدراتي الكتابية حتى عندما كان يعتريني الشك أحيانًا.

كما أتوجه بالامتنان العميق إلى زوجي سعد صالح الذي آزرني طيلة مراحل الكتابة المشحونة عاطفيًا التي استنفدت وقتي كله. خلال طريقنا إلى الجامعة لزيارة أبنائنا، كان يقود بنا السيارة من هيوستن إلى أوستن وبالعكس مرات لا تحصى ولا تعد، وكان ينصت خلال ذلك بكل الصبر وأنا أقرأ عليه فصول الكتاب فصلا تلو الآخر بينما كنت أطور الحكاية. ملاحظاته كانت قيمة للغاية، واقتراحاته بخصوص العنوان كانت واسطة العقد.

كما أود التعبير عن تقديري لولديّ الحبيبين، ليلى صالح وباسل صالح، اللذين كانا في غاية التسامح مع شرودي وانشغالي بشخصيات من صنع الخيال تعيش بين دفتي كتاب. ابتساماتهما الدائبة وعناقهما المتواصل كان خير عون لي على خوض غمار عملية الكتابة المعقدة لهذه الحكاية، وما أبدياه تجاهي من صبر ونضج فاق ما في عمرهما من سنوات.

أشكر أيضًا شقيقي، باسل طه، لحبه وطبعه المرح الذي يدفعني دومًا إلى الانطلاق.

كما أود أن أشمل بالشكر تاليا سوزوما رئيسة قسم النشر باللغة الإنجليزية في مؤسسة قطر بلومزبري للنشر سابقًا (دار جامعة حمد بن خليفة للنشر). منذ لحظة حصولها على مخطوطة كتابي وإلى لحظة طباعته وخروجه في حلته الأخيرة كان ما قدمته من دعم لي مطلقًا ورصينًا على الدوام. لقد رصدت بعين يقظة خيوط الحبكات وزوايا الكتابة واقترحت التحسينات كلما استدعى الأمر. كما أشكر فريق التحرير، خاصة المحررة ميشيل واللين، وفريق إعداد الغلاف في مؤسسة قطر، الذي بذل مجهودًا كبيرًا ليخرج الكتاب في حلته القشيبة.

الأشخاص التالية أسماؤهم كان لهم دور مهم في المساعدة والدعم والتشجيع: سناء الدباغ، منال بروكلمان، روجر بولدنغ، شارون دَتسِن، باربره آندروز، لوك تشوفِن، جو نايت، ساندره إم ديجيوفاني، باولا بورتر، بوب غريغوري، لويس ألين ايبستِن، جوليان كندرد، كارول سوينتِك وألكسندرا تشِس.